مصريون معاصرون

دكتور محمد الجوادى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٦



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام
د. ناصر الأنصارى

الإشراف الطباعى
محمود عبد المجيد

الغلاف
صبرى عبد الواحد

الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

تقديم

منذ أطلقت السيدة الفاضلة سوزان مبارك دعوتها بأن «الحق فى القراءة مثل الحق فى التعليم والحق فى الصحة، بل الحق فى الحياة نفسها» ، والقارئ المصرى ينتظر كل عام **مهرجان القراءة للجميع**.
وها هى **«مكتبة الأسرة»** أحد روافد المهرجان الرئيسية تكمل عامها الثالث عشر ، وقد أصبحت خلال هذه السنوات أضخم مشروع نشر فى مصر، وقدمت مكتبة عملاقة تجاوزت ٣٤٤٢ (ثلاثة آلاف وأربعمائة واثنين وأربعين) عنوانًا، من ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) كاتبًا ومفكرًا وأديبًا، طبعت منها أكثر من ٣٩,٠٠٠٠٠٠ (تسعة وثلاثين مليونًا) نسخة بأسعار فى متناول الجميع، وذلك فى مختلف الفروع: العلوم والتكنولوچيا، والعلوم الاجتماعية، والتذوق الموسيقى، والتصوير، والمسرح، والسينما، والأعمال الأدبية الرفيعة، التى مثلت مسيرة الإبداع فى مصر والعالم، والأعمال الفكرية التى تنبذ الخرافة والإرهاب، والأعمال الدينية التى تعكس صحيح الأديان، وعيون الأدب العربى والتراث، التى تربط الأجيال الجديدة بتاريخها

المضىء فى مراحله المتميزة، ورصد إسهام هذا التراث فى بناء الإرث الثقافى الإنسانى.

تنطلق «مكتبة الأسرة» لعام ٢٠٠٦ تحت الشعار النبيل الذى طرحته السيدة الفاضلة «سوزان مبارك» : ثقافة السلام، وهو يدعو إلى نشر ثقافة السلام فى المجتمع، ودعم التسامح ونبذ العنف، والتعرف على عادات وتقاليد الشعوب الأخرى، والتأكيد على أهمية الحوار واحترام الآخر، وتقديم التنوع الثقافى، ونشر المعرفة والتواصل مع الحضارات الأخرى.

تأتى «مكتبة الأسرة» هذا العام والعالم كله يعانى من وطأة العنف والإرهاب. ولم يعد هناك منقذ سوى مواجهة قوى الظلام بالتنوير على يد المفكرين والمثقفين والمبدعين، الذين ظل دورهم عبر التاريخ هو ترسيخ القيم العقلانية والجمالية والإنسانية، ومحاربة النزعات البدائية، التى تستخدم القوة لإشعال الحروب وتدمير البشرية وإنجازاتها.

و«مكتبة الأسرة» هذا العام من خلال سلاسلها المتنوعة ستعكس الدور الرائد لثقافة التسامح، التى تستطيع الحفاظ على تراث الأمة الحضارى.

وحتى نلتقى مع مكتبة الأسرة ٢٠٠٦ ، سنعيد إصدار نحو مائة عنوان بشكل جديد كتمهيد لانطلاقة المشروع.

ناصر الأنصارى

إهـداء

إلى الأستاذ الدكتور أسامة عبد العزيز

تحية تقدير ومودة متصلة بإذن الله

د محمد الجوادى



هذا الكتاب

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من كلمات ومقالات التأبين التى أتيح لى أن أنشرها رثاء لبعض المصريين المعاصرين أو إحياء لذكراهم، ولست أستطيع أن أزعم أن هذه الكلمات بمثابة ترجمات كاملة أو مختصرة أو سريعة لهذه الشخصيات، إنما هى أضواء موحية على بعض من الجوانب التى تبدت لى فى هذه الشخصيات.

ومن الطبيعى أن تكون هناك علاقات صداقة أو تلمذة أو إعجاب تربطنى بهذه الشخصيات، ولا أظن أنى كنت قادراً على الوفاء بحق شخصيات أخرى كانت تستحق أكثر من هذه الكلمات السريعة، ولكن المرء لايكون قادراً فى كثير من الأحيان على أن يفى بحق كل من يستحقون، ذلك أن الرثاء نفسه يستلزم ويتطلب من المرء أن يكون قادراً عليه ومتهيئاً له فى

اللحظة التى يأتى فيها وقته.

ولقد حاولت فيما كتبت - على مدى سنوات - أن تكون كلماتى قادرة على تقديم صورة للشخصية ذاتها، وأن أتجنب ما أمكننى الحديث عن جوانب علاقتى بالشخصية، إلا أن يكون لهذه العلاقة شأن محدد فى تصوير الشخصية على نحو ما ينبغى أن يكون.

وقد رأيت أن نشر هذه الكلمات فى هذا الكتاب لا ينبغى له أن يتأخر أكثر من هذا وبخاصة أن بعضها نشر منذ ما يقرب من عشرين عاما لولا أننا كالعهد بنا مانزال نفرّط فى تكريم بعض من يستحقون التكريم ونفرط فى تكريم آخرين.

والله سبحانه وتعالى نسأل أن يجزى هؤلاء جميعاً عنا خير الجزاء.. وأن يتقبلهم ويتقبلنى بواسع رحمته ومغفرته.. وأن يهيئ لى من أمرى الرشد والهداية والتوفيق.

د. محمد الجوادى

إبراهيم أدهم الدمرداش

افتقدت الأوساط الهندسية والعلمية فى القاهرة هذا الأسبوع، شيخ المهندسين المصريين الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش (٨١ عاماً)، الذى كان من القلائل الذين جمعوا فى حياتهم الطويلة بين عدة مناصب رفيعة، فكان عميداً لكلية هندسة القاهرة ونقيباً للمهندسين ورئيساً لجمعية المهندسين المصرية، فضلاً عن عضويته الدائمة والبارزة لأكبر المجتمعات العلمية وعلى رأسها مجمع اللغة العربية، وأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا، والمجلس الأعلى للجامعات.

أطرف ما فى ذكرى الدكتور الدمرداش أنه الوحيد بين أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة (٥٤ عاماً هى عمر المجمع و١٥٠ عضواً على مدى هذه السنوات) الذى انفرد بخمس عشرة قصيدة فى رثاء أعضاء المجمع الراحلين من زملائه.

ومنذ نال الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش عضوية المجمع فى ١٩٧٣ ، وهو يلقى القصائد فى رثاء الراحلين من زملائه ملخصاً بهم حياتهم على أروع أوزان العروض . . وفى مجلات المجمع ومحاضر جلساته (التى ما تزال مخطوطة) بالقاهرة قصائد (دمرداشية) فى رثاء كل من الأساتذة: محمود تيمور، وزكى المهندس، وزكى عبدالقادر، ود. محمد كامل حسين، ود. إبراهيم أنيس، ود. إبراهيم اللبان، وعلى الخفيف، وعباس حسن، ود. أحمد بدوى، والشيخ محمد الفحام، ود. أحمد عمار، وعلى النجدى ناصف، ومحمد خلف الله، وبدر الدين أبو غازى، وأخيراً المهندس الأشهر أحمد عبده الشرباصى، الذى يعتبر هو الآخر علماً بين المهندسين المثقفين.

هذا وقد نال الدكتور الدمرداش دبلوم الهندسة الملكية المصرية فى سن مبكرة (١٩ عاماً)، وسافر بعدها فى بعثة إلى سويسرا حيث حصل على دبلوم الهندسة المدنية من جامعة زيورخ (عام ١٩٢٨)، ثم على الدكتوراه فى العلوم الهندسية (١٩٣٠)، وعمل فى بعض الشركات السويسرية والألمانية والإنجليزية لمدة ثلاث سنوات، عاد بعدها ليعمل فى مدرسة الهندسة الملكية (١٩٣٥)، ثم رقى أستاذاً مساعداً (١٩٣٩) وأستاذاً (١٩٤٤). .

وهو بهذا واحد من أقدم الأساتذة المصريين فى جميع التخصصات .

فى كلية هندسة القاهرة شغل الدمرداش منصب رئيس قسم هندسة الطيران، ثم أصبح عميداً للكلية لثلاث مرات فى أعوام : ١٩٥٢ و١٩٥٤ و١٩٦٢ . . وعند وفاته كان الدمرداش سابع أقدم عضو مصرى فى المجمع اللغوى الذى انتخب فيه منذ أربعة عشر عاماً (١٩٧٣) فى نفس المقعد الذى شغله القانونى الأكبر (السنهورى باشا) . . وعلى الصعيد النقابى انتخب الدكتور الدمرداش نقيباً للمهندسين فى دورتين متتاليتين ١٩٥٥ و١٩٥٦ . . وبهذا كان أقدم النقباء على قيد الحياة ! !

وعلى الصعيد العلمى المهنى انتخب الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش رئيساً لجمعية المهندسين المصرية (١٩٧٨ ـ ١٩٨٢) .

هذا وقد نال الدكتور الدمرداش تقدير بلاده على أعلى المستويات، فقد نال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم (١٩٦٨) عن اثنين وستين عاماً وهو سن مبكر يومها . . وكان الدمرداش ثانى أستاذ من أساتذة الهندسة ينال هذه الجائزة . . بعد أن نالها الدكتور مصطفى نظيف مدير جامعة عين شمس الأسبق .

فى مجلس أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا بالقاهرة، كان لإبراهيم أدهم الدمرداش صوت قوى حال كثيراً دون تمرير كثير من الآراء المتسرعة فى إقرار سياسات البحث العلمى . . وكان فى وسعه بفضل مكانته الأدبية وقدرته على البحث المتأنى والدراسة الواعية، أن يلتفت إلى كثير من الحقائق الهامة فى مسيرة العلم فى مصر، وأن يقنع التنفيذيين الكبار بضرورة (الانصياع) إلى المناهج التى تضمن سلامة البناء العلمى فى المستقبل البعيد.

وعلى مدى تاريخه العلمى أسهم الدكتور الدمرداش فى الاستشارات الفنية لهيئة إنقاذ معابد فيلة، والهيئة العامة لتطوير المحالج والسقيفة القيمة للمسعى فى الأراضى المقدسة، وقبة الصخرة، وشركتى التقطير والأسمنت، وقبة جامع محمد على بالقلعة . . إلخ.

وعلى الصعيد الدولى كان الدمرداش عضواً باللجنة الدائمة للجمعية الدولية للكبارى والمنشآت منذ ١٩٥٢، كما منح ميدالية هذه الجمعية (١٩٨٠).

وقد تركزت بحوثه التى لقيت احتراماً دولياً فى مجالات الإجهادات الناشئة عن العزوم والأعتاب الشبكية، والأعتاب الإطارية وحساب العقود المشدودة، والأعتاب المقواة، والإطارات المثقلة، وحساب الإجهادات فى أركان الإطارات، والهياكل الإنشائية، والكبارى المتحركة، وانبعاج الأضلاع والألواح والهياكل الملحومة . . إلخ.

وإلى آخر أيامه كان الدكتور الدمرداش يبهر زملائه فى الاجتماعات العلمية بمعرفته الوثيقة باللغة العربية وباللغتين الإنجليزية والألمانية اللتين درس بهما، وبمقدرته على استرجاع الشعر العربى الأصيل وإبداعه، وبمواظبته على حضور الجلسات والاجتماعات منذ بدايتها وحتى النهاية . . وكان الدكتور الدمرداش مشهوراً فى هذه الاجتماعات بحرصه على البعد عن المناقشات البيزنطية والافتراضات المضيعة للوقت، وفى الاتحاد العلمى المصرى كان من أبرز الداعين إلى ترشيد التعليم، وربطه بخطة التنمية، والإفادة من الخريجين فى المجالات التى درسوا من أجلها السنوات الطوال، والبعد عن المفاهيم المنادية بإطلاق الحريات فى هذه المراحل جميعاً، وترك المسائل لسوق العرض

والطلب، وهى الروح التى نشأت لبعض الوقت فى ظل سياسات الانفتاح .

من بين الرثاءات المتعددة التى نشرتها الصحف لنعى الفقيد، رثاء مجموعة من كبار المهندسين (من تلاميذه) فى نعى مشترك قالوا فيه : «كنت قمة شامخة فى علمك وخلقك وعطائك، وضربت الأمثال فى مجالات كثيرة زخرت بآثارك ومواقع عديدة حفلت بأفضالك، وسيبقى بها وفيها ذكرك دائماً منارة تهدى للقيم السامية والمبادئ» .

ووصفه عثمان أحمد عثمان بأنه كان : «علماً من أعلام المهندسين البارزين والأوائل، ورائداً من رواد العلم وأستاذ الأساتذة». وكتب مشهور أحمد مشهور : « الذى أعطى وطنه بسخاء فى كافة المناصب التى تولاها . . أما الدكتور أحمد محرم أحمد وزير الإسكان الأسبق فقد وصفه بأنه : أستاذه الكبير وأستاذ الأساتذة والأجيال المتتالية من المهندسين» .

نشرت تحت عنوان : «رحيل آخر المهندسين العمالقة . . ٩١ عاماً و٤٣ عاماً فى كرسى الأستاذية . . إبراهيم أدهم الدمرداش عضو مجمع اللغة العربية وصاحب ١٥ قصيدة فى رثاء الخالدين!!

[الأهرام الدولى : ٢٠ يوليو ١٩٨٧]

إبراهيم بيومى مدكور

فيما بين زملائه من رواد تعليم الفلسفة فى مصر المعاصرة تميز إبراهيم بيومى مدكور باهتمامه بمجالين مهمين لم يشاركه غيره الاهتمام بهما . فقد اهتم باللغة الفلسفية ، وكان هذا الاهتمام بالطبع نتيجة شبه حتمية لدراسته فى دار العلوم ، وما قبل دراسته فى دار العلوم [الأزهر والقضاءالشرعى] ثم لدراسته الفلسفة فى فرنسا منذ البداية ، فهو لم يذهب هناك متخرجاً فى قسم فلسفة فى مصر ، ولكنه بدأ هذه الدراسة هناك .

وعلى هذا النحو كان تكوين إبراهيم مدكور الفلسفى أكثر التكوينات الفلسفية قدرة على التأثر الحساس بالمفردات اللغوية وما تمثله من مفردات فلسفية ، ثم كان بعد ذلك أقدر الناس على تمييز اللفظ المنتقى للمعنى المراد التعبير عنه ، وقد انشغل بحكم قدرته على الهدوء ثم على التفكير الهادئ بدراسة الفروق الدقيقة جداً بين المترادفات الشائعة جداً ، ولكنه لم يقدم هذه الفروق فى

دراسات لغوية أو فلسفية ، وإنما ادخرها بحكم مكانته الكبيرة لكى تظهر فى عباراته القليلة التى كونت مقالاته القليلة وكتبه الأكثر قلة وندرة .

ولكنه مع ذلك ظل كالبوصلة الهادئة من خلال مواقعه العديدة : أمينا ثم رئيساً لمجمع اللغة العربية ، ومسئولا عن كثير من اللجان والمهام فى المجلس الاعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ثم فى المجلس الاعلى للثقافة ، وفى المجالس القومية المتخصصة ، وفى كثير من المواقع العلمية والقومية الهادئة ، والمنظمات العربية والإقليمية المعنية بالتربية والثقافة والعلوم ، هكذا أتيح لجمهور المثقفين والمتعلمين والأكاديميين أن يفيدوا من أثر هذه البوصلة الصحيحة الهادية الهادفة فى إخراج كثير من المعجمات المتخصصة ، والموسوعات العظيمة ، ومجموعات المصطلحات والدراسات المستفيضة .

ولم يكن غريباً أن يحقق الدكتور إبراهيم بيومى مدكور الرقم القياسى فى البقاء فى مجمع اللغة العربية ، فقد قضى فيه تسعة وأربعين عاماً (١٩٤٦ـ١٩٩٥) ، ولم يكن غريباً أن تمتد رئاسته لهذا المجمع إلى اثنين وعشرين عاماً (١٩٧٣ـ١٩٩٥) ، وليحطم فى الحالين الرقمين القياسيين لسلفيه أستاذ الجيل لطفى السيد

وعميد الأدب العربى طه حسين ، ومن غرائب الأقدار أن العمر قد امتد به إلى نفس عمر أستاذ الجيل وأستاذه على وجه الخصوص أحمد لطفى السيد (٩٣ عاما) .

وقد كان إبراهيم بيومى مدكور طيلة حياته وحتى قبل وفاته بقليل نموذجاً فذاً للذاكرة القومية الممتازة التى شاركت فى حفظ تراث الأمة يوماً بعد يوم ، وفى الإضافة إلى هذا التراث .

وسوف تتاح للقارئ العربى فى وقت قريب الدراسات الفلسفية النقدية التى تعطى لإبراهيم بيومى مدكور دوره الحقيقى بين أعلام تدريس ودراسة الفلسفة فى جيله ، حين تجد «اللغة» - وهى وعاء الفلسفة الأكبر - الاهتمام اللائق بها على النحو الذى تلاقيه «موضوعات الفلسفة» من ناحية «ومناهجها» من ناحية أخرى .

أما الجانب الآخر الذى تميز به مدكور عن أقرانه فهو اشتغاله المبكر بالحياة العامة ، وقد كان نشاطه فى هذا المجال أيضاً فريداً ، فعلى الرغم من اهتماماته السياسية وانتماءاته الحزبية الواضحة كان إبراهيم مدكور دون غيره من السياسيين القدامى جميعاً - باستثناء زميله مريت غالى - معنياً بالممارسات السياسية على

المستوى الدقيق « MICRO » لا على المستوى الضخم الظاهر « MACRO» .

ومن العجيب أننا فى ١٩٩٥ لاتزال نفتقر إلى هذه النوعية من السياسيين رغم التشجيع الضخم الذى تقدمه جريدة الأهرام من خلال صفحتى الرأى ، وندوة الجمعة الأسبوعية للأفكار الكفيلة بمعالجة دقائق الأمور التى تصوغ كبائرها ، وقد كان إبراهيم بيومى مدكور منذ ماقبل الثورة حفيا بدراسة وتقديم مثل هذه الدراسات من خلال البرلمان ، وقد أتيح له أن يدخل مجلس الشيوخ ولما يبلغ السن القانونى لهذا المجلس ، ولكنه كان بحكم هدوء الفلاسفة والعلماء والمصلحين قريبا إلى الشيوخ منذ مرحلة مبكرة . ومن العجيب أيضا أن مدكور ومريت غالى قد اشتركا فى مرحلة مبكرة فى وضع كتاب عن إصلاح الإدارة الحكومية . ومن العجيب للمرة الثالثة أن هذين الرجلين وزميلهما محمود محمد محمود رئيس ديوان المحاسبة الأشهر قد انفردوا بتولى الوزارة لأقصر فترة فى تاريخ مصر الحديث فقد عمل مدكور وزيراً للإنشاء والتعمير ليوم واحدفقط هو آخر أيام وزارة على ماهر الأخيرة أولى وزارات الثورة ، وعمل محمود محمد محمود وزيراً للمواصلات ليوم واحد فقط هو نفس اليوم ،

كذلك فقد عمل مريت غالى وزيراً للشئون القروية ليوم واحد أيضا شأن مدكور ومحمود فى نفس الوزارة ، وكان قد عمل أيضاً وزيراً ليوم واحد فقط لنفس الوزارة ليلة قيام الثورة!!!

ولكن الثورة فى الحقيقة أفادت من إبراهيم بيومى مدكور فى الموقع الاكثر تناسباً مع هدوء العالم الفيلسوف المصلح، حيث تولى مسئوليات كبيرة جداً فى مجلسى الإنتاج والخدمات ، وهما المجلسان اللذان صاغا كثيراً من إنجازات الثورة الأولى فى شتى الميادين.

□

على هذا النحو المتميز مضت حياة هذا الرجل العظيم حقاً ، وعلى هذا النحو المتميز نستطيع أن نفهم دوره الشجاع فى تبنى استجواب الأسلحة الفاسدة الذى كان أحد أقوى إرهاصات ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وعلى هذا النحو نستطيع أن نفهم استقالته من الجامعة فى منتصف الثلاثينات ليعمل عضواً فى مجلس الشيوخ خمسة عشر عاماً، حيث كان من أبرز المنادين بإصلاح الإدارة الحكومية وبتحديد الملكية الزراعية ، وكان له مع عدد من الزعماء موقف شجاع من الملك فاروق فى آخر أيامه ، وعلى

هذا النحو نستطيع أن نفهم قيمة مدكور كرجل اقتصاد بارز فيما قبل الثورة وفيما بعدها تتجه إليه الأنظار لتضم رأيه إلى آراء الاقتصاديين والتجاريين والصناعيين الكبار فى كثير من مجالس إدارة الشركات والمؤسسات المالية .

وقد اجتمعت لهذا الرجل العظيم دراسات الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى ومدرسة دار العلوم وليسانس الآداب من السوربون وليسانس الحقوق من جامعة باريس ودكتوراه الدولة الفرنسية فى الفلسفة ، مما أتاح له أن يكتب أوفى الكتابات عن ابن سينا والغزالى وابن خلدون وأن يقدم بحوثا ممتازة من قبيل «نشأة المصطلحات الفلسفية فى الإسلام» ، وأن ينفرد قبل غيره بدراسة العلاقة بين « منطق أرسطو والنحو العربى» ، ولكنه مع كل ذلك كان نموذجاً نادراً للإقلال من التأليف مع كل القدرة عليه ، ونموذجاً قديراً للبعد عن الأضواء رغم قربها منه وإحاطتها به ، ونموذجاً رفيعاً لعدم الحرص على اكتساب البطانة فى عهود قامت على التفاخر بالبطانات !!!!

نشرت تحت عنوان : «وزير ليوم واحد ونصف قرن فى الخالدين» .

[الأهرام : ٩ ديسمبر ١٩٩٥]

أحمد أمين

يعد أحمد أمين علامة من العلامات البارزة فى أدبنا العربى المعاصر، وحين يكون على دارسى الأدب أن يجدوا نموذجاً للأديب الذى لم يترك من الآثار الأدبية ذات الأشكال شيئاً على الإطلاق وهو مع هذا من الأدب بمكانة لا يستطيع معها أحد أن ينكر عليه أنه أديب، فسوف يجدون أحمد أمين.

فى أحمد أمين تمثلت رفعة صفات على صفات أخرى يظنها الناس فى المكانة الأرفع، فقد كان بحاثة وكان أديباً، والعقاد كان يظن أنه حين يقول عن أحمد أمين إنه بحاثة عالم وكفى فهو يمنع عنه مجد «الأدب»، حتى اضطر - ذات مرة - بفضل إنتاج أحمد أمين أن يضفى عليه هذه الصفة أيضا. . فطفقت دمعة من عين أحمد أمين أو هكذا كان يمكن أن تصور الأمور. . ومع هذا فهل يمكن لنا أن نقول إن وصول الإنسان إلى أن يكون أديباً قد يكون

أعظم شأناً من وصوله إلى أن يكون عالماً بحاثة؟؟ يصعب هذا حتى يصل إلى درجة المستحيل . . ومع هذا فقد كان أحمد أمين أديباً على أعظم ما يكون التأدب الحق، عالماً على أروع ما يكون العلم الحق.

□

وعلى نفس السطر (إن جاز هذا التعبير) كان أحمد أمين قد لاقى صعوبة فى نوال الأستاذية، وهى الصعوبة التى لم يجدها فى نوال العمادة، وهذه هى الخلفية الحقيقية لقولته المشهورة إنه أكبر من عميد وأصغر من أستاذ (على الرغم مما قد يشيع لهذه القولة من تفسيرات كثيرة أخرى قد تتوافق مع نظراتنا المثلى لأوضاع مضطربة اليوم).

لكن هل يعنى ذكر هذا أن بإمكاننا أن نقول إن العمادة شىء أقل من الأستاذية، مع علمنا أن كل عميد لابد أن يكون أستاذاً قبلها؟؟ لا أعتقد.

وعلى نفس السطر أيضاً يمكن القول بأن أحمد أمين كان صحفياً ممتازاً بل رئيس تحرير (فعلى) لمجلة أسبوعية صدر منها ٧٣٢ عددا على مدى ١٣ عاما من أخطر الأعوام التى مرت

بالإنسانية على مدى تاريخها (مع أن أحمد أمين لم يختر هذه الأعوام لصدور المجلة التى تولى أمرها)، ومع هذا فإن أحمد أمين كان أكثر أدبائنا الكبار ابتعاداً بقلمه عن الصحف السيارة، وكان أكثرهم رفضاً لتولى مسئولية صحيفة حزبية، وكان الأديب الوحيد تقريباً الذى ابتعد عن السياسة وعن الأحزاب (ابتعد توفيق الحكيم عن الأحزاب لكنه لم يبتعد عن السياسة).

□

ومع هذا كله فقد كان أحمد أمين يبدو فى الحياة العامة جداً وكأنه أكبر من صحفى.. وأصغر من سياسى.. ولكن هل كانت المكانة التى وصل إليها أحمد أمين الصحفى أقل من المكانة التى كان يمكن له أن يصل إليها كسياسى؟ قد يكون الجواب بالنفى هو أوضح الإجابات.

□

ربما تقودنا هذه الظواهر الثلاث إلى البحث فى عمق عن طبيعة رجل، كان من الممكن أن يظل فى سلك القضاء الشرعى، يتباعد عن الناس والجمهور وأهل الحل والعقد بحكم مثاليات مهنته، حتى يأتيه أجله بعد أن يتقلد رئاسة المحكمة الشرعية

العليا مثلاً . . فيقودنا مثل هذا الافتراض إلى القول بأن طه حسين كان صاحب الفضل الأوفى على الثقافة العربية حين أتاح لها أن تعطى دوراً لأحمد أمين، وهو الفضل الذى ظهر فى موقفين أولهما : حين هيأ طه حسين لأحمد أمين الكرسى الذى شغله فى كلية الآداب، وثانيهما : حين اتفق الرجلان ومعهما الأستاذ العبادى على أن يشرعوا فى تأليف تلك الموسوعة التى لم يقم بواجبه فيها غير أحمد أمين نفسه .

ومع هذا هل كان طه حسين حين أدى هذا الذى أداه غير واع بالقيمة الكبرى لهذا الرجل؟ هل عرف طه حسين عالمنا عن طريق المصادفة؟ هل جاء به إلى هذا المكان من الجامعة على سبيل المجاملة أو الشللية؟ ليس من شك أن الجواب هو النفى، وقد كان أحمد أمين نفسه (على ما ينبئنا التاريخ) مرشحاً فى ذات الوقت للانضمام إلى هيئة التدريس فى كلية الحقوق من ذات الجامعة . وهذا مثل بارز لأن الأستاذ الحق أستاذ من قبل أن نحدد له تخصصاً .

□

ومع هذا يتبقى لنا بحكم التفكير الرياضى أن نسأل سؤالاً

آخر : هل لو لم يكن طه حسين قد اكتشف فى أحمد أمين ما اكتشف وجاء به إلى الجامعة . . هل كان أحمد أمين سيبقى فى هذا السلك الذى ينتهى به على أحسن الفروض إلى رئاسة المحكمة الشرعية العليا؟ هل كان أحمد أمين كنزاً لا يعرف طريقه إلا طه حسين؟

والإجابة عن هذا السؤال تحتاج بعض البحث فى تاريخ الرجل قبل أن ينضم إلى الجامعة وأسرتها، وتحتاج أيضا بعض التأمل فى نفسية أحمد أمين وانطباعاته عن طريقه فى الحياة، كما يظهر من التحليل الواعى لما بين السطور فى كتابته عن حياته فى الترجمة الذاتية الرائعة التى نشرها . . وتحتاج الإجابة أيضا إلى بعض التشكك فى إمكان أن يبدأ عالم مساره العلمى على حين فجأة حين ينتقل من مجال وظيفى إلى مجال آخر . . فإذا راجعنا هذه الزوايا الثلاث مراجعة دقيقة، فسوف ندرك بوضوح أن أحمد أمين لم يكن ذلك الكنز المخبوء الذى لم يعرف طريقه غير طه حسين، ولم يكن ذلك الكنز الذى لا يعرف نفسه، ولم يكن ذلك الكنز الاستاتيكى الذى يمكن له أن يظل من دون أن يدرى بعيداً عن تحقيق ذاته فيما حباه الله به من صفات متفردة .

□

على هذا النحو نستطيع أن نعيد التأمل فى رجل شارك منذ الأيام الأولى فى تأسيس لجنة التأليف والترجمة والنشر فى نشاطها، وفى رجل بذل جهده فى تعلم اللغات والقراءة بها، وبذل جهده فى تكوين شخصية وسد الثغرات التى تركها نظام تعليمى غير متكامل، وفى رجل وصل إلى ما وصل إليه من مجد وجاه فلم يفقد منه شيئاً إلا الإحساس به!!

نشرت تحت عنوان: «بعد مائة عام من مولده: من هو أحمد أمين؟»

[القبس الكويتية، ١٩٨٦]

أحمد حسن الباقورى

كان فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى عليه رحمة الله عبقرية إنسانية بكل ما تحمل الكلمة من معان ، فهو عبقرية علمية ، وعبقرية سياسية ، وعبقرية لغوية ، وعبقرية اجتماعية كذلك .

نجح هذا الرجل فى أن يكون منذ ١٩٣٥ وحتى ما بعد ١٩٨٥ صاحب حضور متصل فى هذا المجتمع على جميع الميادين وقد امتحن شر ما يكون الامتحان ، وأوذى ، وضيق عليه ، ولكنه عاد - وهو متقدم فى السن وقد أصابه المرض- إلى الحضور والتأثير فى المجتمع .

ولو لم تكن الثورة قد قامت فمن المؤكد أن الشيخ أحمد حسن الباقورى كان سيجد فرصته إلى موقع الصدارة فى مجتمعه ، ولو لم يكن الباقوى قد عمل وزيراً فمن المؤكد أنه كان قادراً على

الوصول إلى أبعد من هذا المنصب واكثر من هذا الموقع فى التأثير فى الحياة العامة .

☐

ومن المؤسف أن الجيل الجديد لا يعرف أبعاد الباقورى كلها ، ولا يعرف للرجل فضله بسبب تشويه أصاب صورته على صفحات بعض المجلات التى آثرت أن تبنى مجدها من هذا الطريق . . ومن العجيب أننا لا نلتفت إلى عفة هذا الرجل وترفعه عن الرد على هذه الحملات حين كان فى وسعه أن يرد . . من العجيب أننا كشباب لا نأخذ من هذا ولو مجرد دليل على رفعة هذا الرجل ورفعة أخلاقه . عليه رحمة الله .

☐

ولد الشيخ أحمد حسن الباقورى عام سبعة (١٩٠٧) فى باقور وهى فيما فيما يبدو قرية صغيرة جداً إلى الحد الذى جعل طه حسين يخاطب الباقورى فى حفل انتخابه عضوا فى مجمع اللغة العربية فيقول عن قريته إنها عرفت به !!

ودرس الشيخ أحمد حسن الباقورى فى الجامع الأزهر حتى حصل على الشهادة العالمية القديمة (١٩٣٢) وبعدها بأربع

• سنوات نال شهادة التخصص فى البلاغة والأدب (١٩٣٦).

وفى ١٩٣٥ تزعم الباقورى ثورة الطلبة فى الأزهر ، وشارك عن الأزهر فى لجنة الطلبة التى كان من بين أعضائها أيضا الرئيسجمال عبد الناصر (طلاب الثانوى) وسهير القلماوى (طلاب كلية الآداب) وحسن عباس زكى (طلاب التجارة العليا) وفى ١٩٣٥ أيضا ساهم الباقورى فى ثورة داخلية فى الأزهر قامت تطالب بعودة الشيخ المراغى إلى منصب المشيخة . . وقد حدث .

وفى ١٩٣٨ شارك الباقورى بشدة فى التحريض على الأحزاب ، وفى أثناء حكومة الوفد (حكومة ٤ فبراير) سجن الباقورى (٤٢ – ١٩٤٤) .

□

وقد تزوج الشيخ الباقورى (١٩٤٠) أبنة أستاذه الشيخ عبد اللطيف دراز أحد المشايخ المبرزين فى ثورة ١٩١٩ ، وأعطاه هذا بعد إضافياً فى نضاله ونشاطه السياسى . . وعمل الباقورى مدرساً فى معهد القاهرة الدينى ، وتدرج بعد ذلك فى المناصب فعمل وكيلاً لمعهد أسيوط ، ثم وكيلاً لمعهد القاهرة، ثم شيخاً

لمعهد المنيا ، وهو المنصب الذى أتى منه إلى الوزارة .

فى شبابه آثر الباقورى لنشاطه السياسى أن يكون من خلال جماعة الإخوان المسلمين ، وفى هذه الجماعة بزغ نجمه وسطع إلى الحد الذى اختير معه وكيلاً للشيخ حسن البنا المرشد العام نفسه ، وكان البنا يفاخر بالباقورى ، ويعتمد عليه اعتماداً كبيراً ، ولا شك أن وجود عالم أزهرى متمكن ومتكلم مثله إلى جوار حسن البنا كان مكسبا للجماعة بكل المقاييس .

بعد قيام الثورة اختير الشيخ الباقورى فى أول وزارة شكلها محمد نجيب (سبتمبر ١٩٥٢) وزيرا للأوقاف وبقى فى هذا المنصب ست سنوات ونصف بلا أنقطاع حتى أقيل فى فبراير ١٩٥٩ (فى ثمان وزارات متتالية) .

واستطاع الباقورى خلال توليه هذا المنصب أن يصلح كثيراً من الأمور بقوة وعزيمة ، وكان من أهم إنجازاته إلغاء الوقف الأهلى بكل ما تكاثر عليه عبر السنين من فساد إدارى .

☐

على أن قيمة الباقورى التى أفادت الثورة أيما إفادة كانت فى حضوره المتصل وتشريفه حكومتها فى كل مكان رحل إليه سواء

فى الداخل أو فى الخارج ، وقد سافر الباقورى إلى كثير من البلاد العربية والإسلامية وحتى الصين، وتولى توطيد العلاقة مع كثير من هذه الحكومات ووضع أسسا لعلاقات جديدة . كما شارك الباقورى فى مؤتمر باندونج (١٩٥٥) مع الرئيس جمال عبد الناصر .

□

وفى ١٩٥٦ اختير الباقورى عضواً فى مجمع اللغة العربية وهو فى التاسعة والأربعين من عمره ، وفى ١٩٥٨ حاول الإستقالة لإنشغاله المتصل فرفضت استقالته. وكأنه لم يكن يعرف أنه مقدم على خمس سنوات من العزلة الإجبارية ! !

فى فبراير ١٩٥٩ حدثت للباقورى محنة شديدة مع عبد الناصر ، وقد ظل الناس إلى وفاة عبد الناصر يغلبون عناصر الظن وبقلبونها على وجوهها فى حقيقة ما نشب بينهما من خلاف. وبعد سنوات طوال روى الباقورى بنفسه أسباب الخلاف فى أكثر من موضع من مذكراته التى نشرتها، وفى حوارات صحفية أخرى. على أنى أفضل لقراء التاريخ أن يقرأوا رواية صلاح الشاهد فى مذكراته، وهى رواية أنصفت الباقورى

العظيم بأكثر من رواياته الشخصية التى لم تخل من الفزع مما حدث له ، نسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة ! !

□

فيما بعد وفاقه مع عبد الناصر عاد الباقورى ليعين مديراً لجامعة الأزهر (يوليو ١٩٦٤) وليكون ثانى مدير لها بعد تطوير الأزهر وفى الواقع أن الباقورى هو المؤسس الحقيقى لجامعة الأزهر . . وهو صاحب أطول مدة فى منصب مدير جامعة الأزهر حتى الآن .

وقد استطاع الباقورى بحكم ثقافته الواسعة وتسامحه ، وسعة أفقه أن يهيئ الفرصة لأصحاب الكليات الجديدة والمستحدثة فى أن يجدوا مكانا رحبا تحت شمس الأزهر الشريف العريق ، وأن يؤسسوا معاملهم وكلياتهم وفق أنظمتهم وعلومهم ، ولم يكتب الكثير عن هذا الفضل بعهده ، بيد أن قراءة ما كتبته الدكتورة سميحة الباجورى فى الاحتفال بكلية طب بنات الأزهر يعطينا (على سبيل المثال) فكرة عن بعض فضل هذا الرجل فى هذا المجال .

□

كان الباقورى صاحب سلطان فى الدولة بالطبع وصاحب قدرة على الإقناع، وعلى التوفيق ، وعلى المبادرة ، والمبادرة وعلى حل المشكلات قبل استفحالها، ومن هذا كله أفادت الجامعة الناشئة .

وإنه ليحلو لى على الدوام أن أقول إن الباقورى لعب فى جامعة الأزهر الدور الذى أداه من قبل أربعة من كبار زملائه في بلورة وبناء الجامعة المصرية وهم احمد لطفى السيد فى جامعة القاهرة وطه حسين فى جامعة الأسكندرية ومحمد كامل حسين في جامعة عين شمس وسليمان حزين فى جامعة أسيوط . ومع هذا ينبغى لنا أن نقدر أن مهمة الباقورى كانت أصعب بكثير من مهمة أسلافه الأربعة هؤلاء، وهو عندى واحد من الخمسة الذين أثروا فى صياغات التعليم العالى فى مصر قبل حقبة السبعينات .

وفى ١٩٦٤ تولى الشيخ أحمد حسن الباقورى رئاسة مجلس إدارة البعوث الإسلامية، وفى مايو ١٩٦٦ تولى رئاسة مجلس جامعة الأزهر ، كما كان الشيخ حاضراً بصفة دائمة فى المجلس الأعلى للجامعات، وفى مايو ١٩٦٩ اختير عضواً بمجمع البحوث الإسلامية .

□

وقد اختير الشيخ أحمد حسن الباقورى بصفة دائمة فى عصرى الرئيس عبد الناصر والسادات ثم فى عهد الرئيس مبارك عضواً فى كثير من مؤسساتنا السياسية الهامة، فكان عضواً فى المؤتمر القومى العام عاماً بعد عام، وفى اللجنة المركزية، وعضوا فى اللجان العامة للمواطنين من أجل المعركة، وعين عضواً فى مجلس الشورى (١٩٨٠) عند تشكيله لأول مرة واحتفظ بهذه العضوية حتى وفاته. كما رأس الشيخ أحمد حسن الباقورى جمعية الشبان المسلمين حتى وفاته.

وللشيخ أحمد حسن الباقورى مؤلفات كثيرة منشورة منها «عروبة ودين» و «غروب الاستعمار الفرنسى» و« الإسلام والجهاد » و«القرآن مأدبة الله للعالمين» و« مع الصائمين »، وله مع ذلك مؤلفات طريفة فى الصيد وطرائفه، فضلاً عن مجموعات المحاضرات التى تناول بها السيرة النبوية.

□

بقى سؤال مهم، فنحن نجمع على أن الأستاذ الباقورى هو بلا شك واحد من أبرز من خرجهم الأزهر فى القرن العشرين ،

ولكن هل يمكن لنا أن نعتبره أبرز هؤلاء على الأطلاق ؟

لاشك أن الباحث الذى يؤثر السلامة لن يلقى بنفسه فى خضم مسألة كهذه، وخصوصا أن الجيل الجديد ، وبخاصة أهل التدين منهم قد شبوا فلم يقرأوا فى المجلات الدينية السياسية (وبخاصة مجلة الاعتصام) إلا الهجوم تلو الهجوم على الرجل فى كل عدد من أعدادها، والرجل لا يرد، حتى أصبحت صورته محاطة فى ذهن هؤلاء بالضباب الذى لم يكن أساسه غير هذاالهجوم المتكرر الذى لا يترك إلاصورة - لا نتحرج إذا قلنا - غير مشرفة على الإطلاق لهذا العالم الجليل .

□

وقد يعجب بعضنا من هذا الذى أقول . ولكن الذى لا شك فيه أيضاً أن العجب الأكبر (وإن كان على النقيض من العجب الأول) سيكون من أقرانى الذين يظنون الأمر تحيزاً منى أو غباء على الأقل حين ادعى أن الباقورى هو أبرز خريجى الأزهر فى القرن العشرين . ولكنى لا أعتقد أن احترام المرء لنفسه يأتى فقط من احترامه للآراء الشائعة فى طائفته مهما كانت درجة التشبع بالاقتناع التى تحظى بها هذه الآراء ، ولكنه يأتى أيضاً من

محاولته كسر إطار الباطل الذى قد يحيق ويحيط بكثير من الحق الظاهر .

ولقد كنت أتحرج أن أقول هذا الذى أقوله اليوم، حين كان الرجل لا يزال بين الأحياء بروحه وجسده، وأما وقد ووري جسده التراب، وسبقنا إلى رحمة الله، فلعل الواجب والوازع لا يدعان لى فرصة الاعتذار .

ألقيت - ارتجالاً - فى حفل التأبين الذى أقيم (١٩٨٥) فى القاعة الرئيسية للبنك الرئيسى للتنمية والائتمان الزراعى .

أحمد عز الدين هلال

حين تتقدم السنون بالمهندس الكفء فإنه يتحول إلى إدارى قدير ، وحين تتسع أمامه المسئوليات والاختصاصات يتحول إلى اقتصادى ناجح ، وحين تمتد هذه السلطات لتتولى شئون قطاع من قطاعات الخدمة الوطنية فإنه يتحول إلى رجل دولة من الطراز الاول ، وقد كان أحمد عز الدين هلال واحداً من أبرز رجال الدولة الأفذاذ الذين قدموا لوطنهم حياتهم العظيمة والممتدة فى هدوء ومثابرة وولاء طويل النفس على مدى هذه المراحل التى لا تتأتى متتابعة هكذا إلا للنوادر من أمثاله .

وقد كان واحداً من عشرة (على الأكثر) صاغوا فكر النهضة الاقتصادية لمصر فى الربع الأخير من القرن العشرين بما استطاع تنفيذه وإدخاله فى نظمنا الاقتصادية ونظرتنا إلى علاقاتنا الدولية والداخلية فى مجال عمله ، وقد ساعده على ذلك بُعد نظر شديد تمتع به ، ورؤية شاملة لمشكلات المجتمع المصرى

وتطلعاته ، وفكر ثاقب تغذى منذ مرحلة مبكرة ، وتشرب بالتقدم العالمى فى مجال عمله ، وبالإنجاز الواقعى على أرض وطنه ، كما كان بالإضافة إلى فكره ورؤيته واحداً من القلائل الذين يصدق عليهم القول بأنهم أصحاب قرار .

□

إلى أحمد عز الدين يرجع الفضل فى مرحلة مبكرة من حياته الوظيفية فى المشاركة الجادة مع زملائه العظماء فى إتمام عمليات التمصير والتأميم ، ثم فى تركيب معامل تركيب البترول فى مصر ، وفى بعض البلاد العربية ، ثم فى إدارة موارد البترول المصرى فى أحلك الظروف قبل حرب ١٩٧٣ وفى أثناء هذه الحرب ، ثم فى إدارة ثروة مصر البترولية بعد حرب أكتوبر وانتصارنا فيها .

□

كان اختياره لتولى وزارة البترول قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ بستة شهور أحد العلامات (الصغرى) للإقدام على الحرب ، فقد كان واحداً من التكنوقراطيين الكبار جداً الذين تأهلوا فى مرحلة الإدارة العليا بالخلفيات الاستراتيجية ، وكان من المدنيين القلائل

الذين أتيح لهم أن يدرسوا فى أكاديمية ناصر العسكرية العليا وتخرج فيها (١٩٦٧) . . . كما كان واحداً من المهندسين المدنيين الفدائيين الذين بقوا فى معامل تكرير البترول بالسويس بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وقد جاء اختياره وزيراً للبترول بمثابة تصعيد طبيعى فقد كان يتولى رئاسة مؤسسة البترول منذ أكتوبر ١٩٧١ ، بعد اختيار سلفه المهندس على والى ليكون أول وزير دولة للبترول فى ١٩٧١ .

ثم كان أحمد عز الدين واحداً من النجوم الذين تسلط عليهم الصحافة العالمية ووكالات الأنباء عدساتها الكاشفة طيلة مابعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ والعصر الذهبى للبترول ، ولكنه لم يفقد للحظة واحدة المعدن الصلب النقى للرجال المسئولين الذين خاضوا المحنة فى أقسى لحظاتها ، فلم يزدهم الانتصار إلا ولاء لوطنهم ولقيم العمل والمثابرة والتفانى ، وظل طيلة حياته الوزارية والعامة ملتزما فى مسلكه العام بالأمانة والشرف والخلق الرفيع .

□

وقد تمتع بحب وسائل الإعلام والصحفيين وقادة الرأى ، ولكنه لم يحدث نفسه طيلة الفترة التى قضاها فى السلطة بأن

يتحول إلى نجم لامع أو ساطع على نحو ما يفعل كثيرون من الذين لايصلون بقاماتهم إلى عُشر إنجازاته . كما شارك بفاعلية فى صياغة فكر التنمية الوطنى بما قدم من إنجازات واضحة ، ونماذج رفيعة للعمل الجاد الهادئ المدروس جيداً ، والبعيد عن الأهداف قصيرة الأجل ، و الديماجوجية الفارغة .

□

ثم كان صاحب الرقم القياسى فى البقاء فى مقعد الوزارة فى عهد الرئيس السادات الذى تميز بكثرة التبديل والتغيير ، وقد بقى وزيراً للبترول فى عهد السادات طيلة ثمانى سنوات ونصف سنة منذ مارس ١٩٧٣ وحتى وفاة الرئيس ، وبالإضافة إلى هذا فقد تولى الثروة المعدنية (منذ مارس ١٩٧٣ وحتى أبريل ١٩٧٤) ، وفى وزارتى ممدوح سالم الأخيرتين ضمت إليه وزارتا الصناعة والثروة المعدنية لمدة عام كامل (أكتوبر ١٩٧٧ - أكتوبر ١٩٧٨) وحين شكل الدكتور مصطفى خليل وزارته فى أكتوبر ١٩٧٨ كان واحداً من اثنين من المهندسين استبقاهما مصطفى خليل من الوزارات السابقة على الرغم من أنه استعان بعشرة آخرين من المهندسين فى وزارته الجديدة .

وفى آخر وزارات الرئيس السادات (مايو ١٩٨٠) تولى هلال رئاسة اللجنة الوزارية للإنتاج فى مجلس الوزراء وعين نائباً لرئيس الوزراء، واحتفظ بهذا المنصب حتى شكل كمال حسن على فى وزارته فى يوليو ١٩٨٤ فآثر بناء على قراره الشخصى واختياره أن يخلد إلى الراحة بعد أحد عشر عاماً فى المنصب الوزارى لم يكن أحد قد وصل إليها باتصال فى عهد الثورة إلا الدكتور محمود فوزى فى وزارة الخارجية .

□

وقد أسهم أحمد عز الدين هلال بفكره وجهده فى صياغة مناخ الاستثمار فى استكشافات البترول الجديدة ، واستطاع بدقته ومهارته ومثابرته وتفانيه النجاح فى اجتذاب أكبر عدد ممكن من الشركات العاملة فى مجال الاستكشاف لتمارس نشاطها فى مصر ، وبذل جهده باقتدار فى إتاحة الفرص أمام هذه الشركات لكى تضيف إلى ثروة مصر ، ونجح قبل نظرائه من الوزراء الآخرين فى خلق مناخ الاستثمار المشجع والمنضبط فى ذات الوقت بفضل فهم جيد لاقتصاديات السوق العالمية ، ولطبيعة رأس المال، وقبل هذا للجوانب الفنية فى عملية الاستثمار فى البترول .

وكل مواطن فى القاهرة يذكر له مسارعته إلى تزويد المساكن بالغاز الطبيعى بخطة مدروسة وتنفيذ رائع وبأيد مصرية . والاقتصاديون يذكرون له موازنته الدقيقة بين الإفادة من التصدير فى قطاع البترول وبين تنمية الصناعات البترولية .

□

وقد عامل هذا الرجل البترول كثروة ينبغى عليه أن يحقق لوطنه منها أقصى إفادة بالإدخار والاستثمار فى ذات الوقت ، وكان فى إدارته لثروة بلاده الجديدة رائداً للصناعة وللاقتصاد على حد سواء ، كما تمثلت فى شخصه كل مقومات الفأل الحسن على قطاعه .

وعلى المستوى البيروقراطى والتنفيذى نجح عز الدين هلال فى أن يقنع الدولة منذ مرحلة مبكرة بالإبقاء على هيئة (أو مؤسسة) للبترول تتولى وظيفة سيادية واقتصادية محددة ، هى نفسها الوظيفة التى عرفتها الدولة وعرّفتها بعد أكثر من عشر سنوات فى صيغة «الشركات القابضة» .

ولأنه كان مخلصاً وأميناً ومعنياً بمسئولياته فحسب ، فإنه احتفظ لقطاع البترول بالصياغات الكفيلة بالنجاح دون أن

يفرضها على القطاعات الأخرى حتى عندما تولى رئاسة اللجنة الوزارية للإنتاج فى مجلس الوزراء (مايو ١٩٨٠ - يوليو ١٩٨٤).

وقد رشحته قدراته العلمية والبحثية ليتولى رئاسة مجلس بحوث البترول والطاقة والثروة المعدنية فى أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا، كما شارك بفعالية فى مؤتمرات الأمم المتحدة المعنية بالطاقة، وكان رئيساً لوفد مصر فى مؤتمر الأمم المتحدة بنيروبى (١٩٨١)، وأتيح لى فى هذا المؤتمر أن أرقب نشاطه الجم عن كثب، وأن أجده لايخلو لنفسه إلا ليقرأ حتى فى الطائرة، وفيما بين الجلسات.

□

وفى المؤتمر الاقتصادى الذى عقد فى بداية عهد الرئيس مبارك وفى غيره من المؤتمرات، ظهر هذا المهندس الكفء بما نال إعجاب وتقدير الاقتصاديين فى ذات الوقت الذى تضاءل فيه إعجابهم بنظرائه من وزراء آخرين.

□

حظى بتقدير الرئيس السادات و الرئيس مبارك، وكان واحداً

من الندرة فى تاريخ مصر الذين منحوا وشاح النيل مرتين، فقد منحه له الرئيس مبارك عند خروجه من الوزارة فى ١٩٨٤، كما كان الرئيس السادات قد منحه له فى عيد المهندس الأول (١٩٨٠)، وفيما قبل نال وسام الجمهورية من الطبقة الأولى فى أعقاب حرب أكتوبر.

ومع هذا كله فقد تقاصرت صحفنا تماماً فى تعريف المواطنين حتى فى يوم وفاته وحتى بعد رحيله، مع أن أمثاله يظلون بمثابة قناديل مضيئة تجدر الإدارة إليها والإشادة بها على الدوام.

نشرت عقب وفاته مباشرة فى جريدة الوفد تحت عنوان: «أحمد عز الدين هلال رجل البترول : واحد من عشرة صاغوا فكر نهضتنا الاقتصادية فى ربع القرن الأخير».

أحمد فؤاد محيى الدين

تمثلت فى الدكتور فؤاد محيى الدين كل سمات السياسى المصرى التقليدى، الذى يحرص على إرضاء الجماهير وإرضاء الأصدقاء والأقارب والمثقفين، لكنه يرضى كل طائفة من هؤلاء بقدر مقدور لأنه يعرف أن رصيده الذى يرضى منه وبه الناس محدود فى النهاية بما تمكنه منه الظروف.

كان فؤاد محيى الدين منذ شبابه البكر متطلعاً إلى أن يقوم بالدور الذى قام به بالفعل، وقد هيأ نفسه للقيام بهذا الدور على جميع المستويات. فقد أقنع نفسه بالدور وبأهميته تماماً، وتدرب عليه جيداً، وصرح به لمن هم من حوله ثم مضى باجتهاد ودأب وصبر فى الخطوات التى ظنها تؤهله للدور، وقد كان ظنه قريباً جداً من الصواب.

□

لم يتوان فؤاد محيى الدين فيما قبل الثورة عن أن يكون عضواً فى لجان الطلبة والعمال، ومع أنه كان طموحاً جداً إلا أنه فيما يبدو فهم أن الانتماء المبكر للوفد لن يحقق له ما يحققه الانتماء إلى تحالفات الاجتماعات الراديكالية التى بدأت فى ذلك الوقت تجذب أمثاله وتجذب الضباط بقدر من تحت مظلة الوفد، ومع أن فؤاد محيى الدين لم يعط حياته كلها لهذه الجماعات الراديكالية إلا أنه كان متسقاً تمام الاتساق مع سنه ومع أفراد جيله ومع تكوينه الطبقى والتعليمى.

كانت لفؤاد محيى الدين قدرة عالية على التأقلم والتكيف مع الأجواء المتعاقبة والاتجاهات المختلفة، لكنه فى حقيقة الأمر كان ينظر إلى قدرة نفسه بأكثر مما كان ينظر إلى قيمة هذه الاتجاهات والتوجهات.

□

ظل فؤاد محيى الدين يمارس العمل السياسى إلى آخر لحظة من لحظات حياته، وقد نجح فى أثناء توليه رئاسة الوزارة أن يؤلف القلوب حول مؤسسة الرئاسة الجديدة، وأن يشير بما من شأنه نزع فتيل أزمات كثيرة تركها نظام الرئيس السادات فى آخر

أيامه، وأدار محيي الدين شئون الدولة بقدرة واضحة واقتدار ملموس، لكن الأيام والسنوات التالية أثبتت صواب نظرة الرئيس مبارك فى أن رئاسة مجلس الشعب كانت أولى بفؤاد محيى الدين من رئاسة الوزارة، فلم يكن فى وسع فؤاد محيى الدين بحكم تركيبته الفكرية والسياسة أن يمضى فى برنامج قاس أو حتى جاد للإصلاح الاقتصادى، أو أن يكتفى فى مواجهة كثير من الأحداث بضبط النفس، لهذا فإنى أميل إلى أن أكرر أن دوره المحورى كان فى تطبيب الدولة فى أول عهد جديد بعد نهاية دامية لرئيس عظيم، وقد نجح فؤاد محيى الدين فى هذا التطبيب نجاحاً فاق ما هو مطلوب يومها.

كان فؤاد محيى الدين معتداً برأيه إلى أبعد الحدود، وكان لهذا الاعتداد مبررات قوية، لكن يبدو أنه لم يكن قد وصل بعد إلى فهم حدود العلم البشرى التى وصفهاواهبها جل جلاله بقوله: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

خدم فؤاد محيى الدين بلاده لأكثر من ثلاثين عاما فى عهد الثورة تبوأ فى نصفها الثانى (١٩٦٨ ـ ١٩٨٤) عدة مواقع تنفيذية شاء لها القدر أن تتوزع على مدى عهد السادات كله، وعلى آخر عامين من أعوام عبدالناصر، وأول عامين من أعوام مبارك،

وكان بهذا الوحيد الذى ظل فى الصورة السياسية والسلطة السياسية معاً منذ أواخر عهد عبدالناصر وحتى أوائل عهد مبارك باتصال.

لم يقدر له أن يكتب مذكراته ولو كان كتبها لكان قد التزم بما يسميه بالحذر الدبلوماسى لأنه كان من الذين يظنون أنفسهم يعملون بالسياسة طيلة حياتهم، ولهذا فمن المصلحة ألا يخسروا أحدا عن قصد. وقد كانت حياته كما ظن بالفعل.

□

كان مع كل هذا إدارياً ناجحاً وحاسماً وحازماً ومنجزاً، ولم تكن طلبات الجماهير والمواطنين العاديين تلقى من اهتمام أحد غيره مثل ما تلقاه، كانت عنده قدرة على القراءة والبحث السريع وحسن التصرف، وكان قادرا على توظيف الإمكانات وخلق الموارد مستغلا قدرته على تصريف المشكلات وحل المعضلات.

وحتى آخر لحظات حياته ظل متمتعاً بالقدرة على العمل الدءوب، والإنجاز المتميز، والنظرة الواعية، والتقدير السليم.

فى الذكرى الخامسة لوفاته : ١٩٨٩

أحمد ماهر

كان أحمد ماهر شجاعاً فى الحق، لا يخاف فيه لومة لائم، وكان شجاعاً فى المواقف لا يخاف لها عاقبة، وكان شجاعاً فى مجابهة الباطل لا يعبأ به ولا يأبه له، ولم تكن شجاعة أحمد ماهر شجاعة الشباب، ولا شجاعة اليائس، ولا شجاعة المتحمس، ولا شجاعة الطامع، وإنما كانت شجاعته ضرباً فريداً من الوطنية فى تبصر، ومن الإخلاص فى صدق، ومن العلم مع الإيمان، ومن روح الشباب تزكيها حنكة الأستاذية!

بدأ أحمد ماهر نشاطه السياسى مع ثورة ١٩١٩ خطيباً فى دور العبادة، وقائداً لطلابه فى الجامعة، ومشرفاً على تنظيم المظاهرات والإضرابات، وموجهاً لجموع العمال والموظفين، وجامعاً لتوكيلات الأمة لوفدها بالعمل على تحرير البلاد وحصولها على استقلالها، فلما انتهت الثورة إلى الحصول على

تصريح فبراير ١٩٢٢ ، ووضع الدستور، وأجريت الانتخابات، خاض أحمد ماهر الانتخابات أمام زعيم الحزب الوطنى فى دائرة الدرب الأحمر، ففاز بمقعد البرلمان.

وفى مجلس النواب تجلت مواهب الدكتور أحمد ماهر أستاذ الاقتصاد السياسى فى مدرسة التجارة العليا منذ ١٩١٣ بعد عودته بالدكتوراه من باريس، وانتخب أحمد ماهر مقرراً للجنة المالية فى البرلمان المصرى، فزاد تألقاً، فعهد إليه رئيس مجلس النواب مظلوم باشا بالإشراف على الشئون الإدارية لمجلس النواب، ولم تمض شهور قليلة على عضوية أحمد ماهر لمجلس النواب حتى اختاره سعد زغلول وزيراً للمعارف العمومية فى أكتوبر ١٩٢٤ ، ولم يكن صاحبنا يحمل إلى ذلك الحين من الألقاب إلا لقبه العلمى.

□

ثم كان مقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى، وهو الحادث الذى أودى بوزارة سعد زغلول وببرلمان الأمة، وذهب بأحمد ماهر وبالنقراشى إلى غيابة السجن، وبقى صاحبنا فى

الزنزانة يقترب منه حبل المشنقة يوماً ثم لا يلبث أن يعود بعيداً عنه إلى حين، حتى وفق الله الدفاع إلى إقناع المحكمة ببراءة ماهر والنقراشي.

وخرج أحمد ماهر من السجن ليعتبر كل يوم من حياته مر بعد محاكمته فى ١٩٢٥ هبة من الله، ومن هنا كان أحمد ماهر يقدر هبة الله حق قدرها، فلم يفرط فى واجب، ولا أذعن لباطل.

خرج أحمد ماهر من السجن ليستأنف نشاطه، ونجح مرة ثانية فى دخول مجلس النواب، فصال وجال، وناقش وسأل، واقترح وقرر، ودعم الحياة البرلمانية خير ما يكون الدعم.

□

واصل أحمد ماهر جهاده فى مجلس النواب الثالث ١٩٢٦، وفى صفوف المعارضة لحكم صدقى ودستوره، وفى الصحافة مشرفاً على كوكب الشرق ١٩٣٤، وفى الجبهة الوطنية التى فاوضت الإنجليز فانتهت إلى معاهدة ١٩٣٦، وحين كان زعماء الوفد يجمعون على تسمية هذه المعاهدة بمعاهدة الشرف والاستقلال، كان أحمد ماهر رئيس مجلس النواب الوفدى

يجاهر بالقول إن هذه المعاهدة ليست إلا خطوة على سبيل الاستقلال!

ثم جاءت الفترة التى بعُد فيها حزب الوفد عن المشاركة فى الحكم لا فى الوزارة ولا فى البرلمان، فكان أحمد ماهر مثالاً للمعارض الشريف إحساساً بالواجب وتقديراً للمسئولية وترفعاً عن الدنايا، حتى إذا أجريت الانتخابات فى عام ١٩٣٦ وفاز أحمد ماهر بمقعد دائرته، أجمع أعضاء البرلمان على اختياره رئيساً لمجلسهم الموقر، فزاده أحمد ماهر وقاراً إلى وقار.

□

ولما اختلف النقراشى مع النحاس، وأخرجه النحاس من وزارته، وأصدر النقراشى بيانه الذى أوضح فيه موقفه من مشروع كهربة خزان أسوان، سارعت الهيئة الوفدية إلى فصل النقراشى، صادرة فى ذلك عن إيمانها الشهير بقدسية الزعامة، وهنا تأتى صورة أخرى من ضروب شجاعة أحمد ماهر، الذى صمم على أن يسجل فى قرار الوفد اعتراضه عليه، واعتباره للنقراشى عضواً وأنه لا يزال له من الحقوق ما لزملائه.

على أن الأمر فى الوفد لم يستمر طويلاً، فقد بان للجميع أن الاتجاه المتميز لماهر والنقراشى لابد له أن يخلص بنفسه، وما هى إلا شهور قليلة وبرزت الهيئة السعدية إلى الوجود، وما هى إلا شهور قليلة أخرى وكانت الحرب العالمية الثانية قد اشتعلت، وسارت الأنباء تعلن تقدم ألمانيا يوماً بعد يوم، والساسة فى مصر بين شامت فى الإنجليز وفرح بانتصار الألمان، وبين حريص على تجنيب البلاد ويلات الحرب، إلا أحمد ماهر وحزبه فإنهم كانوا يرون أن مصر لا ينبغى لها أن تقبل على كرامتها أن تنتهك أرضها فى سبيل الحرب من دون أن تهب للدفاع عن هذه الأرض وهذه الحدود.

ولم يكن السعديون من أنصار الرأى القائل بأن بريطانيا والحلفاء يتولون الدفاع عن مصر لأنهم أصحاب المصلحة فى ذلك، وكانوا يرون أن ذلك عار أى عار أن تنتظر مصر الحماية من غيرها، وكانوا على حق فى ذلك، إذ أن مثل هذا الشعور لم يكن إلا تعبيراً عن الاحتلال فى أبشع صوره، وهو «الاحتلال الفكرى». .

□

حين يعبر الإنسان كوبرى الجلاء متجهاً إلى القاهرة تطالعه ذكرى أحمد ماهر فى ذلك التمثال الذى يقوم شاهد عدل على عظمة رجل كان له أعظم الأثر فى الحركة الوطنية المصرية التى سبقت ثورتنا المباركة .

وحين أهلّ القرن العشرين كان أحمد ماهر يتلقى العلم فى مدرسة الحسينية ثم مدرسة الناصرية الابتدائيتين، وفى العام الثالث انتقل والده وكيل وزارة الحربية إلى جوار ربه، وفى العام الخامس اجتاز أحمد ماهر البكالوريا بنجاح والتحق بمدرسة الحقوق الخديوية فتخرج فيها عام ١٩٠٨ مع زملائه عبدالحميد بدوى باشا، وعبدالحميد أبو هيف، وعبدالرحمن الرافعى، ولم يطل عهد أحمد ماهر بالمحاماة أكثر من فترة التمرين التى قضاها فى الفيوم، فقد أوفدته الحكومة عضواً فى بعثة دراسية إلى فرنسا سنة ١٩١٠، وعاد أحمد ماهر من بعثته ١٩١٣ بعد أن حصل على الدكتوراه فى الاقتصاد السياسى .

□

وها هو ذا أحمد ماهر فى منتصف العقد الثالث من عمره يقف

بين طلابه فى مدرسة التجارة العليا أستاذاً قديراً، سريع البديهة، حسن المعاشرة، حلو الحديث، متمكناً من مادته، متمتعاً بالحب من طلابه، وبالتقدير من زملائه، حتى إذا ما قامت ثورة ١٩١٩ كان لأحمد ماهر دوره الفعال فى تنظيم صفوف الموظفين والطلاب، وتنظيم الإضرابات العامة، والخطابة فى دور العبادة والمجتمعات، ثم كان له دوره فى جمع توكيلات الأمة لزعماء الوفد.

وعاد سعد زغلول من منفاه ليقود الوفد فى أولى المعارك الانتخابية لمجلس النواب، ورشح أحمد ماهر عن دائرة الدرب الأحمر منافساً لزعيم الحزب الوطنى وفاز صاحبنا بمقعد البرلمان عن هذه الدائرة، ولعل فى هذا السبب الذى يرجع إليه إطلاق اسم أحمد ماهر على ميدان باب الخلق أبرز ميدان الدائرة، وعلى شارع تحت الربع أحد شوارعها العريقة.

□

كان أحمد ماهر بلاشك واحداً من أشجع الزعماء المصريين بعد جيل سعد زغلول، فى رئاسة حزبه وفى رئاسة البرلمان وفى

رئاسة الوزارة، وقد كان موفقاً أيما توفيق فى الرئاسات الثلاث، وحسبه أنه خرج بالهيئة السعدية إلى المكانة الأولى بين الأحزاب المصرية بعد الوفد، بل لقد كان ماهر والنقراشى ومن والاهم يعدون أنفسهم الورثة الشرعيين لسعد زغلول، ويطلقون على من بقى فى الوفد لقب «النحاسيين».

وفى المجال التنفيذى فإن بصمات أحمد ماهر ماهر خالدة لا إبان رئاسته للوزارة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فحسب، ولكن فى الوزارات التى اشترك فيها السعديون مؤتلفين مع الأحزاب الأخرى.

ففى وزارات محمد محمود وضع الدكتور ماهر كادراً للموظفين، وقدم إلى البرلمان مشروعات قوانين الضرائب التى هى حجر الأساس فى النظام الضرائبى الحديث، إذ كانت الضرائب مقصورة على العقارات دون المنقولات والإيرادات، وبهذا أضاف ماهر إلى الميزانية موارد مالية زادت من قدرتها على مواجهة مشاريع الإنشاء والإصلاح، فضلا عما حققه من التوازن بين الممولين فى الأعباء العامة، وواضعا نظام التموين وكادر للعمال والاستيراد.

وكان أحمد ماهر يعبر لجلسائه فى أوائل الحرب العالمية الثانية عن توقعاته لنهايتها فيقول : «إن ألمانيا لن يطول صمودها، وسوف تنضم أمريكا إلى بريطانيا كما ينضم إليهما عدد من الدول، ولن تمضى خمس سنوات حتى تكون ألمانيا قد جلت عن المناطق التى احتلتها فى أوروبا وأفريقيا ثم تبدأ فى الانهيار!!! ولم يكن هناك فى مصر من يشارك ماهر رأيه هذا مع ما يسمعونه من أنباء الانتصارات الألمانية الساحقة!

على أن السنوات الخمس انقضت وجاءت بدايات عام ١٩٤٥ تعلن للناس عن انتصار الحلفاء الذى لم يعد أمامه إلا استكمال إجراءاته الشكلية بتكوين «هيئة الأمم المتحدة»، ولم يكن بد أمام الدكتور ماهر رئيس الحكومة المصرية فى أعقاب الحرب من أن يعلن حالة الحرب كسباً لأبعاد سياسية عديدة كان لابد لمصر أن تخطط لها حتى تتبوأ مكانتها اللائقة بها بين أمم العالم فى المجتمع الدولى الذى كان يعيد يومها ترتيب أوراقه ونظمه - وقبل ذلك - حتى تستكمل استقلالها.

□

ومضى أحمد ماهر فجمع وزرائه وكبار الساسة فى البلاد فوافقوه على رأيه، ثم جمع رجال الصحافة والفكر فلقى منهم مثل ما لقى من رجال الدولة من التقدير الذى هو أهله، فلما كان مساء الرابع والعشرين من فبراير ١٩٤٥ اجتمع البرلمان بمجلسيه، ووقف الدكتور ماهر يخطب فى مجلس النواب يشرح لهم حكمة إعلان الحرب الدفاعية وثمرتها وما يترتب عليها من نتائج طيبة لخير البلاد فى حاضرها ومستقبلها، ثم استرسل فى بيان الأضرار التى تترتب على التخلف عن إعلان الحرب الدفاعية، وما انتهى الدكتور أحمد ماهر من بيانه حتى قابله الأعضاء بالتصفيق المتواصل، فلما انتهى مجلس النواب من مناقشاته، خرج الرجل يعبر البهو الفرعونى إلى مجلس الشيوخ، غير أنه لم يلبث أن تلقى رصاصات غادرة أودت بحياة واحد من أشجع من عرفتهم مصر من زعمائها السياسيين!

لم يكن الحرس ليمنع قضاء الله من أن يصيب الرجل، لكن أحمد ماهر لم يكن يحب الحرس ولا المظاهر، وإنما كان يسير منفردا أبيا مرفوع الهامة، ولم يكن يبالى بعد ذلك أى العقبات تقابله، ولهذا كان توفيق الله له فى أن يجتاز هذه العقبات فى

سهولة ويسر .

ويحلو لكثير من أبناء الجيل السابق أن يتذكروا ما فعله هذا الرجل وهو رئيس للوزراء حين ذهب إلى الطلبة المتظاهرين فى جامعتهم ضد حكومته أعزل إلا من قلبه ولسانه ، فيقف بينهم وقفة الأب بين أبنائه والأستاذ بين تلاميذه ، وسرعان ما يكتسبهم إلى صفه ، فلا يخرج من بينهم إلا وقد أخذت أيديهم تصفق له ، وأعناقهم تحمله منتصراً بالحب وللحب!

□

كان أحمد ماهر يقول إنه لن يكف عن الجهاد لأنه خلق ليكافح ، وكان يعقب على ذلك بقوله : « إننى لن أموت نائماً وإنما سأموت وأنا واقف على قدمى ! » ، أتراه كان ينظر إلى الغيب من وراء ستار ، أم هو مجاز أراد أن يعبر به عن حقيقة فعبرت عنه الحقيقة!

أيا كان الأمر فإن أحمد ماهر حين مضى إلى ربه كان قد وضع أقدام أمته على الطريق القويم!

ولقد كان الدكتور ماهر خطيباً برلمانياً قديراً لا تمر الدقائق عليه

إلا وقد استحوذ على قلوب المعارضين والمؤيدين، وكان حين يكتب من أكثر الناس شدة على نفسه فى التزام حدود الواجب، لا يريد بالنقد الهدم بل يريد الإصلاح ما استطاع، وهو لذلك لم يكن يتهم الناس فى نواياهم بل كان يؤاخذهم بأعمالهم!

وكان - رحمه الله - حريصاً على أن يوفر الحرية لخصومه بقدر ما يؤثرها لنفسه، وكان يرى أن الرجل الحر هو قبل كل شىء من يشعر بحق الناس فى الحرية يتقاسمونها سواسية بينهم.

فى ذكرى مرور أربعين عاماً على وفاته (١٩٤٥ - ١٩٨٥).

إسماعيل فهمى

كان إسماعيل **فهمى** واحداً من أبرز الدبلوماسيين العرب بل والدوليين ، على الرغم من الفترة القصيرة التى عمل فيها وزيراً للخارجية (٤ سنوات فقط فى مقابل عقود من السنوات لأسلافه)، ولكنه فى الواقع استطاع بديناميكية مقتدرة ونادرة أن يوجه السياسة الخارجية لبلاده ولمنطقتة إلى آفاق واتجاهات كانت كفيلة بتحقيق مكاسب استراتيجية لأمته وشعبه .

وفى حقيقة الأمر فإن إسماعيل فهمى لم يتمكن من تحقيق ذلك من فراغ ، وإنما ساعدته عوامل كثيرة فى شخصيته الفذة كثقافته الرفيعة، وممارساته الذكية ، وخبرته الطويلة ، وعقليته المتفتحة ، وواقعيته المطلقة ، وفهمه العميق للعلاقات الدولية

وتوازنات القوى ، وإيمانه بقدرة الذات على تحقيق الهدف فى البداية والنهاية .

☐

وقد نجح إسماعيل فهمى فى أن يحقق مواقع دولية متقدمة كرئاسته للجمعية العامة للأمم المتحدة عقب هزيمة ١٩٦٧ ، ولكنه على عكس آخرين كان يأخذ مثل هذه النجاحات كنقطة بداية وليس كنقطة نهاية ، كذلك فإنه كان شجاعا إلى أقصى حد فى إبداء رأيه مهما كلفه ذلك ، وقد فقد بسبب هذا الرأى وبسبب خلق التمسك به وظيفته المتقدمة مرتين ، الأولى حين جاهر بأهمية إعطاء دور أكبر واهتمام أكبر للولايات المتحدة قبل حرب ١٩٧٣ على الرغم من سيطرة حالة الوجد التى كانت مسيطرة على العلاقات المصرية ـ السوفيتية ، وكانت النتيجة أن أبعد عن منصبه بعض الوقت ، وكانت المرة الثانية حين أعلن السادات عن مبادرته للقدس وأعلن إسماعيل فهمى عن عدم قدرته فى أن يسير فى هذا الطريق ، فاستقال من منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية مع ماكان ينتظره من مستقبل باهر كان يخطو إليه بخطوات واسعة وواثقة فى ظل إعجاب الرئيس وتقديره ، ومع

هذا فان اسماعيل فهمى اتخذ قراره بمنتهى الشجاعة والجسارة دون أن يعبأ بشىء ، ويكفيه هذا القرار للدلالة على قوة شخصيته إذا ما قورن باسلافه الذين أنفقوا حياتهم كلها يؤدون ماهم متحفظون عليه .

□

ولاشك أن إسماعيل فهمى كان يتمتع بقدر كبير من الثقة بالنفس وبقدرتها على إنجاز ماتريد ، ولهذا فإنه كان يدفع بالجهاز الدبلوماسى المصرى إلى النشاط الفاعل فى كل الاتجاهات دون كلل أو ملل ، وإذا قيل إن كسينجر قد مارس دبلوماسية المكوك فى أثناء فض الاشتباك الأول والثانى ، فلنتذكر أن هذه الدبلوماسية كانت بحاجة إلى من يقودها ويديرها فضلاً عن أن يتعامل معها ، وقد كان الفضل فى هذا كله لإسماعيل فهمى ، ولكن الذين كتبوا عن هذه الفترة لم يكن من طبعهم إنصاف شاعر الحى لأنهم كانوا مشغولين بأنفسهم ، وبأدوار ضاعت منهم للأبد فى ظل وجود هذا الوزير الدبلوماسى النشط القادر على الاتصال بالرئيس وبغير الرئيس وبالخارج وبالأمريكيين فى كل لحظة ودون وسيط .

وربما كان هذا هو السر الحقيقى فى أن إسماعيل فهمى عمل ونجح وأنجز واجتاز وحقق دون أن يصاحب هذا كله ضجيج إعلامى أو ثناء مما يستحقه فى ذلك الوقت، وقد ترتب على هذا أن الرجل لم ينل بعد حظه من التكريم.

□

لم يكن إسماعيل فهمى يلعب دوره فى السياسة المصرية كوزير للخارجية فحسب، وإنما كعضو نشط فى مجلس الوزراء والهيئة الحاكمة، ولهذا فقد استعدى عليه كثيرين ممن تعودوا من وزير الخارجية ألايهتم على الإطلاق بالأمور الداخلية، وكان من هؤلاء صحفيون مبرزون كثيرون، بالإضافة إلى الذين ضاعت أدوارهم بسبب وجوده ونشاطه، ولم يكن إسماعيل فهمى يتراجع عن إيجابياته ولا يقلص من ديناميكيته، وكان يفعل هذا فى صراحة ووضوح شديدين دون تآمر أو إسرار، وينسب إليه أنه بلغ فى هذا الأداء القوى حد الإلحاح على التدخل فى اختيار وزير الإعلام نظراً للارتباط الوثيق بين وظيفتى الإعلام والخارجية .. وهو مالم يغفره له هؤلاء على كل حال.

□

ولست بمستطيع أن أرثيه اليوم من دون أن أشير إلى أن فضله فى تحقيق أقصى استثمار سياسى لحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وفى تقديرى أنه لايسبقه فى هذا الفضل السياسى إلا فضل الرئيس السادات نفسه ، وقد بذل إسماعيل فهمى أقصى مما كان ممكنا حتى حقق لبلاده خطوات متقدمة جداً فى سبيل حل أزمتها واسترداد أرضها ، ولأن تاريخنا المعاصر مايزال أسيرا « فى بعض جزئياته » لدى بعض الذين شاركوا فى صنع النكسة فى ١٩٦٧ فإن زمناً طويلاً سينقضى قبل أن يُوفى إسماعيل فهمى وزملاؤه من أقطاب الدبلوماسية المصرية الحقيقية حقهم الكامل فى الاعتراف بما أنجزوه وبما حققوه لوطنهم ، استثماراً لمعركة مجيدة غيرت وجه العالم وأثرت إلى أقصى ما يمكن فى مقدرات العالم كله فيما تبقى بعدها من سنوات القرن العشرين.

□

كان إسماعيل فهمى مخلصاً إلى أقصى درجات الإخلاص لوطنه ، وكان ذكيا نشطا شجاعاً معتزا بنفسه وبقدراته إلى أبعد

الحدود، ولكن هذا لم يحل بينه وبين أن يكون متواضعا إلى أبعد الحدود أيضاً، ولكن حين يجب التواضع وليس حين يستثمر أو يدعى.

ولقد أسعدنى الحظ بلقائه بعد أن نشرت نقدى لكتابه «التفاوض من أجل السلام فى الشرق الأوسط»، فعرفت كيف يستطيع الإنسان أن يجمع كل هذه الصفات العليا فى نفس واحدة ... رحمه الله فقد كان أمة فى رجل.

كتبت فى ذكراه الأربعين ولم تنشر.

لايغنى هذا المقال عن الباب الخاص باسماعيل فهمى من كتاب المؤلف: مذكرات وزراء الثورة.

أمين رضا

كان الدكتور أمين رضا نموذجا رائعاً لأستاذ الطب القدير ، المتمكن، الدقيق، الحريص على الإجادة والتجويد والتأصيل والتنظير ، وكان رحمه الله وقد امتد به العمر إلى أيامنا هذه بمثابة إحدى القلاع الباقية القائمة على المحافظة على أساسيات العلم الجامعى والأكاديمى، وعلى أخلاقيات البحث العلمى والممارسة الطبية ، وكان لاينى عن بذل الجهد فى كل مجال أتيح له العمل فيه .

وقد امتدت أياديه البيضاء إلى تخصصه فى عدة مؤسسات ، فمكتبه فى مستشفى الحضرة الجامعى تحول إلى مكتبة رائدة لجراحة العظام والإصابات ، والمستشفى نفسه يحمل بعض آثار نفسه ويديه الحريصتين على التجويد والجود باستمرار ، وقسم جراحة العظام فى طب الإسكندرية مدين له بالأستاذية المعطاءة الملتزمة ، أما كلية طب الإسكندرية التى شهدت عطاءه المستمر

فمدينة له بالكثير ، وليس آخر هذا ما وضعه من بعض النظم الكفيلة بضبط البحث العلمى فى مرحلة الدراسات العليا حين كان وكيلا للكلية للدراسات العليا والبحوث ، وما أسهم به باستمرار واتصال فى تطوير النشر العلمى والارتقاء بالنتاج العلمى فى مجال البحوث الطبية .

□

ومن بعد هذا كله فإن المجلة المصرية لجراحة العظام والجمعية المصرية لجراحة العظام تدينان له بكثير من أفضال التأسيس والاستمرار والتطوير ، بل لقد شرفنى عليه رحمه الله بكثير من الدعم والتأييد المعنوى والمادى فى تأسيس المجلة الطبية المصرية الجديدة حين بدأت من خلال الجمعية المصرية للأطباء الشبان ، ووصل الأمر بنبل خلقه وسمو نفسه وكريم عطائه أن تبرع للمجلة من ماله الخاص ، ولم يكن فى كل هذا إلا مجسداً لصورة من صور النبلاء الذين هم فى سبيلهم إلى الانقراض من الحياة الدنيا وهى تخطو خطواتها نحو الألفية الثالثة .

وقد كان أمين رضا بلا جدال واحداً من هؤلاء النبلاء أصلا وفضلاً، وأثراً، وسلوكاً، وأداء، وارتقاء بالذات، وبالعمل، وبالوطن، وبالجيل الذى أخذ عليه ومنه، وأعطى من بعده على

نهج نبراسه .

ولست بمستطيع أن أوفيه بعض حقه فيما يتعلق بعلمه وطبه وممارساته الإدارية والتنظيمية والفنية والعلمية ، ولست بمستطيع أن أوفيه بعض حقه فيما يتعلق بأستاذيته وإنسانيته وأبوته ، وقد شرفت بمعرفته ومراسلته طيلة عقدين من الزمان دون أن أجرؤ على اللقاء به ، وقد كنت ـ ومازلت ـ أتهيب لقاء أمثال هذه القمة السامقة فى الخلق الرفيع ، والعلم الغزير ، والأدب الجم ، والأسلوب الشائق ، والخطاب الدافئ ، والتوجيه القويم ، مكتفيا بنفحات الخطابات والمراسلات التى أعتز بها أيما اعتزاز فى عهد لم يعد للرسائل الإخوانية فيه محل .

وقد شرفني ـ عليه رحمة الله ـ بكثير من خطاباته وبعض ذكرياته التى تنم عن نبل الأصل والمحتد ، ورفعة الشأن ، ودماثة الخلق ، وقد ولد لوالدين فاضلين فى أحد قصور حى الزمالك ، ودرس الطب وأجاده على نحو ما يدرسه ويجيده النبلاء الذين يضربون بممارساتهم المثل ، ويرفعون رايات الفضل ويتسامون عن كل ما هو مادى ، ويسمون بالمهنة إلى ذراها السامقة التى تغرى الأجيال بالنهج على منوالهم ، ووالدته الفاضلة صاحبة ريادة فى توجهات السيدات فى جيلنا الذى نعيشه من دون أن يدرى أحد من أمر ريادتها وفضلها شيئاً ، لأنها صاحبة دعوة

ورؤية من دون تنظيم أو انعزال عن **المجتمع** الصاخب ، **أما** اوائل تلاميذه فقد بلغوا سن التقاعد وهم **فى أرفع** المناصب الأكاديمية والعلمية والسياسية وما يزالون يذكرون **له تدقيقه** وعدله وإنصافه حين كان يناط به تقييم أعمالهم العلمية **الأولى** أو الأخيرة .

□

أما أستاذه الأكبر فهو مثلى الأعلى **فى ذات** الوقت محمد كامل حسين ، وهو سر اجتماعنا على **الحب فى** الله من أجل العلم والوطن على الرغم من أنى أكاد أكون **من الجيل** الثالث من تلاميذ محمد كامل حسين بينما هو من **الجيل الأول** ، وقد كان أمين رضا فذاً نابغا نابهاً بارزاً ، مؤثراً فى **مدرسة** جراحة العظام المصرية التى قدمت لهذا الوطن وما تزال تقدم **قدوة** فى لهفة المصاب ، وعلاج الكسور ، متخطية بذلك نطاق **المرض** إلى الحياة نفسها ، ولست **فى** حل أن أعدد أقطابها ونحن **نودع قطبها** الأكبر اليوم .

وإنى لأجدنى أكرر أنى لست أهلاً **لإيفائه** حقه ، وما عهدتنى هكذا قبل أن أرثيه ، رحمه الله رحمة **واسعة** وغفر له ما تقدم من ذنبه ، وعوضنا عنه ، وجزاه عنا خير **الجزاء** .

نشرت تحت عنوان : نموذج للأستاذ القدير **[الأهرام** : ٢٧ ديسمبر ١٩٩٨]

توفيق الحكيم

لم يكن لتوفيق الحكيم كثير من الأسرار ولا قليل، حتى إن حديثه مع العصا والبيريه والحمار، وهو حديث مع نفسه (على اختلاف مستوياتها) كان معلناً للناس، ولكن هذا لا يعنى أن توفيق الحكيم كان يطلع الناس على كل ما فى حياته فى حينه، وإنما يعنى أن «الفنان» فى توفيق الحكيم تغلب على «الإنسان»، ولو بعد حين. . حتى أصبحت حياة توفيق الحكيم كتاباً مفتوحاً أمام الناس.

ربما يعن لنا هنا أن نستطرد لنقول إن توفيق الحكيم جعل الناس يقرأون حياته كلها. . ولم يبخل عليهم فى هذا الصدد. . وقد كان من بين أقرانه أكثر الأدباء ذكاء فى توزيع قصة حياته على أكثر من موضع، وأكثر من كتاب، ولم يضعها، فى كتاب واحد. . ربما كان الجانب الآخر لهذه الحقيقة هو أن توفيق الحكيم

روى حياته كلها «تقريباً» ولم يقتصر على طفولته، أو نشأته فحسب.

□

اشتهر الحكيم بعداوة المرأة كما اشتهر بالبخل، وفى كلتا الخصلتين كان توفيق الحكيم على النقيض تماماً، فقد كان من أكثر الناس كرماً وحدباً على المرأة وجمالها.. وقد شهدت له بذلك أقلام السيدات قبل الرجال، وأقلام الكرماء والبخلاء.. إنما كان الحكيم فى هذين الخلقين خير صورة للرجل الذى يبلغ قمة العظمة فإذا هو متواضع!! وقد بلغ الحكيم قمة حب المرأة وحب الكرم حتى إنه لم يعد بحاجة إلى مجرد الضجر البسيط من سماع اللغط حول هذين الخلقين.

والدلائل على ما أقول كثيرة، ولو كان الحكيم بخيلا حقاً لضجر من هذا الوصف المتصل بالبخل، ولو كان بخيلاً حقاً لما حرص على أداء ما عليه من حقوق أو واجبات للناس. أذكر فى هذه المناسبة أن كان لى الشرف فى صيف ١٩٨٣ لزيارة الدكتور حسين فوزى فى باريس، وقد وجدت عنده كنبة فى منتهى الأناقة تتحول بلمسة بسيطة جداً إلى سرير أنيق جداً.. ولم يمهلنى

الدكتور فوزى وقتاً طويلاً حتى قص علىّ أن الحكيم عندما زاره (العام الماضى) أصر على أن يشترى هذه الكنبة فى مقابل قضائه الفترة البسيطة جداً التى قضاها فى باريس!! فى هذه الشقة . . ولكنه مع ذلك ـ رحمه الله ـ حول القصة إلى إبداعات أخرى على نحو ما روى الأستاذ يوسف جوهر فى مقال هو من أبدع المقالات التى كتبت عن الحكيم . . فجعل هذه الكنبة كمسمار جحا، وجعل لنفسه أجرة يقتضيها ممن ينامون على هذه الكنبة .

□

تأخر الحكيم فى زواجه . . ربما شغله الفكر الحق الذى كان يستغرق وقته فى النهار والليل، وربما كان بطبيعة الحياء التى سيطرت عليه أميل إلى الوحدة، وكانت والدته ـ على نحو ما روى ـ لا تفتأ تحثه على الزواج وتختار له الفتاة تلو الفتاة، ومن ألطف ما يمكن أن الحكيم ذهب لمشاهدة إحدى هاتيك الفتيات ـ عن بعد طبعاً ـ فى محل بنزايون (مثلا) فى مدينة الإسكندرية . . وكانت ابنة أحد كبار أثرياء مصر كلها . . فإذا هو يعرض عن التأمل فيها بحكم ما فيه من خلق وعفة وعقل . . فإذا إحدى قريباتها أو من صحبتها ترفع صوتها فى استنكار لهذا الذى يفعله . . ألا يعرف أن فى انتظارها فى مصر دكتور فى الجامعة . .

وقد كان وخطبت هذه الفتاة لأستاذ جامعى مرموق من علمائنا المعدودين، عليه رحمة الله . . وقد تصادف أن تصادق هذا العالم مع توفيق الحكيم بعد ذلك .

. . . وروى الحكيم لى هذه القصة عندما سألته عن هذا الأستاذ حين كنت الكتب عنه، وعقب فى تواضع شديد . . إن هؤلاء الأقارب (فى هذا الزمن) كانوا يظنون (على عادة الريفيين) أن وكيل النيابة (الذى هو توفيق الحكيم نفسه) أعظم من أستاذ الجامعة . . وكان يردف مفسراً ذلك أن السبب هو اعتقادهم فى مقدرة وكيل النيابة على حبسهم . . وهى الخاصة التى لا يتمتع بها أستاذ الجامعة .

□

ثم إن الحكيم تزوج سيدة من أعظم سيداتنا، وكان لها أبناء من قبله، فإذا بالحكيم يحنو عليهم ويرعاهم رعاية كريمة لا يعرف أحد من شأنها شيئاً لأنه كان فى هذا الصدد رجلاً عظيماً وأصيلاً وشهماً بكل ما تعنى هذه الكلمات من معان . . وكان شقيق زوجته هو الدكتور محمد لطفى بيومى العميد المؤسس لكلية طب طنطا ونائب رئيس جامعة الإسكندرية الأسبق .

وكان للحكيم نفسه فروع كثيرة من العائلة وصلت إلى مناصب مرموقة . . ولكن الحكيم وهو البار برحمه لم يكن يحرص على إظهار نفسه محوطاً بهم فى أى وقت . كان الحكيم فى هذه الناحية من الذين اتسعت مداركهم الإنسانية لتشمل الإنسانية كلها بصلة الرحم .

ثم إن توفيق الحكيم كان معتزاً بشدة بانتمائه القضائى ، ولم يكن رغم تصويره للسلبيات التى فى المهنة وممارستها ، من الذين فرحوا بالخلاص منها ولا الذين سعوا إلى ذلك ، وربما كان يسعد توفيق الحكيم لو ظل فى هذه المناصب ، لكن مجريات الأمور لم تكن لتسمح له بالتعبير عن مثل هذه الأمانى التى لم تكن لتتحقق لأديب مرموق ظهر اسمه بين أهل هذا الوسط . . ولعل مما يعيننا على فهم المكانة التى تبوأها توفيق الحكيم فى زمانه ، والصعوبات التى نشأت عن هذه المكانة ، لعل مما يعيننا على هذا أن نقرأ الفقرات التى كتبها الأستاذ محمد زكى عبدالقادر فى كتابه «أقدام على الطريق» حين جوزى بلا سبب ، فلما سأل رئيسه جادله دون أن يقنعه ثم انتهى معه إلى أنه ليس بشكل الموظفين!

ربما أتاح مرور الزمن للقانونيين فى الأجيال التالية لتوفيق الحكيم أن يكونوا أقرب إلى الصورة التى كان يمكن لتوفيق

الحكيم أن يكون خير نموذج لها . . لكن للأسف أن هذه الفرصة جاءت متأخرة ، وجاءت فى جيل ليس فيه توفيق الحكيم .

□

ثم إنه يمكن لنا من تأمل زملاء توفيق الحكيم عند تخرجه فى مدرسة الحقوق فى دفعة ١٩٢٥ أ نرى صورة من صور تصاريف القدر . . فقد ضمت هذه الدفعة ستة من مشاهير حياتنا العامة ربما لم يرق أحدهم (مع كل ما وصلوا إليه من مجد مبكر) إلى ما وصل إليه توفيق الحكيم .

ففى هذه الدفعة تخرج مع توفيق الحكيم وفى سن مبكرة عن الحكيم - عليه رحمة الله - الأديب الكبير الأستاذ يحيى حقى ، الذى ظل فى السلك الدبلوماسى حتى جاء عهد الثورة ، فخرج منه لا لشىء إلا لأنه تزوج من أجنبية ! ! لم يخرجه حبه للأدب ولا ممارسته له ، بل ربما كان الأدب هو الحائط الذى استند إليه يحيى حقى حين خرج من هذا السلك .

وليس هذا المقام محلاً للمقارنة بين توفيق الحكيم ويحيى حقى ، ولاشك أن يحيى حقى يحظى فى أفئدتنا جميعاً بمكانة ترنو من مكانة توفيق الحكيم . . ولاشك أيضاً أن يحيى حقى فى

ريادته للقصة القصيرة لا يقل عن توفيق الحكيم فى ريادته للمسرح . . لكن الذى لاشك فيه أنه إذا كانت الحياة قد ظلمت توفيق الحكيم درجة ، فقد ظلمت هذه الحياة يحيى حقى درجتين . . وربما كان لاتصال الحكيم الدورى (المفتوح) بالجمهور عن طريق الصحافة ما رفع عنه بعض الظلم الذى حاق بحيى حقى!!

وفى هذه الدفعة تخرج أكبر أقطاب القانون الرسميين طيلة عهد عبد الناصر وأول عهد السادات وهو المستشار بدوى حمودة .

وفيها تخرج أيضاً أكبر أقطاب المالية العامة و الاقتصاد فى عهد الثورة ، محافظ البنك المركزى الأشهر عبد الحكيم الرفاعى ، الذى كان إمضاؤه ومازال ، دليلاً على عشرات الجنيهات والعملات التى كانت لها قيمة!!

بالإضافة إلى هؤلاء الأربعة ، فقد تخرج فى هذه الدفعة اثنان ممن وصلا إلى منصب الوزراء ، وكانا ربما من باب المصادفة أقرب الأصدقاء لتوفيق الحكيم ، فأما الثانى فهو الأستاذ إبراهيم فرج السكرتير العام لحزب الوفد الجديد ، والذى عمل فى آخر العهد

السابق وزيراً للشئون البلدية والقروية .

وأما الأول فهو الصديق الصدوق لتوفيق الحكيم ، الذى سبقه إلى الدار الآخرة منذ ثلاثين عاماً ، وزير مصر العبقرى حلمى بهجت بدوى . . ربما لا يكون هذا من باب الجديد على قراء توفيق الحكيم الذين يعرفون من قراءة أدب الحكيم كم كان أديبنا الكبير يكن من تقدير وإعجاب بزميل دراسته حلمى بهجت بدوى . . إلى الحد الذى يجعله يقول فى معرض حديثه عن نجاحه فى الليسانس إنه مدين بالفضل لحلمى بهجت بدوى الذى كان يظل ساهراً ، فيجد الحكيم نفسه يوبخ نفسه الأمارة بالنوم ! ! ثم إن هذين الصديقين قد قضيا حياة الشباب معاً حتى إذا تزوج حلمى بهجت بدوى وترك صديقه إلى عش الزوجية ، لم تكن الهدية إلا النسخة الخطية من أولى مؤلفات توفيق الحكيم .

ثم إن الله سبحانه وتعالى يهىء من مجريات الأمور فى السبعينات ما يجعل الشقيق الأصغر لحلمى بهجت بدوى يكون فى مكتب مجاور لمكتب توفيق الحكيم ، ويطل عليه فى الصباح فيتذكر فى شيخوخته أجمل أيام شبابه .

تحت عنوان : ملامح شخصية فى حياة الحكيم [الأهرام الدولى : ٢٤ فبراير ١٩٩٨]

لايغنى هذا المقال عن كتاب المؤلف : توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية .

جاد الحق على جاد الحق

فقد العالم الإسلامى بوفاة الشيخ جاد الحق على جاد الحق، عالماً من العلماء المدققين المخلصين لعلوم الشريعة الإسلامية إلى الحد الأقصى لهذا الإخلاص.

وقد كان - عليه رحمة الله - مثالاً للالتزام الفقهى والعلمى، وكان يتمتع بروح القاضى الملتزم بالشريعة والقانون، المترفع عن أن يبحث عن تقدير أى شىء، أو أى أحد غير ضميره النقى التقى الورع، وكان فى التزامه بالنصوص الشرعية والتشريعية وإلمامه بها وقدرته على الرجوع إليها، والانتقاء من بينها، والموازنة بين مقاصدها، وترجيح غاياتها، كان فى كل ذلك نموذجاً نادراً إلى أبعد حدود القدرة فى العصر الذى عشنا فيه.

كما كان واحداً من القلائل جداً بين شيوخ الأزهر منذ نشأته

الذين جاءوا إلى مكانة المشيخة على غير تحسب منهم أو لهم، وكان الوحيد بين شيوخ الأزهر المعاصرين الذى تخرج فى الأزهر ولم يعد إليه إلا شيخاً للجامع الأزهر كله، وكان اختياره لهذا المنصب العلمى والدينى والإسلامى الكبير واحداً من القرارات العبقرية المبكرة للرئيس مبارك بعد توليه الرئاسة.

□

عمل طيلة حياته الوظيفية فى السلك القضائى منذ تخرج فى كلية الشريعة فى الجامعة الأزهر الشريف (١٩٤٣)، ثم نال منها درجة العالمية مع الإجازة فى القضاء الشرعى (١٩٤٥)، وكان واحداً من جيل القضاة الشرعيين الذين استطاعوا أن ينهضوا بمهمة القضاء الشرعى فى قدرة، واقتدار، وذكاء، وشرف طيلة عهد القضاء الشرعى، ثم كانوا قادرين على أن يتولوا المناصب القضائية على اختلافها حين انضم القضاء الشرعى إلى القضاء المدنى.

وعلى الرغم من الظلم البيّن الذى تعرض له هذا الجيل من القضاة الشرعيين فى الدرجات المالية والوظيفية حين أجرى هذا

الضم، إلا أنهم عملوا جميعاً وبلا استثناء فيما وكلته إليهم الدولة من مهام ومسئوليات قضائية، وكانوا على الدوام بمثابة المرجع فى قضايا الأحوال الشخصية، والولاية على النفس، وفى قضايا المواريث، فضلاً عن كل ما اختص به القضاء المدنى منذ نشأ.

وقد بلغ الغبن والعنت الذى وقع على هذه الطائفة أنهم كانوا يظلمون فى حوالى عشرين عاماً من عمرهم حين يعادلون بدرجات القضاء المدنى.. ومع أنهم قد خرجوا جميعاً إلى التقاعد إلا أن أحداً لم يفكر فى إنصافهم.

□

وقد ظل الشيخ جاد الحق على جاد الحق فى السلك القضائى يؤدى وظيفته السامية إلى أن وقع عليه الاختيار ليكون مفتياً للجمهورية خلفاً لزميله الشيخ محمد خاطر، الذى كان هو الآخر قد قضى معظم حياته فى سلك القضاء الشرعى ثم القضاء المدنى بعد توحيد القضائين ووصل إلى درجة مستشار فى محكمة النقض.

وكان الشيخ جاد الحق واحداً من العلماء الثلاثة الذين تولوا فى ١٩٧٩ وضع التعديلات التشريعية على قانون الأحوال الشخصية الصادر فى ١٩٢٨ ، وقد اشترك فى وضع هذه التعديلات مع سلفه الإمام الأكبر الشيخ محمد عبدالرحمن بيصار ووزير الأوقاف الدكتور عبدالمنعم النمر، وقد استقت اللجنة كل ما أدخلته من تعديلات من نصوص شرعية موجودة ومتكررة ومسجلة فى كتب الفقه الإسلامى منذ زمان بعيد. .
وعلى الرغم من ذلك فإن العلماء الثلاثة لقوا العنت من كثير من الأقلام الديماجوجية التى كانت تنتهز فرصة كهذه فى ذلك المناخ المتوتر فى ذلك الوقت. ودعى الشيخ جاد الحق إلى المحكمة عقد اغتيال الرئيس السادات وتولى فى تؤدة وهدوء وأمانة ودقة القضاى والعالم والباحث، تمنيد كل ما جاء فى ذلك الكتيب الذى صدر بعنوان «الفريضة الغائبة» ونسب إلى أحد المتهمين : محمد عبدالسلام فرج.

□

وفى مطلع ١٩٨٢ تولى وزارة الأوقاف، وفى ترتيب وزراء مصر يأتى الشيخ جاد الحق بمثابة أول وزراء عهد الرئيس مبارك ،

والتاسع والتسعين بعد المائتين بين وزراء عهد الثورة جميعاً ، والثانى والسبعين بعد المائة الرابعة فى تاريخ وزراء مصر جميعاً .

وفى منتصف مارس من نفس العام عين فضيلته شيخاً للجامع الأزهر ، وظل فى هذا المنصب أربعة عشر عاماً «إلا أياماً قليلة» ، كان فيها نموذجاً لا يتكرر للعالم الفاضل الملتزم بالتدقيق والتحقيق فى كل ما يصدر عنه ويتصدى له ، وقد تجلى هذا الحرص الشديد فى كل سلوكياته ، فل يكن يرتجل أحاديثه أبداً ، وكان حريصاً على أن يقرأها بكل دقة ، وكأنه كان ينير شمعة الالتزام فى عصر سادت فيه الفوضى وعم فيه الارتجال وتكاثرت فيه العشوائيات فى كل منحى من مناحى الحياة والثقافة والفكر ، وقد بلغت به الدقة حتى فى قراءته للنصوص أنه كان يراجعها وهو يتلوها . وأذكر أنه فى حديث له فى شهر رمضان وكان عن القياس كوسيلة من وسائل الاجتهاد ، أعاد قراءة سطر من حديثه لأنه استشعر بحسه الفقهى الدقيق أن الناسخ قد أخطأ فيه بأن وضع أداة النفى فى غير موضعها .

□

وحين أثيرت قضايا اجتماعية واقتصادية خطيرة فى وسائل الإعلام على مدى السنوات الماضية، كان الإمام الأكبر يتعمد أن يؤجل إعلان رأيه أو حتى مجرد إبداء الرأى المبدئى حتى يعود إلى النصوص ليخرج منها بما يرضى ضميره العلمى والشرعى. . وكانت شجاعته فى إبداء رأيه مضرب الأمثال فى الخضوع التام للنصوص الفقهية، وتنحيته ضغوط الرأى العام إلى أبعد الحدود. وقد كان إخلاصه لعلمه وفقهه وفهمه مثار إعجاب شديد وتقدير لا حدود له من زملائنا من الأطباء الغربيين الذين كانوا من الذين تهيأ لهم بحكم التعليم والتربية أن يعرفوا ويقدروان ويتعودوا (على الدوام) أن يكون هناك خلاف، وتعدد فى الآراء. وقد ظهر هذا على أوضح صورة فيما يتعلق بآراء فضيلته فى مؤتمر السكان العالمى.

□

وعلى الرغم من أنه بحكم عمله القضائى لم يكن معنياً بالتأليف، فإنه ترك ثروة قيمة من الفتاوى التى صدرت عن دار الإفتاء، ثم طبعها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، كما أنه أصدر كتاباً مرجعياً قيماً بعنوان «بيان للناس» تناول فيه دون أن

ينص على ذلك أزمة الفكر السياسى فى جماعات الإسلام المختلفة من منطلق شرعى تسامى فيه عن الدخول فى مناقشات بيزنطية أو مهاترات .

وكان الإمام الأكبر مع هذا قادراً على الدوام على أن يسند إلى الأكفاء من علماء مصر ومفكريها حتى من خارج الأزهر كل المهام التى تفرضها الأحداث على قلعة الإسلام والمسلمين .

□

ومع هذا كله قد كان الإمام الأكبر عف اللسان واللفظ والنفس ، لم يتورط لحظة واحدة فى أن ينتقد مخالفيه أو أن يقلل من قيمة علمهم أو فكرهم ، ولم يطلب لنفسه فى لحظة واحدة طيلة أربعة عشر عاماً سلطة زمنية أو نصية ، على الرغم من أنه كان يثقل على نفسه وجسده المكدود بكل المسئوليات التى كانت تثقل إلى كتفيه بحكم تشريعاتنا الميالة إلى المركزية .

وهكذا كان هذا الرجل العظيم فى هذه السن المتقدمة (تولى المشيخة وهو فى الخامسة والستين وتوفى وهو فى التاسعة والسبعين) ، يدير أمور الجامع الأزهر ، ومجمع البحوث

الإسلامية، ولجان الفتوى التابعة للأزهر الشريف، وجامعة الأزهر بفروعها وكلياتها التى لا يلاحق عددها أحد، والمعاهد الدينية الأزهرية الممتدة فى كل ربوع ونجوع مصر، ومدينة البعوث الإسلامية التى تستقبل الطلاب والمجاورين من جميع أنحاء العالم الإسلامى، ومجلة الأزهر، وإدارة الدعوة فى الأزهر، وقطاع الوعظ فى الأزهر الشريف، هذا فضلاً عما يمكن تسميته بالوظائف السيادية للأزهر على مستوى الدولة، وعلى الوظيفة الإسلامية للأزهر فى العالم العربى والإسلامى كله.

□

وقد زار شرق آسيا هذا العام زيارة طويلة، ولم يكن أحد من المستشرقين أو المستعربين أو المهتمين بالفكر الإسلامى على أى مستوى يزور القاهرة أو يمر بها دون أن يلتقى به.

وكان تعاونه المستمر مع وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية لا ينقطع، وكانت صلاته الواعية بالبعثات الدبلوماسية خارج مصر مفخرة للدبلوماسية المصرية بمثل ما هى مفخرة للأزهر الشريف، وكانت إسهاماته وجهوده فى تحديث

مستشفيات جامعة الأزهر ـ على سبيل المثال ـ تمثل قمة الإنجاز الطبى فى السنتين الأخيرتين على مستوى مصر كلها، فقد حقق فى مستشفيات جامعة الأزهر وحدها أكثر مما تحقق فى كافة مستشفيات وزارة الصحة!

□

وكان يؤدى كل هذا فى صمت متصل، وهدوء متزن، وإخلاص منقطع النظير.

وقد عانى من عدد من الأزمات الصحية التى تصاحب تقدم السن مع الإجهاد، لكنه ظل إلى آخر أيامه حريصاً على تلبية كل الدعوات ولو بالحد الأدنى من الحضور لدقائق معدودات، وقد حدث هذا ـ على سبيل المثال ـ يوم احتفال اتحاد الناشرين بتكريم الرواد، على حين اعتذر الوزير المختص بالثقافة عن الحضور.

□

وعلى كل المستويات فإن العالم الإسلامى يفتقد اليوم فى الشيخ جاد الحق إماماً ورعاً تقياً نقياً مخلصاً محققاً مدققاً من الذين يبتغون وجه الله!

وتفتقد مصر هى الأخرى كل هذا فى ابنها البار، لكنها تضيف إلى هذا فقدانها لتنفيذى بارز وذى إنجازات، ولإدارى هادئ، ولرمز من رموز الإخلاص والوطنية والمثابرة، وعفة اللسان والقلم، و نزاهة اليد والغرض.

أما أولئك الذين عرفوه عن قرب فإنهم سيفقدون برحيله منارة حب وتقدير وعرفان.

يجمع هذا الفصل بين ما ورد فى مقالتين :

ـ الأولى نشرت فى الأهرام تحت عنوان : «الإمام الأكبر».

[الأهرام : ١٧ مارس ١٩٩٦]

– الثانية فى الوفد تحت عنوان « الشيخ جاد الحق فى الذكرى الأربعين نموذج للعظماء الذين يتضاعف الإحساس بهم بعد غيابهم

[الوفد : ٣٠ إبريل ١٩٩٦]

جلال السيد

كان الأستاذ جلال السيد واحداً ممن يعدون على الأصابع من النقاد المتميزين المحترمين والمجيدين الذين احتلوا مكانتهم فى حياتنا الأدبية والصحفية بفضل الموضوعية الملحوظة والإخلاص المتفانى فى نقد الكلمة المكتوبة بالطريقة والقدر اللذين يتيحان لإيجابيات النص وسلبياته أن تتضح أمام القارئ، وقد كان يعطى المواد التاريخية اهتماما خاصا بحكم اهتماماته الشخصية من ناحية، وبحكم كثرة وتعدد غايات ونوايا الكتب المعروضة منها على الساحة فى العقدين الأخيرين.

وكان - رحمه الله - يتميز بقدرة فذة على التعرض بتهذيب شديد لمن يخالفونه الرأى أو الاعتقاد، وكان يستطيع بل يجيد التفريق بين ما ينبغى أن يخضع للموضوعية تماما وبين ما يجوز فيه تغليب الذاتية إلى حد معين، وكان مع هذا يحتفل بالجهد

الجيد حتى ولو لم يكن يرتاح إلى المؤلف .

□

كما كان يبذل جهدا كبيرا فى تعرية وكشف الأعمال التى كانت قادرة على أن تصيب تاريخنا المعاصر فى مقتل إذا تركت مطلقة السراح ، وكان يحرص على توجيه المؤلفين المبتدئين - أو ذوى الانتماءات الأيديولوجية الحادة - إلى مصادر ومظان كتابة التاريخ المعاصر ، وكان يفعل هذا على الملأ لأنه كان يرى النقد حقا للوطن وللقارئ (أو للقراء) قبل أن يكون من حق المؤلف أو الكتاب ، ومن هذا المنطلق لم يكن يدخر جهده فى التعريف بالجديد وبالقديم .

وقد استغل مكانته المرموقة فى جريدة «الجمهورية» فى أن يستحوذ للكتب على نصف صفحة كاملة فى كل أسبوع ، وكانت هذه المساحة هى أكبر مساحة لعرض الكتب ، إلى أن خصص «الأهرام المسائى» صفحة كاملة للكتب الجديدة كل أربعاء ، وكانت صفحة جلال السيد من أهم موازين النقد والتقييم ، فضلا عن التعريف والتلخيص من ناحية ، والولاء للوطن والمواطن من ناحية ثالثة .

وعلى المستوى الشخصى كان ـ رحمه الله ـ واحداً من رهبان الصحافة فى جيل ندر فيه الرهبان، لأنه كان هناك رهان على أن يكون الصحفى من ذلك الجيل شيئا كبيرا أو أن يبقى راهبا للأبد، وقد اختار جلال السيد الطريق الذى يسلكه الرهبان ولكنه عكس كل التوقعات والقواعد والمعتقدات احتفظ بقيمته الكبيرة جدا فى الصحافة والأدب والتاريخ والنقد وعلى المستوى الإنسانى كذلك، ولا أعرف أن أحدا ممن عرفوه فرط فى صداقته، ولا أحدا ممن زاملوه فرط فى الاعتداد به، وكانت صداقته فخرا لأصدقائه، كما كانت معرفته مغنما لكل الذين عاشروه، وكانت ابتسامته التلقائية الحانية تجاهد لتتغلب على ما هو مفترض أن يظهر على ملامحه نتيجة الإجهاد الشديد الذى كان يضنى جسده، ولكنها كانت ـ للأسف الشديد ـ تضيف عبء جديدا على هذا الجسد المنهك.

□

اهتم جلال السيد فى شبابه بالبحث عن حقيقة حريق القاهرة وكتب فى هذا الموضوع مادة تاريخية تشهد له بالوطنية والاعتدال والحس التاريخى، وكذلك فعل فيما يتعلق بشهيد الوطنية الدكتور مصطفى الوكيل، ثم دفعه هذا الاهتمام إلى أن يوالى

الاحتفاء بتاريخنا المعاصر على نطاق القراءة والمتابعة والنقد، وكانت تربطه بكثير من أساتذة التاريخ علاقة صداقة وود حميم وتقدير متبادل.

كان - رحمه الله - نموذجا من النماذج التى لا تتكرر فى الجيل الواحد إلا فى النادر، فقد كان مخلصا فى إخلاصه، وكان متفانيا فى هذا الإخلاص، ثم إنه كان سعيدا بهذا التفانى. ومع هذا كان يعتقد أنه لم يؤد واجبه، وأنه لايزال عليه أن يتفانى أكثر وأكثر.

وقد عرفته على مدى سبعة عشر عاما فلم تفارق مخيلتى دماثة خلقه، وكانت ابتسامته الحانية المشجعة تتراءى لى فى بعض الأحيان التى يضنينى فيها الجهد فأتناسى كل شىء لمجرد نظرة من رجل من أهل التقدير كان يسعد وهو يرى جهد غيره يثمر، ولا أعتقد أنه سيتكرر له بين أقرانه شبيه، أرجو الله سبحانه وتعالى أن يعوضنا عنه خيرا، وأن يلهم أسرته الصغيرة وزملاءه وعارفى فضله الصبر والسلوان.

نشرت تحت عنوان: «جلال السيد.. راهب وسط الأضواء».
[الجمهورية: ١٥ فبراير ١٩٩٦]

خالد محمد خالد

فقدت مصر بوفاة الأستاذ خالد محمد خالد جزءا من ضميرها الحى اليقظ المعبر عن وجدانها الروحى الثائر العظيم، هذا الوجدان الذى حفظ لمصر مكانتها عند نفسها طيلة حضارتها الممتدة، وأمثال خالد محمد خالد لا يتكررون بسهولة، وإن كانت مصر المعطاءة لا تفتأ تزود بهم ضميرها فى كل جيل.

تمتع هذا الرجل العظيم بقدرة غير محدودة على اختراق غيوم الحاضر ليرى المستقبل، وتمتع مع هذا بشجاعة فائقة على أن يأخذ بيد أمته ليريها هذا المستقبل، وكان واحدا من قلائل استطاعوا أن يشكلوا فكر جمال عبد الناصر وتطلعاته إلى خدمة بلاده قبل أن تقوم الثورة، وربما كان السبب وراء ذلك هو طاقة الصدق الرهيبة التى حملتها كلمات خالد محمد خالد فى كتابه «من هنا نبدأ»، والتى لقيت تعطش قلب جمال عبدالناصر وهو يومها إقلب

الثائر الباحث عن الحقيقة وعن الحل فى آن واحد .

☐

وكان خالد محمد خالد بحكم ثقافته الأزهرية المتكاملة والمتمكنة ، وبحكم خياله القادر على صياغة الرؤية وصناعتها ، وبحكم إخلاصه غير المحدود لتراب هذا الوطن ولدماء هذا الشعب ، قادرا على أن يقدم لجمال عبد الناصر ولأمثال جمال عبدالناصر ذلك الضوء الذى يبدد ظلام اليأس الذى يخيم على الذين اضطرتهم الظروف لأن يعيشوا فى مغارة صنعتها الأهواء المتنافرة بحسن نية .

وكانت حياتنا السياسية يومها قد أصبحت (رغم الثراء الفكرى العظيم ، والليبرالية الناهضة بعد الحرب العالمية الثانية) بمثابة المغارة الفكرية أمام الشباب الوطنيين ، وكانت فى هذه المغارة أكثر من كوة (فتحة) ترشد هؤلاء الشبان إلى اتجاهات سياسية نشطة فى ذلك الحين ، ولكن أمثال جمال عبد الناصر الذين لم يبخلوا على أنفسهم بالتجربة إلى منتهاها كانوا قد وصلوا إلى أن هذه الطرق قد لا تؤدى إلا إلى مغارات أخرى . . فلما جاء خالد محمد خالد وكتب «من هنا نبدأ» ، وجد

عبدالناصر - وأمثال عبد الناصر - بالطبع فى كتابته ضوءا جميلا يقودهم إلى الخروج من المغارة، وإن لم يكن هذا الضوء صادرا عن فتحة تقود إلى مغارة أخرى.

ولهذا ظل جمال عبد الناصر طيلة حياته يعرف فضل خالد محمد خالد ولا يكاد يفضل عليه من من مواقف المفكرين غير موقف توفيق الحكيم الذى صاغ فكره فى مرحلة سابقة فى الشخصيات التى تبحث عن مؤلف.

□

وقد كان فى وسع خالد محمد خالد بشىء من التنازل عن الإيمان بما اعتقد أن يكون زعيما كبيرا، ولكنه كان أبعد الناس عن الإيمان بالديماجوجية، ولهذا كان يخشى السبيل الذى قد يقود إليها أو يستظل بها فى أية صورة من الصور.

وكان فى وسع خالد محمد خالد أن يسعى إلى المناصب الرفيعة، ولكنه كان يعرف قدر نفسه، وكان يؤمن بأن إمساك مصباح الهداية والإرشاد أعظم أثرا من إمساك عصا المارشالية أو عصا المايسترو وأعظم أثراً كذلك من إمساك العصا من الوسط. ولهذا ظل خالد محمد خالد يبدع ألحان الفكر وخطط المجابهة

دون أن يقود الفرق التى تعزف ألحانه أو تنفذ خططه .

وكانت عنده من عبقرية فهم التاريخ كمية هائلة من الفهم الصحيح لتميز دور المبدع على دور المايسترو . . وحين تمضى السنون سيجد الدارسون لتاريخنا المعاصر أن خالد محمد خالد كان فى طليعة الذين صنعوا حاضر هذا الوطن، وبذروا بذورا قادرة على الإنبات فى مستقبل قريب بإذن الله .

□

أما التاريخ السياسى فلن ينسى لخالد محمد خالد موقفيه العظيمين فى عام ١٩٥٤ وفى عام ١٩٦٢ . . وكلمات خالد محمد خالد فى الموقفين تستحق أن تكتب بماء الذهب فى كل كتاباتنا التاريخية، وأستطيع أن أزعم - وتحت يدى كل ما كتب فى أزمة مارس عام ١٩٥٤ - أن أحدا من مفكرينا وكتابنا العشرة الذين أدلوا بدلوهم يومها فى هذا الموضوع، لم يفتح الله عليه بما فتح به على خالد محمد خالد فى المقالين الذين كتبهما بعنوان «الإخوان والشيوعيون والثورة»، ووضع فوق المقالين قول فولتير الخالد «لا لوجود وطن حر، إلا بمواطنين أحرار»، ويبدو أننا فى عام ١٩٩٦ لا نزال بحاجة إلى قراءة هذين المقالين اللذين نشرهما

خالد محمد خالد فى صحيفة الجمهورية فى ١٦ و ٢٠ مارس عام ١٩٥٤ .

□

أما فى عام ١٩٦٢ فقد كان خالد محمد خالد بشجاعته الفائقة (وبحب جمال عبد الناصر الذى منع البطش به من ناحية أخرى) بمثابة البطل الإغريقى فى مأساة مصر فى الستينات ، أو بمثابة الرجل العربى القديم الذى كان يتأسف على حال قومه الذين لم يتبصروا ما قاله إلا بعد وقوع الواقعة فصارت أقواله مضرب الأمثال . . ولقد قال خالد محمد خالد يومها فيما سجلته كل المحاضر وكل الكتابات التاريخية إنه لابد من إطلاق الحريات والسماح بإنشاء الأحزاب وحرية الصحافة ، ولابد من الحرية للجميع حتى للمعزولين سياسيا . . وسخر فى أدب رفيع من فكرة حماية الثورة من أعدائها وقال : إن الثورة أخذت فرصتها ولو مضت فى هذه الإجراءات فإنها ستتورط فى دكتاتورية معوقة . . وكأنه كان يقرأ المستقبل

□

وما من كتاب ينتمى إلى اتجاه فكرى كائنا ما كان ، وما من

كاتب إلا استشهد بحوار خالد محمد خالد يومها مع عبد الناصر، ووظفه لخدمة ما يريد أن يقوله، حتى إنك تجد الاتجاهات المتنافرة والمتناقضة تماما وهى تتفق فى الاستشهاد بحوار خالد مع عبد الناصر أو فى الإفادة منه وتوظيفه.

وليس هذا بغريب على «الضوء» و «النور» الذى يحرص كل الناس على الإفادة منها فى مسالكهم.. وهذا هو الدليل الحى على أن خالد محمد خالد كان نورا مضيئا فى ضمير أمته العظيمة.

وحين وجد الرجل العظيم نفسه عاجزا عن المشاركة فى الحوار الوطنى الذى دعا إليه الرئيس مبارك، كتب كتابه الأخير والعظيم ليبرئ نفسه وضميره أمام خالقه وأمام وطنه وأمام التاريخ، ونحسبه ولا نزكى على الله أحدا قد فعل هذا طيلة حياته ثم بعد مماته بما ترك من فكر ورأى ينتفع به إلى أبد الآبدين.

نشرت تحت عنوان: «خالد محمد خالد: ضمير مضيء لأمته وشعبه».

[الأهرام: ٤ مارس ١٩٩٦]

زغلول محمد عامر

فقدت كلية طب المنصورة، وأقسام الأمراض الباطنة والقلب بكليتى الطب فى الزقازيق وبنها، أستاذاً من أبرز الأساتذة فى الجيل الذى يتولى مسئولية التعليم الطبى فى الدلتا منذ أواسط الستينات.

فقد كان الأستاذ الدكتور زغلول عامر - عليه رحمة الله - واحداً من أوائل الذين حصلوا على درجة الدكتوراه فى أمراض القلب والأوعية الدموية من كلية طب قصر العينى بعد إنشاء هذه الدرجة مباشرة، وقبل ذلك كان الدكتور زغلول عامر واحداً من طلائع الأطباء الخريجين فى قصر العينى الذين أتيحت لهم فرصة العمل كأطباء مقيمين فى ذلك المعهد العلمى العريق.

وبعد حصوله على درجة الدكتوراه (جامعة القاهرة) عمل الدكتور زغلول عامر مدرساً فى كلية طب المنصورة الناشئة، وتدرج فى وظائف هيئة التدريس فى هذه الكلية حتى أصبح أستاذاً للأمراض الباطنة منذ عام ١٩٧٤، وكان قبل وفاته ثانى أقدم أستاذ عامل فى هذه الكلية.

□

تميز الأستاذ الدكتور زغلول عامر كأستاذ وكطبيب وكممتحن بالجمع بين العظمة المتناهية فى أخلاقه وعلمه وقدراته، وبين التواضع الشديد، والعطف الحانى على تلاميذه.

وربما كان - رحمه الله - خير مثال للعظمة الحقيقية التى عناها مكسيم جورجى حين قال: «من العظماء من يشعر المرء فى حضرتهم بأنه صغير، ولكن العظيم بحق هو الذى يشعر الجميع فى حضرته بأنهم عظماء». وقد كان هذا شعورنا معه كتلامذة وكأطباء صغار وحين نؤدى أمامه الامتحان أو نناقش الرسالة.

□

وكان الدكتور زغلول أيضاً من الأساتذة القلائل الذين امتازوا

بالدأب الشديد والحرص الأشد على القيم العلمية، والتقاليد الجامعية. وكان حفياً بالإشراف المباشر على الامتحانات عن كثب. وعُرف عنه التزامه الشديد بالدراسة العميقة والمتأنية لطلاب الدراسات العليا.

ولم يحل مرضه الطويل، وتردى صحته بينه أبداً وبين أداء واجبه على النحو الأمثل حتى آخر أيام حياته.

وبالإضافة إلى هذا فقد كان الدكتور زغلول عامر رغم بروزه المبكر وتخصصه الدقيق، من أنصار بقاء التخصصات المختلفة للطب الباطنى داخل إطار قسم واحد كبير.. خصوصاً فى المجتمعات الإقليمية.

□

وعلى قدر ما كان يتمتع به الدكتور زغلول عامر من حب وتقدير واحترام وقدرة على الإدارة والتوجيه، فإنه كان من أبرز العزوفين عن المناصب الإدارية. وربما لا يتيسر لنا فهم القيمة الكبرى التى مثلها الدكتور زغلول عامر بين جيله من الأطباء إلا إذا قدرنا قيمة راحة الضمير التى نالها من جراء كل التضحيات

التى قدمها بشخصه وجسده دون أن ينال فى حياته ما كان يستحق من تقدير أو ترفيه، وربما كان هذا هو المعنى الذى نجده قديماً فى قصيدة «امتثال» للشاعر الألمانى الأشهر شيللر حين يقول :

. . . «اسمعوا يابنى البشر ، هناك زهرتان ،

زهرتان تتفحان للطالب الحكيم

اسم إحداهما «أمل» ، والأخرى اسمها «لذة»

من قطف واحدة من الزهرتين

ليس له أن يتوق إلى الأخرى

فليطلب اللذة ، من لا يستطيع أن يؤمن

حكمة خالدة خلود العالم ،

أما من يستطيع أن يؤمن

فليحرم من اللذة نفسه

. . . .

وأنت قد أخذت الأمل ، ولقد نلت جزاءك

وكان إيمانك هو نصيبك غير ممنون » .

□

ولربما يمضى وقت طويل حتى تستطيع كلية الطب تعويض وجود هذا الاستاذ الانسان العالم الرقيق الذى امتد فضله فظلل تلاميذه ومرضاه وكل من لجأ إليه طالبا النصح أو المشورة أو العلاج أو العلم ، وستبقى ذكراه فى كافة الميادين التى أسهم فيها باقية على مدى سنوات وسنوات تخلد قيم الخلق الرفيع والنبل الأصيل والعطاء اللامتناهى .

□

ولقد كان من حظى أن أتتلمذ على يدى الراحل الكريم بعد أن دفع بى إليه أستاذى الدكتور لطفى شهوان ، وتكرم سيادته بقراءة أطروحتى لدراسة الماجستير على مدى ستة أشهر ، ثم تكرم بمناقشتها ، وربما كان من أكبر معانى التقدير التى أعتز بها فى حياتى العلمية هو تقدير الدكتور زغلول عامر فى ذلك اليوم بالذات .

ولقد ابتلانى الله بفقده فيما بين فقدى لعلمين آخرين من أبرز

الأعلام والمعالم فى حياتى الشخصية ، وهما الأستاذ على البطراوى الذى توفى قبله بأربعين يوماً بالتمام والكمال ، والأديب الأكبر الأستاذ توفيق الحكيم الذى توفى بعده بأربعة أسابيع . عليهم جميعا رحمة الله ورضوانه ، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يلهمنى الصبر على فقدهم ، وأن يعوضنى عن أنوارهم الهادية ، وشخصياتهم الكريمة ، وأرواحهم العطوفة .

[المجلة الطبية المصرية الجديدة : نوفمبر ١٩٨٧]

زكى نجيب محمود

تعلم جيلى كله من الدكتور زكى نجيب محمود عدة خصال فكرية رفيعة كان يمثل لنا قمتها التى نطمح جميعا إلى الوصول إليها وإن بدت صعبة المنال .

تعلمنا منه أولاً الدقة المتناهية ، فلم يكن يطلق لفظاً أبداً إلا ويقصد معناه تماما ، ولم يكن كذلك يطالع مع قرائه لفظاً فى نص محكم كالقرآن الكريم إلا و يبين لنا بالضبط المقصد الحقيقى والمضبوط لهذا اللفظ الذى قد نمر به مرور الكرام مستندين إلى فهم المقصود به بالسياق ، أو بما ينعكس فى نفوسنا من أثر نتيجة للسياق ، فإذا بالدكتور زكى نجيب يبين لنا المعنى الحقيقى لكل لفظ ، وللتركيبات اللغوية المختلفة ، وكان يبذل فى سبيل ذلك جهداً رائعاً فى التحليل ، و التدقيق المتواصل ، و ضرب الأمثلة و المناقشات ، والمناقشات البناءة .

وتعلمنا منه ثانيا طول البال على القضية الفكرية التى تكون بين يديه ، فلم تكن نتائج حكمه على الأمور لتظهر إلا عندما يصل إليها بالفعل ، لم يكن فى مقالاته يدافع عن وجهه نظر ، ولا عن فكرة تثبت منها مقدما ، ولكنه كان يدير مع قارئه الرأى حول القضية من وجوهها المختلفة ، لينتهى بقارئه قبل أن ينتهى بقلمه إلى الحكم الصائب الذى توصل إليه من خلال إعمال المنطق السليم ، و الفحص الفكرى المتمعن للمقدمات التى يعالجها بعقل واع متبصر ، و بقلم متجرد عن الهوى إلا أن يكون هوى الحقيقة المجردة التى تفرض نفسها لأنها حقيقة فحسب !!

□

وتعلمنا منه ثالثا ولاؤه لانتمائه ، وهو ما كان أكثر بروزاً كلما تقدم به العمر ، فلم يكن يغيب عنه أبداً - رغم حرصه على التعامل مع الحقائق المجردة - أن يتحدث عن بيئة الشرق أو عن الانتماء للإسلام أو لتقاليدنا العربية ، وكان يحرص فى كل سطر من سطوره أن يكون منتبها لتراثه ، ولهذا فإن كتابات زكى نجيب محمود لا تصدم قارئها المسلم العربى أبداً ، كأنها فى كل ذرة من بيانها تحترم الانتماء بقدر احترام الحقائق .

ومع هذا فإن قدرة مفكرنا العظيم على التحليل الفلسفى الرائع وسعة أفقه كانتا كفيليتين بتحقيق التوازن بين الاحترامين ، من دون أن تلوى ذراع الحقائق ، أو أن تصدم المشاعر أو العقائد المقدسة .

□

وتعلمنا من الدكتور زكى نجيب محمود بعد ذلك كله أن المعرفة شىء واحد ، لا يفصل بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية إلا ذلك الخط الوهمى التنظيمى التحكمى الذى يشبه خطوط الطول والعرض على الكرة الأرضية ، فالحقيقة هى الحقيقة ، والمعرفة هى المعرفة ، وكل ما يؤدى إلى الحق حق ، وكل استثناء له محله باعتباره استثناء ليس إلا ، والكليات هى الكليات ، والجزئيات بعض كليات . . وهكذا . .

□

لا أبالغ بعد هذا إذا قلت أننا نفتقد بغيابه جزءاً من بصيرتنا القومية العامة إن صح هذا التعبير ، فقد كان - عليه رحمة الله - أبرز الذين أخذوا بيد جيلنا كله إلى رحاب العقل الواسع لنخرج بعقولنا إلى رحاب الحكمة لا ميدان الفلسفة فحسب ، وأنى

لأذكر عبارة لأحد زملائى الأطباء حين سألنى منذ سنوات : هل يمكنك أن تكتب شيئاً عن زكى نجيب محمود بقوة فكره ، وأظنه على حق فليس بالإمكان أن يكون هناك محل لغزل الشعراء فى الشمس .

نشرت تحت عنوان : «ماذا تعلمنا من زكى نجيب محمود» .

[الأهرام : ٢٦ سبتمبر ١٩٩٣]

سعد الشربينى

تتمثل فى سعد الشربينى مجموعة من القيم الاجتماعية والخلقية التى يجتهد الناس فى البحث عنها فيمن يختلطون بهم فلا يجدونها إلا فى الندرة النادرة، وإذا بهذه القيم تتجسد فى سعد الشربينى وهو يعيش بين الناس عاماً بعد عام، ومنصباً بعد منصب، فلا تزداد مكانته مع الأيام إلا حباً وتقديراً واحتراماً واعتزازاً بكل ما فيها من نبل الطابع، وشرف المقصد، ولين الجانب، واستقامة الخلق، جنباً إلى جنب مع كفاءة الأداء، وحزم الرأى، وسرعة البديهة، وصواب القرار، وحب الوطن، والإخلاص فى العمل.

وقد كانت كل هذه الصفات بارزة فى شخصية سعد الشربينى بالإضافة إلى ثقة عالية فى النفس، وتواضع محبب للناس.

وقد كان قريباً من مواطنيه فى كل مواقعه ، وقد رزقه الله القبول فكان فى غنى عن أن يبذل الجهد فى الإقناع ، ورزقه الله النباهة الفطرية فكان محدثوه فى غنى عن أن يبذلوا معه الجهد حتى ينالوا الاقتناع .

□

عمل فى جهاز الأمن المصرى منذ ما قبل الثورة بسبع سنوات ، وجاءت الثورة بعواصفها وتقلباتها فاحتفظ لنفسه طيلة فترة الثورة بالأداء المتمكن الهادئ ، بعيداً عن الطموحات وعن الجموحات ، وحماه جهده وكفاءته مرة بعد أخرى مما كان يحيق بكثير من زملائه الذين كانوا يفضلون الانتماء إلى جماعات سياسية معروفة فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر .

وطيلة عهد الرئيس السادات استطاع سعد الشربينى أن يؤدى واجباته الأمنية والشرطية بكفاءة واضحة ، دون أن يفتقد البعد السياسى فى الأداء المهنى ، وكان من قدره أن يعمل فى عدة مواقع حساسة توجت بعمله مديرا لأمن أسيوط ، فمديرا لمباحث أمن الدولة ، وأثبت نفسه فى كل هذه المواقع .

وحين دفعت الحكومة بمحافظ البحيرة عبد الرحيم حتاتة للاستقالة ليرشح نفسه فى الانتخابات البرلمانية التكميلية فى المقعد الذى خلا بإسقاط العضوية عن الوزير الوفدى عبد الفتاح حسن، اختير سعد الشربينى فى ذات اليوم (أغسطس ١٩٧٨) ليكون محافظاً للبحيرة خلفاً لحتاتة الذى كان أقرب رجال الشرطة إلى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ممدوح سالم.
ويصبح سعد الشربينى بمثابة الثامن والعشرين من ضباط الشرطة الذين وصلوا إلى منصب المحافظ، والمحافظ العشرين بعد المائة بين محافظى مصر.

□

وقبل أن تنقضى ثلاثة شهور على عمله فى البحيرة، كانت الدولة تأخذ بمبدأ تعيين المحافظين من أبناء الإقليم، ومن الطريف أن سعد الشربينى نقل إلى الدقهلية محافظاً لها، وكان بهذا الوحيد بين المحافظين السابقين من رجال الشرطة الذى استمر فى العمل محافظاً ونقل إلى محافظته الأصلية، على حين خرج بمقتضى هذه الحركة أربعة من رجال الشرطة البارزين، أحدهم هو نائب وزير الداخلية الأسبق كمال خير الله، وكان

الثلاثة الآخرون هم: اللواء محمد أحمد المنياوى، واللواء عبدالحفيظ الباجورى، واللواء حسنى طه نجيب.

وفى الدقهلية استطاع المحافظ الجديد وهو ابن الإقليم، أن يؤلف الناس حول الحكومة، وأن يحقق لأبناء إقليمه كثيرا من الإنجازات، وأن ينهض بمستوى الخدمات إلى أقصى حد ممكن لمحافظ بعيداً عن مركزية القاهرة.

وقد بقى سعد الشربينى محافظاً للدقهلية حتى مايو ١٩٨٠، حيث شُكلت وزارة جديدة وخرج أحد وزرائها المهندس توفيق كرارة ليخلف سعد الشربينى فى منصف محافظ الدقهلية بعدما كان سعد الشربينى نفسه قد خلفه فى ذات المنصب فى نوفمبر ١٩٧٨!

□

وفى مايو ١٩٨٠ يقع الاختيار على سعد الشربينى ليعين وزيراً للتنمية الشعبية (ليكون الوزير رقم ٢٩٣ بين وزراء عهد الثورة) خلفاً للمهندس عثمان أحمد عثمان نائب رئيس الوزراء، الذى استقال من منصبه بسبب ما احتواه كتاب «تجربتى» من نقد قاس

للرئيس جمال عبد الناصر ونظامه.

وبقى سعد الشربينى فى موقعه هذا فى وزارة الرئيس السادات الأخيرة ووزارة الرئيس مبارك الأولى ووزارة الدكتور فؤاد محيى الدين الأولى، حتى خلفه الفريق يوسف صبرى أبو طالب فى وزارة الدكتور فؤاد محيى الدين الثانية (أغسطس ١٩٨٢).

□

وعاد سعد الشربينى ليمارس حياته العامة وليعمل رئيساً لمجلس إدارة بنك بورسعيد الوطنى للتنمية، لكن وطنه يناديه مرة أخرى فى فبراير ١٩٨٤ ليعود فى حركة محافظين محدودة لم تشمل غيره محافظاً للدقهلية خلفاً لخلفه (وسلفه فى ذات الوقت) المهندس توفيق حامد كرارة وزير استصلاح الأراضى الأسبق، ويبقى سعد الشربينى محافظاً للدقهلية فترة ذهبية امتدت من فبراير ١٩٨٤ حتى أبريل ١٩٨٩، كانت بمثابة فترة قياسية فى ذلك الوقت فى البقاء فى منصب المحافظ، ومازالت فترة سعد الشربينى الثانية وحدها بمثابة أطول مدة قضاها محافظ واحد فى محافظة الدقهلية (٥ سنوات وشهران)، وتأتى بعدها

فترة محافظ الدقهلية الأول (٥ سنوات وشهر واحد)، أما فترة سعد الشربينى الأولى فقد كانت عاماً ونصف عام.

وينجح سعد الشربينى فى أن يعيد التوافق بين الإدارة المحلية من ناحية، والتنظيمات الشعبية والسياسية والجماهير فى الدقهلية من ناحية أخرى، ويتجلى هذا واضحاً فى بدء مرحلة مازالت مستمرة حتى الآن من الوفاق بين الإدارة المحلية ممثلة للحكومة والجماهير فى الدقهلية، ويتهيأ بهذا الوفاق الجو المشجع على قيام مشروعات كبيرة يتم تحقيقها بالجهود الذاتية لتعود الدقهلية إلى سالف عهدها متربعة القمة بين أقاليم الجمهورية فى الوعى بمدى أهمية الجهود الذاتية، ومدى قدرتها على تحقيق كثير من الإنجازات.

□

ولأن سعد الشربينى رجل متحضر بطبعه وبثقافته وتربيته، ولأن الإقليم نفسه متحضر بتاريخه وأهله، فإن جهود سعد الشربينى فى إعادة الوجه الحضارى للمنصورة تثمر بسرعة، وتعود المنصورة إلى سالف عهدها لتأخذ مكاناً متميزاً بين مدن

مصر المعمورة وعواصم محافظاتها .

وتتعاون معه جامعة المنصورة وغيرها من الهيئات فى إعادة تنسيق وتجميل وتخطيط المنصورة، وتبرز مشروعات رائدة كجزيرة الورد، وحدائق الأطفال، والمحطات الجديدة، وتسير خطط التنمية بمعدلات كفيلة بتحقيق آمال الجماهير والمحافظ نفسه .

□

وفيما بعد فإن القيادة السياسية تحبذ ترشيح سعد الشربينى نفسه ليكون نائباً عن المنصورة بعدما كان محافظاً لها ، ويخوض سعد الشربينى الانتخابات البرلمانية فى ١٩٩٠ ليفوز دون أن يبذل جهداً ضخماً، فقد كانت إنجازاته وشعبيته تسبقه .

وفى كل المواقع التى شغلها سعد الشربينى كان الرجل - كما رأينا - يأتى مثلاً لاختيار متميز فى ظروف متميزة، لأنه لم يكن فرداً بين أفراداً، وإنما كان قيمة كبيرة ينادى عليها بالاسم .

□

ثم يبتليه الله فى نهاية حياته بأكثر من ابتلاء، فيصبر ويحتسب والقلوب من حوله تدعو له وتحيط به، ويكفى أن أهل إحدى مدن الدقهلية أقاموا فى مدينة نصر مسجداً رائع المعمار والتشكيل تخليداً لذكرى ابنه عمرو الذى كان من قدره أن يستشهد فى إحدى حوادث الإرهاب.

وتتبقى من سعد الشربينى بعد كل هذا ذكرى طيبة عطرة على ألسنة الذين عرفوه، والذين سمعوا عنه، ويبقى ذكره على الدوام نموذجاً نادراً لضابط الشرطة الذى نجح فى أن يكون فى قلب الشعب.

شمس الدين الوكيل

برحيل الدكتور شمس الدين الوكيل فقدت مصر واحداً من أبرز علمائها ومفكريها الذين عملوا فى صمت دءوب على تحقيق التقدم لوطنهم من خلال التشريع القويم، والأداء المتميز فى العمل التنفيذى .

كان قد وصل إلى منصب عميد كلية حقوق الإسكندرية فى الثانية والأربعين من عمره عام ١٩٦٨ ، واختير فى نفس العام رئيسا لجامعة بيروت العربية ، وقبل مضى أربع سنوات وقع عليه الاختيار ليكون وزيراً للتعليم العالى فى وزارة عزيز صدقى (يناير ١٩٧٢ ـ مارس ١٩٧٣)، وليكون واحداً من الصفوة من أبناء الطبقة التى أوذيت بعد قيام الثورة ولكنهم بدأوا يشاركون فى مواقع متقدمة جداً من الحكم، جنبا إلى جنب مع اثنين من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى، وجنبا إلى

جنب مع تكنوقراطيين متميزين ناجحين يمثلون النموذج الواضح لأهل الخبرة.

□

وفي الفترة القصيرة التي قضاها هذا الرجل في موقع الوزارة استطاع بتوفيق من الله بالطبع ، وبمواتاة الظروف ، وبالتوافق مع الجو العام لبشائر عصر جديد، استطاع أن يرسى أكبر دعامة لاستقلال الجامعات المصرية بإصدار القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٢ الخاص بتنظيم الجامعات ، وهو القانون المعجزة الذى مثل صدوره وقتها أكبر إنجاز لمجتمع المثقفين والأكاديميين فى عهد الثورة.

فقد ارتفعت درجة مدير الجامعة إلى درجة رئيس الجامعة بدرجة وزير ، وتضاءل إلى أقصى حد ممكن سلطان وزير التعليم العالى على الجامعات بعد أن كان من قبل بمثابة الرئيس الأعلى لكل جامعة على حدة، يقتضيه القانون أن يتدخل حتى فى إمضاء الشهادات الخاصة بالحصول على الدرجات العلمية ويوقع إلى جوار مدير الجامعة ، وأقر مبدأ انتخاب العمداء ، ونظم تولى رئاسة الأقسام والوكالة والعمادة بحيث لا تظل هذه المناصب

حكراً على من يصل إليها، وإنما يتم تداولها والتعاقب عليها، وحرر الجامعة من انتظار درجات مالية لترقى عليها أعضاء التدريس فأصبحت الترقيات تتم فى موعد محدد، وترفع الدرجات المالية تلقائيا فى بداية السنة المالية التالية، ونظم عمل الأساتذة المتفرغين واللجان الدائمة والمجالس العلمية والإدارية.

□

وعلى سبيل الإجمال فقد كان شمس الدين الوكيل صاحب الفضل الأول على الهيئة الجامعية والحياة الجامعية، وقد ظلت إنجازاته على الدوام مبعث فخر حتى بعد أن جاء من انتقص منها فى ١٩٩٤ ببعض التعديلات التى لم تلق حتى الآن ارتياح أعضاء هيئات التدريس ولا قبولهم، وكانت هذه التعديلات وقتها مبعث انتباه وتنبيه إلى عظمة شمس الدين الوكيل، الاشتراكى الليبرالى المتفتح الذى وصل بعد تركه الوزارة إلى أعلى مناصب اليونسكو رئيسا للمجلس التنفيذى لفترة طويلة لم يصل قبله عربى إلى هذه المكانة.

وعلى الرغم من علاقات الزمالة والعمل والقربى والحسب والنسب فقد ظل إلى آخر حياته راضيا مرضيا، هادئا حييا،

منجزاً فى صمت ووفاء ، وولاء وانتماء لبلده ووطنه ومواطنيه فى مصر والعالم العربى .

نشرت تحت عنوان : «شمس الدين الوكيل . . بطل استقلال الجامعات» .

[الأخبار : ١٠ يونيو ١٩٩٨]

صلاح جلال

سيداتى سادتى

ليس من شك فى أن أفضال الأستاذ صلاح جلال وجهوده التى دعتنا إلى هذا الحفل، أمر قديم لعله بدأ قبل مولدى بعشر سنوات على الأقل، وليس من شك كذلك أن جموع شباب العلميين والأطباء كانوا ينتهزون الفرصة أن تسنح لهم حتى يعبروا للرجل عن عرفانهم بجميل الصحافة المنيرة المستنيرة النيرة، فلما استنقب الأستاذ صلاح (بمعنى طلب النقابة) كنا بين أمرين :

أن نقيم الحفل بعد الفوز وأن نقيمه قبل الانتخابات، ولعله من البديهى القول بأن ظاهر الصواب قد يقتضى أن يكون الحفل بعد الفوز، وهذا هو ما ارتآه تسعون فى المائة منا، غير أن خمسة

وتسعين فى المائة رأوا الرأى الأول وزادوا عليه اقتناعا بفكرة لا أظنها تخفى على حضراتكم، وهى أن إظهار التكريم عندما تختلف الآراء أكثر تعبيرا منه عنه عندما تتفق، وأبلغ تأثيرا منه عنه بعدما تتفق!

□

سيداتى سادتى

وكنا نخشى أن يكون فى الأمر تدخلا، ومازلنا بأنفسنا نناقشها حتى اقتنعنا أو أقنعناها بأن الأمر فى نقيب الصحفيين بالذات لا يقتصر على الصحفيين وحدهم، وكيف يمكن أن يقتصر عليهم وحدهم وهم لساننا المعبر، وقلبنا النابض، ويدنا الممسكة بأعظم ما تمسك، إنما يتعداهم الأمر فى ذلك إلى جماهيرهم. واسمحوا لى أيها السادة أن أتساءل فى شىء من الاستشعار الديمقراطى عن بعد فأقول: هل يأتى اليوم الذى يكون للقراء فيه شأن فى انتخاب نقيب من يقرأون لهم؟

□

كنا نبحث فى جامعة الأعداد الكبيرة عن «الأستاذ» الذى يكون بينه وبين طلابه تلك العاطفة النبيلة الجميلة القوية، وكان أساتذتنا الكبار يقولون لنا إنه ليس هناك «إحجام» عن العطاء، ولكن هناك «أحجاما» فى العطاء، فسألناهم عن الأستاذ الذى يتهيأ له أن يعطى بلا إحجام ولا أحجام فقالوا إنه صلاح جلال، فكنا ندهش وما كان لنا أن ندهش.

وكنا نجد فى مدرجات السنة الإعدادية صندوقا كتب عليه «هى» فعجبنا لهذا الصندوق ولتلك الكلمة، سألنا فقالوا إن «هى» هى المجلة التى رأس صلاح جلال تحريرها قبل الثورة وهو طالب فى كلية العلوم.

ثم أسعدنى الحظ وأتاحت لى البحوث والكتابة أن أنقب فى صفحات الماضى من المجلات، عندئذ تعرفت على حقيقة أضفتها إلى ما لمسته منه بالتعامل المباشر، وعرفت صلاح جلال فى بداياتها أديبا دقيقا وعالما دقيقا.

□

ولا مراء أن الرجل هو أقرب الصحفيين إلى الشباب عقلا ،

وروحا، وفكرا، وقلبا، وقالبا، ويدا تمتد إليهم لترتفع بهم، ولا جدال فى أنه نقابى بطبعه وبتاريخه وبجهوده وبقلمه، وفى مؤسسته ونقابته .

ولا منازع فى أنه مشغول دائما وأبدا ولكنه مع ذلك لا يخطئ مقصده، لأنه يعمل برتم منتظم أتاه من العقل المنظم، والفكرة الواضحة، والقلم اللامع، والأفق الواسع، والقلب الخفاق، والحب الدفاق .

□

ولقد يعاب عليه أن مشاغله قد تحول بينه وبين التأمل، ولكنى أؤكد لكم أيها السادة أن مشاغله ومناشطه ما جاءت إلا بعد التأمل، لأنه وإن أسرع فى التنفيذ فقد أتقن التخطيط، وقد لا يكون هذا واضحا للذين يرونه يتقبل الأفكار أو لا يتقبلها بسرعة لم تعهد فى كثير من أرباب الأمور اليوم .

ولكنى أؤكد لكم أن هذا لا يتأتى إلا للرجل الذى تمكن من إنكار نفسه واتجاهاتها ومبادئها، فاستطاع أن يحل مسألة التوافق بين ما يريد وبين ما يتاح فى سرعة زمنية بالغة لا تتأتى إلا

للرياضى الذى تمرس وترأس .

□

وسيقال فما بالك به وهو لا ينتظر أن يستمع فى النهاية إلى شكر الناس له على فضل أداه لهم ، وعندى أن هذا ليس إلا صورة من صور النبل الإنسانى فى مستوياته الرفيعة ، عبر عنها شاعرنا جبران خليل جبران فى عبارة أبلغ بالطبع من عباراتى حين قال :

«لا تنس وأنت تعطى أن تدير وجهك عمن تعطيه لكيلا ترى حياءه عاريا أمام عينيك» ، ويكفينى فى الحديث عن نبل الأستاذ صلاح أن أقرر ملخصا بذلك قصة طويلة أن قلبه الحزين ذات يوم لم يمنعه من أن ينشد أغنية مع القلوب الفرحة .

□

سيدى النقيب

سيداتى سادتى

لا أظن ما بينى وبينك مما تعبر عنه الكلمات طالت أو قصرت ،

ولكنها مقدمة لابد منها لهذا الجمع الذى اجتمع اليوم على حبك وتقديرك والاعتراف بفضلك والعرفان بجميلك، وأنى لأظن الشعر أكثر تعبيرا عن الأدب، وإنى لأظن أن شوقى أشعر العرب، فإليك أهدى قوله:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه   فقوم النفس بالأخلاق تستقم

هذه هى الكلمة التى ألقاها المؤلف فى حفل التكريم الذى أقامه شباب الأطباء وأعضاء نوادى العلوم تكريماً للأستاذ صلاح جلال بمناسبة ترشيحه نقيباً للصحفيين (مارس ١٩٨٠).

عبدالجليل العمرى

فى تاريخنا المعاصر يظل اسم عبد الجليل العمرى رمزا لكثير من المعانى المهمة جدا :

فهو أولا أبرز نموذج للتكنوقراطيين المتميزين الذين ارتفعت بهم كفايتهم الشخصية إلى أعلى المناصب فى سن الشباب بدون أية واسطة أو محسوبية أو انتماء حزبى معين، ويكفى أنه انتقل من الدرجة الأولى إلى منصب نائب رئيس وزراء خلال خمس سنوات فقط، ولم يتم هذا الانتقال مرة واحدة، وإنما مر فيه بكل الدرجات المتوسطة بين المنصبين، فكان وكيلا للوزارة وكان وزيرا قبل أن يصبح نائبا لرئيس الوزراء فى عام ١٩٥٤ .

وقد لقى العمرى تقدير حكومات ما قبل الثورة، سواء الحكومات الوفدية (خاصة وزارة النحاس الأخيرة فى يناير عام ١٩٥٥) والحكومات الأخرى مع اختلاف رؤسائها الستة

(النقراشى - إبراهيم عبدالهادى - على ماهر - حسين سرى - أحمد نجيب الهلالى)، ثم كان بمثابة التكنوقراطى المتقدم جدا الذى كانت الثورة بكل نزعات أعضاء مجلس القيادة مجمعة على الاستفادة منه مهما يكن الأمر، وسوف نقرأ فى كافة المذكرات السياسية أن العمرى كان يشترط قبل تولى الوزارة أن تلتزم الدولة (سواء فى ذلك دولة الثورة أو الدولة الملكية) بسياسات محددة، فإذا رفضت الدولة أو طلبت التأجيل حتى يدخل الوزارة كان العمرى يعتذر غير آسف على الوزارة.

□

وهكذا كان العمرى يضرب المثل الذى كنا أحوج ما نكون إليه، ولكن يبدو أن أحدا لم يهتم بأن يتبع هذا النموذج، ولو كنا وجدنا بعض من يتبعون هذا المثل لكانت الصورة قد تغيرت فى كثير من المجالات فى حياتنا الاقتصادية والاجتماعية، وفى وسع القارئ أن يقرأ فى هذا المجال مذكرات فتحى رضوان، وعبداللطيف البغدادى، وخالد محيى الدين، والرئيس نجيب، والعمرى نفسه من قبلهم، فسوف يجد هذه الحقيقة واضحة ناصعة، وربما يفيد منها تاريخنا القومى فى المستقبل.

وهو ثانياً كان بمثابة حلقة الاتصال الكبيرة بين عهدين أو بين ثلاثة عهود، فقد كان العمرى بمثابة الوزير الوحيد الذى استمر فى وزارة الثورة حتى بعد إعلان الجمهورية فى يونيو عام ١٩٥٣ من بين الوزراء الذين تولوا الوزارة منذ ما قبل الثورة، ولا يشاركه فى هذه المكانة أى وزير أو سياسى آخر.

وقد كانت هناك فى هذه الفترة ثلاث مراحل مختلفة، وإن بدت على أنها مرحلتان فقط، فقد كان هناك عصر ملكى ثم عصر حكم الثورة من خلال نظام ملكى ومجلس وصاية وملك صورى فيما بين ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ و١٨ يونيو عام ١٩٥٣، ثم كانت المرحلة الثالثة التى بدأت بإعلان الجمهورية، وقبل أن ينقضى عام كانت هذه الجمهورية تتأرجى بين نموذج الجمهورية الرئاسية والجمهورية البرلمانية.

وطوال هذه الفترة كان من حسن حظ مصر أن وُجد عبد الجليل العمرى على رأس مؤسسات الدولة الاقتصادية، وعلى رأس وزارة المالية، وقد كان وجوده واستمراره قبل الثورة وبعدها بمثابة صمام الأمن الذى حمى الاقتصاد المصرى من أية هزة، وكانت احتمالاتها واردة بل ومؤكدة. . وهكذا تمت الثورة وتغيرت طبيعة الدولة مرتين دون أدنى هزة أو تغيير فى

الاقتصاد، بل على العكس بقيت كل الأصول كما هى ولم يحدث اعتداء واحد على ممتلكات الشعب أو الدولة .

□

المعنى الثالث فى حياة عبد الجليل العمرى كان أهم من المعنيين الأولين، فإن هذا الرجل لم يبخل فى لحظة واحدة على وطنه بأى رأى أو خبرة أو تجربة أو نصيحة . . وعلى حين كان من المنطقى أن يتحول إلى خصم لأنه ترك الحكم، فإنه كان يعرف جيدا ويطبق حدود الاختلاف فى الرأى وفى السياسة، ولم يسمح لأحد على الإطلاق بأن يحول خلافه مع الدولة إلى اختلاف، وقد تجلى هذا فى أكثر من موقف وطوال أكثر من ثلاثين عاما بعد استبعاده عن الحكم، وقد قبل أن يتولى رئاسة البنك المركزى فى مرحلة تالية لخروجه من الوزارة، فلما صدر قرار تأميم بنك مصر بدون علمه، آثر أن يستقيل فى نفس اليوم لأن الحكومة لم تستشره من ناحية، ولأن البنك كان يقوم على إيداعات صغار المودعين من أبناء مصر .

كذلك دُعى عبد الجليل العمرى كثيرا ليتولى المناصب الوزارية العليا فكان يعرض شروطه ثم يعتذر، وكان آخر إنجازاته

المعلنة رئاسة المؤتمر الاقتصادى فى بداية عهد الرئيس محمد حسنى مبارك . . وكان العمرى كثيرا ما يلجأ إلى الصحافة لإيضاح وجهة نظره فى القضايا الاقتصادية المثارة . . وهكذا ظل دائما منارة نصح وإرشاد لأهله ووطنه .

□

المعنى الرابع فى حياة العمرى هو أخلاقه الرفيعة ، ولم تمتد يده لحظة واحدة إلى خطأ أو حرام ، ولم يهمل أبدا ، ولم يتقاعس أبدا ، ولم ينافق أبدا ، وقد عاش حياة طويلة جدا ولكنها كانت رفيعة جدا من كل النواحى ، كان يفيض بالتواضع ، وبالعلم ، وبالمعرفة ، كان ينتقى ألفاظه ويعيد انتقاء هذه الألفاظ حتى وهو فى الشهور الأولى من حياته ، وكان أكثر حرصا على التحديد القاطع لمعنى اللفظ حتى فى الحديث العام ، وكان فى هذا يمثل الرقم القياسى بين كل من عرفت من الأدباء والمفكرين .

كان دقيقا إلى أبعد حد ، وكان أيضا رقيقا إلى مدى لايتصوره عقل ، كان حييا وكان متواضعا رغم ثقته الكبيرة فى نفسه وإنجازاته ، وكان ينتظر النهاية بنفس هادئة جدا وواثقة جدا من طبيعة الحياة وحتمية الموت .

ولم يحدث فى تاريخ مصر كلها أن مسئولا كبيرا طلب تخفيض درجة نفسه إلا هو، فعقب إتمام الصلح فى أزمة مارس عام ١٩٥٤، وعودة الرئيس نجيب رئيس للوزراء وعبد الناصر نائبا لرئيس الوزراء بدلا من أن يكون رئيس الوزراء، أثار العمرى نفسه فى مجلس الوزراء أهمية أن يعود هو الآخر وزيرا بعد أن كان نائبا لرئيس الوزراء وألح حتى تم قبول اقتراحه!! ولهذا كله فإنى لا أعتقد أن أحدا آخرا يستحق لقب «صاحب المقام الرفيع» بأكثر مما يستحقه العمرى، وإنى أعتقد أن الرئيس محمد حسنى مبارك لن يبخل على اسمه بأرفع الأوسمة المصرية.

نشرت تحت عنوان: «عبدالجليل العمرى: صاحب المقام الرفيع».

[الأهرام: ٢٥ ديسمبر ١٩٩٦]

عبدالحليم محمود

كان الدكتور عبدالحليم محمود ذا نبوغ حاد، أهله للحصول على العالمية سنة اثنين وثلاثين (أى وهو فى الثانية والعشرين) إذ ولد رحمه الله فى الثانى عشر من مايو سنة عشر(١٩١٠) . . وقد كان الرجل منصرفا بطبعه إلى العلم والفقه، وقد ساعده والده على ذلك بالزواج المبكر . . ثم أتيح له السفر إلى فرنسا، فدرس الفلسفة فى جامعة باريس ونال الليسانس والدكتوراه، وعاد ليعمل مدرسا بكلية اللغة العربية ثم أستاذا بأصول الدين فعميدا فأمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية فوكيلا للأزهر الشريف.
وهو تكوين إدارى وجامعى وعلمى وتنفيذى على أعلى المستويات أهله لتولى الوزارة فى يسر، ولتولى المشيخة بعدها محاطا بالتقدير، وأهله قبل ذلك ليقوم بالدور الهائل الذى قام به خير قيام.

ربما كان دور عبدالحليم محمود فى الازهر أعمق وأبعد أدوار شيوخ الازهر اثراً، وقد اختار هو نفسه هذا الدور ليلعبه حين وضع معظم جهده وهو شيخ للأزهر فى أن يتوسع فى التعليم الأزهرى العالى وقبل العالى ذلك التوسع الذى لم يشهده الأزهر طيلة الألف عام التى مضت عليه . . و هذا كلام لا يحتاج إلى شواهد تثبته، لأنه صار حقيقة أوقع ما تكون أمام أعين الناس جميعاً فى كل رجا من أرجاء وطننا الذى تسلم عبدالحليم محمود الأزهر وليس له إلا خمسين معهداً فتركه وله خمسة آلاف .

□

ولد الدكتورعبدالحليم محمود فى قرية دارالسلام بمحافظة الشرقية، ونال الشهادة العالمية من الأزهر سنة ١٩٣٢، وفى العام نفسه سافر الى فرنسا على نفقته الخاصة وأخذ فى الدراسة بجامعة السوربون حيث درس علم النفس وعلم الاجتماع وتاريخ الاديان وحصل فى كل مادة من هذه المواد على شهادة عليا من الجامعة، واستكمل دراسة الليسانس، ثم درس الدكتوراه وكانت فى موضوع التصوف الاسلامى بعنوان (أستاذ السائرين : المحاسبى) ونال عنها درجة الامتياز بمرتبة الشرف

الأولى عام ١٩٤٠ ، بعدها عاد لمصر ، وعين مدرساً لعلم النفس بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، وبعد عشر سنوات نقل الى كلية أصول الدين وبقى فيها حتى أصبح عميداً لها عام ١٩٦٤ ، وبعدها بأربع سنوات عين أميناً عاما لمجمع البحوث الاسلامية ، ثم وكيلاً للأزهر ، وفى عام ١٩٧٢ عين وزيراً للأوقاف ، و فىً عام ١٩٧٣ عين شيخاً للأزهر . وقد مدت خدمته فى مشيخة الأزهر مرتين الأولى من مايو ٧٥ حتى مايو ١٩٧٧ والثانية من مايو ٧٧ حتى مايو ١٩٧٨ .

وقد سافر الدكتور عبدالحليم محمود الى عدد كبير من الدول كأستاذ زائر لجامعاتها ، و للمشاركة فى المؤتمرات الدولية . وللدكتور عبدالحليم محمود مؤلفات عديدة تبلغ السبعين ، وله مترجمات أيضا .

من مؤلفاته «الفيلسوف المسلم» ، «أوروبا والإسلام» السنة فى تاريخها ، وفى مكانتها ، وأسرار العبادات فى الاسلام ، «التصوف الاسلامى» ، « شخصيات ونصوص» ، « الاسلام والشيوعية» . وله سلسلة من كتب التراجم أرخ فيها لعدد من الشخصيات الإسلامية الصوفية «أبو الحسن الشاذلى» و «الفضيل بن عياض» . كما قام الدكتور عبدالحليم محمود بتحقيق ونشر

بعض كتب التراث الاسلامى : (الرعاية لحقوق الله للمحاسبى، والفلسفة الهندية للبيرونى، والتصوف لمذهب أهل التصوف).

وقد كان أول عمل قام به عندما تولى أمانة مجمع البحوث الاسلامية أن شكل لجانا لتقنين الشريعة على المذاهب الأربعة توطئة لعمل تقنين وقد انتهت هذه اللجان من تقنيناتها فى المعاملات والحدود لكل مذهب. ومن أهم الأعمال التى أقدم عليها عمله على وضع مشروع دستور اسلامى للحكم ؞ قد كون لجنة لهذا الغرض من كبار العلماء ورجال القانون.

فى الذكرى العاشرة لوفاته (١٩٧٨ ـ ١٩٨٨).

عبدالحميد كفافى

تكاد قراءة التاريخ تنبئنا أن المثاليين يصنعون الثورة ، وأن المغامرين ينفذونها ، وأن الوصوليين والانتهازيين هم الذين يفيدون منها ، وقد كان عبد الحميد كفافى واحدا من المثاليين القلائل الذين بدأت على أيديهم ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وقد ظل هذا الرجل حريصاً كل الحرص على المثالية حتى بعد أن ابتعد عن الثوار والثورة والحياة العامة منذ العام الأول لقيام الثورة .

□

ولعبد الحميد كفافى فضل على الثورة من ثلاث زوايا : الزاوية الأولى أنه كان من البادئين بتكوين تنظيم للضباط فى سلاح الفرسان ربما قبل أن يبدأ الآخرون ، وجيلنا الذى لم يشارك فى الثورة لايجد فى كتاباتنا التاريخية معلومات وافية عن تنظيم واضح ومحدد المعالم والنشاط بنفس الصورة التى كان

عليها تنظيم سلاح الفرسان .

وكان كفافى أبرز أقطابه مع مصطفى نصير ، وجمال منصور ، وسعد عبد الحفيظ ، وقد عانى عبد الحميد كفافى قبل الجميع فاعتقل فيما سمى وقتها (١٩٤٧) بقضية « المؤامرة الكبرى» ، والتى تحولت بفضل ذكاء زملائه الذين بقوا خارج المعتقل إلى وسيلة فعالة للتخلص من الفريق إبراهيم عطا الله الذى كان يتمتع بثقة الملك ومحبته .

ولكن الملك وجد نفسه مضطرا لأن يضحى بعطا الله بعدما انتشرت منشورات الضباط التى تندد بما فعله عطا الله وتصوره على أنه محاولة منه للوقيعة بين الملك (الفاروق) وجيشه المحب له ، وهكذا قدر لكفافى أن يخرج من السجن الذى دخله وهو لايزال ضابطا شاباً جداً فى ريعان شبابه ، وقد حفظت قضية المؤامرة الكبرى بأمر النائب العام ، ولكنها لم تسقط الا بعد قيام الثورة .

□

الزاوية الثانية التى أفاد بها كفافى الثورة وبلاده هى مساهمته الفعالة بالمال واليد والقلم فى صياغة أقوى سلاح مكن الضباط

الأحرار من أن يحدثوا التجاوب المبكر مع ثورتهم القادمة داخل القوات المسلحة وخارجها . وقد كان هذا السلاح هو سلاح المنشورات التى بدأها كفافى وزملاؤه ثم استمرت إلى قيام الثورة ، وإلى كفافى يرجع جزء كبير من الفضل فى الوصول بهذا السلاح إلى أقصى فعاليته ، وقد نجح فى هذا بفضل تخطيط جيد ، وبفضل التجربة والخطأ ، وبفضل التضحية من أجل الوسيلة بالوقت والمال والجهد .

ومن حسن حظ تاريخنا أن هذه المنشورات لم تُفقد نهائيا من ذاكرة الأمة ، وفى كتاب السفير جمال منصور صور فوتوغرافية لكثير منها ، ولكن يكفى أن ندل القارئ على أن كفافى وزملاءه قد استطاعوا بناء «مؤسسة كاملة» لهذه المنشورات منذ مرحلة مبكرة ، فقد كانوا يملكون بمدخراتهم المعقولة آلة الطباعة الجديدة وأدواتها ، وكانوا يوظفون للمهمة ناسخاً شاركهم المخاطرة من أجل وطنه ، وكانوا قد احتاطوا حتى فى كتابه العناوين على الاظرف بأن طبعوا على الاستنسل مانسميه اليوم قوائم البريد فى شرائط رفيعة يلصقونها فوق الأظرف فلا تتمكن الأجهزة كلها من الوصول إلى خط يمكن مضاهاته .

ولم تكن المنشورات هى السلاح الوحيد الذى حارب به كفافى معركته، فقد تعاون مع مصر الفتاة فى تدريب شبابهم ومد يده للتعاون مع الإخوان المسلمين و حسن البنا، ومع كل القوى الوطنية الموجودة فى الساحة الوطنية فى تلك المرحلة.

□

أما الزواية الثالثة التى خدم بها كفافى ثورته، فهى فى نظرى أهم ماقدمه هذا الرجل العظيم لهذه الثورة العظيمة بعد تحقيقها، فقد كان بمثابة أول معارض حقيقى من داخل الثورة وصفوفها، ولم يكن هذا إلا تعبيراً عن شجاعته الفائقة حين وقف مبكراً جداً أمام الأخطاء معرضا صدره فى جسارة فائقة لسهام الأصدقاء وحلفاء الأمس، وهى السهام التى تكون فى العادة أقوى وأشد وأفتك من سهام الأعداء.

ولست من الذين يجبذون التحسر على مافات فيقولون إن الامور كانت ستتغير إلى الأفضل لو أخذ برأى هذا الثائر العظيم، ولكنى من الذين يؤكدون أن بلادنا كانت ستتجنب كثيراً من النكسات التى منيت بها لو ظل مثل هذا الصوت موجوداً ومسموعاً، ولكن عجلة الثورة كانت قد صممت على أن تمضى

فى الطريق الضيق الذى تصوره المسئولون عنها وقتها كفيلا وحده بالصواب فكان ماكان .

☐

وترك كفافى القوات المسلحة بعد أن أُبعد عن سلاح الفرسان إلى الواحات فى اكتوبر ١٩٥٢ ، وأبلغه حسين الشافعى مدير السلاح أن الاتجاه فى مجلس قيادة الثورة كان هو صدور أحكام تتراوح بين الإعدام والسجن والمؤبد، الا أن بعض أعضاء المجلس رأوا تخفيف هذه الأحكام ، وانتهى الأمر بالإبعاد عن الوحدات، وهكذا حوكم كفافى على أيدى القادة الجدد دون أن يحضر محاكمة، وجوزى بغير تهمة لأن هذه هى طبيعة الديمقراطية الجديدة يومها (ولا أقول الدكتاتورية)، بينما كان كفافى نفسه قد خرج بريئا من قبل فى العهد البائد رغم أنه لم يكن بريئا بمفهوم القانون وهو الذى أقسم على الولاء لمليكه!

☐

وفيما بعد عاش كفافى حياة هادئة رزقه الله فيها بأعظم نعمة فى الوجود وهى رضا النفس واطمئنانها، ولم يكن يعتقد إلا أنه أدى ماعليه لوطنه ، ولم يكن يقدم نفسه للناس بأنه فعل شيئاً

ولاشيئاً ذى بال فى تغيير الحياة على أرض هذا الوطن ، وقد أتيح لى أن أشرف بمعرفته فلم أجده إلا ذلك الجندى الذى يتفجر بالعظمة مع أنه جندى مجهول، وكنت إذا مررت بنصب للجندى المجهول أتذكر عبد الحميد كفافى وهو يعيش بين الناس شامخ الرأس من ناحية ، وجندياً مجهولا فى ذات الوقت .

نشرت تحت عنوان : «عبدالحميد كفافى : أول المضحين وأول الضحايا» .

[الأهرام : ٢١ يناير ١٩٩٦]

عبدالحميد متولى

فقدت الأمة العربية برحيل الدكتور عبد الحميد متولى عن خمسة وتسعين عاماً (١٩٠٠-١٩٩٥) شيخاً من شيوخ القانون الدستورى العظماء الذين انتبهوا منذ مرحلة مبكرة جداً إلى دقائق العلاقة بين القانون والسياسة فى كل مستويات التشريع والتخطيط والتنفيذ، وقد تفرد عبد الحميد متولى بين الجميع بدراساته العميقة والرائدة فى مجالين مهمين، هما النظام السياسى فى الإسلام ، ونظام الحكم فى الدول النامية بما فيها إسرائيل .

وقد كان فقيدنا العظيم أبرز نموذج بين جيله الفذ لإبداع الفقهاء ، على الرغم من أن القانونى لاينال درجة الفقيه إلا إذا اتسع علمه ، وتعمق فهمه لما اتسع له من الآفاق المتعارضة أو المتنافرة أو المتناقضة، ثم أوتى القدرة على تقديم كل هذا الزاد من

العلم القانونى لطلابه ولجمهوره برؤيته الخاصة التى تفرض ذاتيتها على النص المكتوب ، وعلى فهمنا كذلك للنص المكتوب

□

وقد كان عبد الحميد متولى متفوقا فى ذلك كله، ولكنه زاد على ذلك قدرة لم يجاره فيها أحد من معاصريه على اختراق أكثر المناطق حرجاً والنفاذ إليها ثم النفاذ منها، وهو على التزامه بالعلم، وإخلاصه لفلسفته، ويقينه بما ترسخ فى ضميره من فكر قانونى صاف ومنقى ومنتقى.

وهكذا استطاع هذا الرجل العظيم أن يأخذ بأيدينا معاشر القراء من عامة المثقفين، وأن يأخذ فى الوقت نفسه بأيدى تلاميذه من القانونين إلى منطقتين مهمتين جداً للفكر العربى المعاصر، وهما النظام السياسى فى الإسلام، ومكانة الديمقراطية فى هذا النظام ، ونظام الحكم فى الدول النامية ، وإذا بعبد الحميد متولى فى دراساته التى تناول فيها هذين الموضوعين الحيويين، الشائكين، يأخذ بنا إلى عالم فسيح من العلم والمعلومات، ومن الفقه والقانون، ومن السياسة والتاريخ، لنخرج حتى بعد قراءة صفحة واحدة من صفحات كتبه أو

بحوثه وقد تزودنا بزاد عميق لم يكن يتاح لنا ولابعد قراءة عشرات الكتب التى أخرجها معاصروه.

كان عبد الحميد متولى إذن نموذجا لهذا الرجل الدقيق الذى يفرغ كل طاقاته على الإبداع فى «إبداع الدقة»، حتى تأتى دقته نموذجا غير تقليدى للدقة غير تلك الدقة الروتينية التى نراها فى الساعة التى تدور وتعود لتدور ، أما إبداع الدقة فى عبد الحميد متولى فكان كالذى نستطيع أن نفهمه فى حركة الأفلاك فى الكون كما خلقها الله بنظام دقيق لايستعصى على الفهم، ولكنه يتطلب صبراً على دراسته حتى يتاح الفهم، وهكذا كان عبد الحميد متولى فى كتاباته التى عبر بها عما أفنى فيه عمره المديد من الدرس والفهم والتحليل والمقارنة والنقد وتكوين الرأى وإعادة نقده وتقييمه، حتى إن المرء ليستطيع أن يؤلف كتباً قيمة من هوامش كتابه.

□

وقد شرفت منذ أكثر من خمسة عشر عاماً بمعرفة كتبه من خلال صديقيه المغفور لهما توفيق الحكيم وحسين فوزى فاذا بى أمام عالم ومؤلف جبار أوتى قدرة شديدة على الإخلاص

للنص، وإذا هو على خلاف كل الناس فى ذلك الحين ومنذ ذلك الحين مخلص أشد الإخلاص لتحليل النص فى ضوء «الحق» لا فى ضوء «المبدأ» ، وفى ضوء «الحقيقة التاريخية» لا فى ضوء «الإخلاص للعقيدة الفكرية» ، ولا أظن أن أحداً منا جميعاً فى هذا العصر ينافس هذا الرجل العظيم فى ذلك التجرد المطلق الحقيقة التى يبحث عنها.

وكلما رجعت إلى مؤلفاته كنت أسأل نفسى هل وجد هذا الرجل فى الزمن الخطأ أم أن زماننا أخطأ حين لم يجد له مكاناً فى صدارة الحكم أو مشورة أهل الحكم . . . ولكنى كنت أوقن وأنا أنتهى من قراءة ما كتب بأنه كان أكبر من عصرنا.

ولاأزال حتى اليوم أذكر بحثه الدقيق عن «أزمة الفكر السياسى الإسلامى فى العصر الحديث : مظاهرها ، أسبابها وعلاجها» وكتابه الجميل « الشريعة الإسلامية كمصدر أساسى للدستور » وكتابه عن « مبادئ نظم الحكم الإسلام» وكتابه الرابع عن « الإسلام ومبادئ نظام الحكم فى الماركسية والديمراطية الغربية» وكتابه المرجع « القانون الدستورى والأنظمة السياسية مع مقارنة بالمبادئ الدستورية فى الشريعة الإسلامية»، وكتابا آخر عن» الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام».

□

ومع هذا كله ظل هذا الرجل لا أقول فى صومعته ولكنى أقول فى منارته الهادية فى الإسكندرية منذ عمل فى هذه الجامعة العظيمة بعد عمله فى كلية البوليس وفى حقوق بغداد التى تولى عمادتها فترة من الزمن .

وقد استعاض عن التقدير الساطع بالتقدير العميق وعن الألمعية الساطعة باللوذعية الهادية . وقد كانت القاهرة بكل جمالها أضعف من أن تستقطبه ليقع فى هواها ، وكانت الاسكندرية بكل جاذبيتها أبخل من أن تفرط فيه ، وكانت مصر فى الحالين منتهى أمله وأقوى آماله والموضع الوحيد لأحلامه ، وكان بمثابة إرهاص مبكر لوجود علماء من طبقته بعيداً عن القاهرة وأقرب إلى قلب مصر منها .

□

لم يبخل عليه تلاميذه ومحبوه بما ينبغى له من مكانة رفيعة ، ولو كان الأمر بيدى لجعلت كتبه أول ما يطبع للمنتمين إلى جماعات الإسلام السياسى على اختلاف فصائلهم . ولو كان الأمر بيدى لجعلت كتبه أيضاً أول مايطبع فى سلسلة كتب

التنوير، ولكنى لابد أن أتحرز وأحتاط فأقول إنها لاتنور العقل من الجهل إلى المعرفة ، ولاتنور العارف بمعرفة أعمق، ولكنها فى الحقيقة تنور العلماء والمفكرين بمواطن العقائد الخاطئة فيما ظنوه مسلمات، فإذا بعبد الحميد متولى يضع كل شىء فى محله وفى سياقه.

وإنى لعلى يقين أن الذين سيدلهم هذا المقال على عبد الحميد متولى سيدعون لى مرة ومرات ، لأنه كنز عظيم ، ولكنه كان كما قلت أكبر من عصره.

نشرت تحت عنوان: «عبدالحميد متولى . . رجل أكبر من عصره».

[الأهرام: ٢١ ديسمبر ١٩٩٥]

عبد الرزاق السنهورى

لعل الدكتور عبدالرزاق السنهورى ـ عليه رحمة الله ـ هو أعظم القانونيين المصريين فى عصرنا الحديث، وقد ينازعه فى هذا عبدالعزيز فهمى باشا، أو عبدالحميد بدوى باشا، لما لهما من فضل فى تاريخ القضاء والتشريع، لكن الذى لاشك فيه أن فضل السنهورى فى الفقه والتقنين يدفع به أمامهما خطوة أو خطوات إلى الأمام.

ثم إن صلة السنهورى المباشرة وغير المباشرة بطلابه كانت بمثابة أقوى الصلات إذا ما قونت بصلات أساتذة الحقوق وعمداء تلك الكلية جميعاً، والذين يقرأون تاريخ السنهورى الوظيفى سوف يأسفون على الوضع الذى كان يتطلبه السلم الوظيفى فى الحكومة المصرية حين كانت وظيفة العميد درجة غير عليا فى هذا السلم، تدفع أصحابها إلى تركها إلى درجات أرقى. . و لعل

هؤلاء يشعرون بهذا وقد انطبعت فى مخيلاتهم الخسارة التى خسرتها الجامعة حين ترك السنهورى منصبه كعميد لكلية الحقوق (٣٦ ـ ١٩٣٧) ليعمل قاضياً فى المحاكم المختلطة!! ثم وكيلاً لوزارة المعارف، ثم وكيلاً لوزارة العدل، ثم وزيراً للمعارف مرتين، ثم رئيساً لمجلس الدولة (١٩٤٩).

□

كانت تنتظر السنهورى فى الحقوق مكانة مؤثرة لو أنه أتيح له أن يبقى فى العمادة، كمثل مشرفة فى العلوم، أو طه حسين وأحمد أمين فى الآداب، لكن كلية الحقوق، لم تتح لعمدائها أن يقبلوا على كرسى عمادتها وأن يستمرا فى العمادة تلك المدد الطوال. هل كان ذلك لطبيعة الاتصال الوثيق يومها بين خريجى هذه المدرسة والحياة العامة، فهم صناعها وهم أصحابها، وهم أولو المناصب؟ هل لأن السياسة كانت تحتاج القانون: يفسرها، كما كان الاجتماع يحتاج القانون، وكما كانت المعارف هى الأخرى تحتاج القانون؟ لست أدرى.

كل ذلك وغيره من صفات الدكتور السنهورى لن يتسع له المقام فى حديثنا السريع عنه اليوم فى ذكراه، إنما يعنينا أن نتحدث عن ذلك الصمود والعناد فى الحق الذى كان فى شخصه، كان

السنهوري من أولئك الذين يؤمنون بما يؤمنون!! أى أنه كان طرازاً من القلائل فى عصر كان مَنْ فيه يفخرون ـ فى السر أو العلن فيما بعد ـ أنهم يؤمنون بما لم يكن يظهر من أفعالهم أو موافقتهم على أفعال غيرهم أنهم يؤمنون به . لكن السنهورى كان يؤمن بما يؤمن!! ولعل ما أنهى حياته السياسية على نحو ما انتهت به كان هو هذا السبب!!

□

ولعل الذين يطلبون فى السياسى المرونة يندمون أن وقع للسنهورى ما وقع فى ذلك اليوم المشئوم من عام ١٩٥٤ حين اقتحم الغوغاء مجلس الدولة! ليعتدوا عليه حين تناهى إلى سمع الضباط أنه سيقف حجر عثرة أمام خطوة كانوا يريدونها، ويبرر رجال الثورة موقفهم ويلومون السنهورى أنه لم يتحسب لهذا، ويقولون إنه كان فى وسعه أن يتفادى بوسيلة أو بأخرى أن تصل الأمور إلى هذا الحد . . وفى رأيى أنه لو تفادى السنهورى ذلك لتعدى الخيط الرفيع، فترك المرونة السياسية إلى الانتهازية والوصولية وما شاكلهما من الصفات التى هى على الجانب الآخر من ذلك الخيط الرفيع . . نعم كان على السنهورى أن يمضى بالأمور أو مع الأمور فى طبيعتها، ولم يكن عليه بعد ذلك

أن يضمن النتائج، لأنه شأنه فى عمله شأن الجراح يعالج بمشرطه، وليس عليه أن يعبث بهذا المشرط فى غير الجراحة التى هى وظيفته. وقد كان فى وسع من هو فى ذكاء السنهورى أن يلعب بمشرط القانون فيسير مع الثورة ويتقبل أهواء ويكفل تحويلها إلى نتائج يستفيد شخصه منها. ولكن السنهورى لم يفعل لحسن الحظ، بل وتوقف عن دعمه الذى كان يقدمه قبل ذلك.

ولست مع الذين يلومون السنهورى على قبوله أو اندفاعه للتعاون مع الثورة فى بداياتها، وظنى أن السنهورى وهو واحد من أولئك الذين أصابهم اليأس من صلاح أحوال البلاد فى ظل حكم سابق، كان يحدوه الأمل وتدفعه الرغبة إلى الإصلاح فى ظل عهد جديد!! ولم يكن بطبيعته فاسداً ولا مفسداً، فحق عليه أن ينال ما نال فى عام ١٩٥٤!! وعلى كل حال فإن ذلك شرف له، وشرف لبلاد أنجبته، وترعرع فيها صلاحه، كما ترعرع فيها فساد آخرين!!

إنما يعنينى فى هذه السطور أن أبيّن كيف كانت أصالة هذا الموقف من السنهورى تجاه الحفاظ على السلطة التى نيطت بها، سواء أناطها به علمه أو مكانته أو وظيفته، فقد كان السنهورى

بلاشك حفياً بتأكيد حصانة القضاء وصيانة استقلاله، وليس أدل على ذلك من أن يقف المرء نفسه فى وجه الذين يزايدون على المبدأ الذى يدافع هو عنه!! وهم يحرجونه (فى ذات الوقت) بأن يضعوه فى صف المخالفين للمبدأ الذى هو من صنعه!! هذا المأزق «السياسى التاريخى» كثيراً ما تكرر كأنما هو فى أداء رجال السياسة خطوة فى لعبات الشطرنج المشهورة. وقد قام به أحد زعماء الوفد البارزين، والمشهورين بهذا الصنف من الشطرنجيات السياسية مع الدكتور السنهورى.

وسوف أترك القارئ يطالع فى الفقرات التالية ما يرويه الأستاذ المستشار أحمد فتحى مرسى عن السنهورى فى هذا الشأن [فى المجلد الذى نشر بمناسبة العيد المئوى لكلية الحقوق جامعة القاهرة تحت عنوان « خواطر ومقالات»، ١٩٨٠] وقد كتب المستشار العظيم يروى ما حدث فيقول:

«أرادت حكومة الوفد سنة ١٩٥٠ إبعاده - أى إبعاد السنهورى - عن منصبه القضائى كرئيس لمجلس الدولة، بدعوى أنه سبق أن كان وزيراً منتمياً لحزب سياسى قبل أن يلى القضاء. وفوضت الحكومة وزير المالية - إذ ذاك - فى أن يطلب إليه التنحى عن منصبه، فرفض السنهورى وقال لوزير المالية: «ليس فى الدستور

أو القانون ما يمنع من أن يتولى وزير سابق رياسة مجلس الدولة حتى ولو كان هذا الوزير قد انتمى إلى حزب سياسى وقت أن كان وزيرا».

«وتاريخ القضاء المصرى حافل بأسماء قضاة كانوا وزراء سابقين وكانوا ينتمون لأحزاب سياسية، بل كانوا رؤساء لهذه الأحزاب (يشير بذلك إلى عبدالعزيز باشا فهمى الذى كان رئيساً لحزب الأحرار الدستوريين ثم ولى رئاسة محكمة الاستئناف ثم رئاسة محكمة النقض).. ولم يمنع ذلك من أن يكونوا خير القضاة علماً ونزاهة واستقلالاً وحيدة. ومادمت قد استقلت من الحزب الذى كنت أنتمى إليه، وقطعت صلتى بجميع الأحزاب السياسية منذ توليت القضاء، فلا يجوز أن يقوم اعتراض على شغلى لمنصبى الحالى».

ثم سأل السنهورى وزير المالية: «هل وقع منى بعد تولى القضاء أى تصرف قضائى يدل على أننى رجل حزبى»؟

قال وزير المالية: «فيما أعلم لا».

فقال السنهورى: «وفيما لا تعلم لا».

فلما عرض عليه وزير المالية أن يختار أى منصب يشاء، قال

السنهورى : «أى منصب تريدنى أن أختاره ، ألم أكن وزيراً وفضلت منصب القضاء على منصب الوزارة» .

ثم قال لوزير المالية : «إن الحكومة إذ تتقدم إلىَّ أن أتنحى عن منصبى بدعوى الحزبية ، فإنها هى التى تتصرف تصرفاً حزبياً ، وإن من واجبى أن أدفع اعتداءها على استقلال القضاء ، وسأبقى فى منصبى لأقوم بهذا الواجب» .

«كيف أرضى أن تتعسف الحكومة بمجلس الدولة وهو الذى يتولى إنصاف الناس من الحكومة إذا تعسفت بهم . إن بينى وبينكم دستور البلاد وقانون مجلس الدولة» .

ودعا السنهورى الجمعية العامة لمجلس الدولة فى أول فبراير سنة ١٩٥٠ وعرض عليها ما حدث ، ثم تخلى عن رياسة الجلسة لوكيل المجلس قائلاً لزملائه : «إننى أترككم لمناقشة هذا الأمر الخطير فى حرية تامة ، وإذا كانت الأقدار قد شاءت أن تلقى على عاتقى فى هذه الظروف التاريخية أخطر مسئولية نحو استقلال القضاء وكرامته ، فقد اعتزمت بمشيئة الله أن اضطلع بهذه المسئولية كاملة ، ولن أدخر فى هذا السبيل كل ما يسعنى من طاقة وجهد» .

«ووقفت الجمعية العامة للمجلس إلى جوار السنهورى ،

وأصدرت قرارها التاريخى الذى انتهت فيه إلى : «أن مطالبة رئيس المجلس بالتنحى عن منصبه تنطوى على مخالفة صريحة للقانون ، واعتداء على استقلال المجلس لا تقره الجمعية ، وتعهد إلى رئيس المجلس أن يتخذ من الإجراءات ما يكفل المحافظة على استقلاله ، كما تطلب إليه أن يبلغ هذا القرار لوزير العدل» .

على هذا النحو كان السنهورى واعياً منذ مرحلة مبكرة لحدود ما يمكن له أن يقبل به ، وما لا ينبغى عليه أن يفرط فيه . ولم يكن ذلك الموقف المجيد هو موقف السنهورى الوحيد من افتئات السلطة على مجلس الدولة . فقد وقف - بعد ذلك - فى حزم وصلابة ضد تمرد جهات الإدارة على أحكام المجلس ، وامتناع بعض الوزراء - إذ ذاك - عن تنفيذها . فوصم هذا الامتناع بأنه مخالفة قانونية خطيرة لأصل من الأصول التى تمليها المبادئ الدستورية العليا . وقضى بأن هذا يعد خطأ جسيما يندرج تحت الجرائم التى يعاقب عليها جنائياً ، ويعد خطأ الوزير الذى يقدم على ذلك مستوجباً لمسئوليته الذاتية فى ماله الخاص عن التعويض المطالب به دون خزانة الدولة .

فى الذكرى العاشرة لوفاته (١٩٨١) .

عبداللطيف البغدادى

كان عبد اللطيف البغدادى واحداً من اثنين من أعضاء مجلس قيادة الثورة « ومن أعضاء الصف الأول فى ثورة ٢٣ يوليو » شاركا فى العمل السياسى السرى منذ بواكير شبابهما وقبل قيام الثورة بفترة طويلة ، وكان الآخر هو أنور السادات، وبدايات هذين الرجلين تسبق بدايات زملائهما الآخرين جميعاً وبلا استثناء إلا أن يكون هذا الاستثناء واحداً ممن لم يصلوا إلى عضوية مجلس قيادة الثورة (كعبد المنعم عبد الرءوف الذى فصل من اللجنة القيادية قبل قيام الثورة أو حسين ذو الفقار صبرى أو حسن عزت أو احمد سعودى).

وقد بدأ هذان الرجلان نشاطهما فى هذه الاتجاه منذ ماقبل قيام الثورة بعشر سنوات على الأقل ، وقد تعرض أنور السادات للسجن مرتين والفصل من القوات المسلحة أما بغدادى فإنه لم

يعان من مثل هذه المآسى ، ولعل هذا هو ما جعله لايتمتع بما تمتع به السادات من حنكة شديدة وصبر طويل على كل ما أتت وتأتى به الأيام . . كان البغدادى أكثر ميلاً إلى فهم الخطوط المستقيمة الواضحة وكان أنور السادات قادراً على فهم المنحنيات والدوائر المتقاطعة ، وكان السادات على سبيل المثال يشعر بالامتنان تجاه عبد الناصر الذى ضمه إلى الصف الأول من المسئولين عن الثورة التى كان هو صاحب الفضل الأول فيها . . بينما كان البغدادى مايزال يشعر بالامتنان على عبد الناصر وليس تجاهه كما كان أنور السادات يشعر !!

□

ومنذ اللحظات الأولى التى أخذت فيها الثورة بمبدأ الأقدمية كانت الأمور تسير فى صالح قيام البغدادى بأكبر دور [وكان ترتيبه فى كشف الجيش يعطيه دوراً متقدماً جداً إذ كان الثانى مباشرة بعد جمال سالم] ، ولكن لاجمال عبد الناصر ولا البغدادى استطاعا أن يقودا التفاعل بين رأييهما لمصلحتيهما أو لمصلحة مصر .

ومعظم المراقبين لتلك الأيام يقررون أن عبد اللطيف

البغدادى قد أضير بسبب آرائه وحرم من موقعه المتقدم بسبب معارضته لعبد الناصر ، ولكنى على خلافهم جميعا أزعم أن خسارة عبد الناصر بابتعاد البغدادى كانت أكبر بكثير من خسارة البغدادى بالابتعاد ، فلربما خسر البغدادى بعض المناصب وبعض الأضواء ولكن عبد الناصر خسر صديقا حقيقياً ، ووطنيا مخلصاً ، ورأيا سديداً ، ومشاركة واعية ، ولو كان للموتى أن يتكلموا لقال عبد الناصر - الآن - مثل ما أقول .

□

وإنى لأعتقد أن عبد اللطيف البغدادى كان يتمتع بقدرات عقلية متفوقة ولكنه كان فى نفس الوقت لايتمتع بذات الأقدار من القدرات النفسية : لم يكن عنده هذا القدر الذى كان يتمتع به عبد الناصر و السادات و زكريا محيى الدين من القدرة على التكيف مع البشر والصبر عليهم إلى حين ، ولابعض هذا القدر .

وإذا أردت أن أعبر بلغة الأطباء فقد كان البغدادى يشعر بالغثيان بأسرع ممايشعرون ، بل كان يرى نفسه عاجزة عن أن تتوافق مع كثير من الأمور التى كان يسهل عليه التوافق معها لو

أنه درب نفسه الصريحة على شيء من الصبر والتؤدة وتوقى الصدام وتقبل وجهات النظر الأخرى حتى لوكانت صريحة البطلان .

وليس من شك أن حياته العسكرية المستقرة لم تساعده على معرفة كنه النفس الإنسانية على نحو ما عرفها أنور السادات ، وليس من شك أيضاً فى أنه لم يكن ميالا إلى الزعامة بنفس القدر الذى كان عبد الناصر يميل إليها ، ولهذا فان عبد اللطيف البغدادى كان سريع الغضب إذا ماتجاوزت الأمور حداً لاتطيق نفسه أن تتوافق معه ، ولهذا فانه وفى مرحلة مبكرة جدا اعتزل تنظيم الضباط الاحرار قبيل الثورة حين وجد الأمور تسير فى الاتجاه الذى لايوصل إلى شئ ..

□

كذلك فإنه على نحو ماسنرى كان صاحب الاستقالة المبكرة فى ١٩٥٤ .. كما تقدم بثمانى استقالات على مدى عشرة اعوام [١٩٥٤ - ١٩٦٤] ، ولهذا فإنى مع حبى الشديد للبغدادى لا أستطيع أن ألوم عبد الناصر بنفس القدر الذى ألوم به البغدادى ، أقول هذا ولا أبرئ نفسى فإنى فيما أعرف عن نفسى - على سبيل

المثال - أضيق منهما صدراً وأسرع غضباً ، ولكن الحق الذى لامرية فيه أن عبد اللطيف بغددى يتحمل قدراً لابأس به من المسئولية عن الإبقاء على عبد الناصر فى أحضان عبد الحكيم عامر تماماً حتى وقعت الواقعة فى ١٩٦٧ .

ولست أتحيز فى هذا لعبد الناصر ضد عبد اللطيف البغدادى فلربما أحس القارئ من كتابى «مذكرات الضباط الأحرار» أن حبى للبغدادى لايقل عن حبى لعبد الناصر .. ولكنى لا أستطيع أن أبرئ البغدادى من المسئولية عن تسليم عبد الناصر لعبد الحكيم تماما وبخاصة أن عبد الناصر على ما رواه البغدادى نفسه كان دائم الشكوى له من عبد الحكيم .. وصحيح أيضاً أن عبد الناصر كان ضعيفا تجاه عبد الحكيم ..

ولكن هل كلف البغدادى نفسه مرة واحدة أن يدبر تدبيراً واحداً من أجل نصرة عبد الناصر على نفسه (أى على عبد الناصر) وعلى عبد الحكيم ، هذا هو السؤال الذى ينبغى لنا أن نسأله اليوم حتى يتعظ الناس جميعا فى كل زمان قادم بهذه التجربة بين الثوار الثلاثة .. فقد كان البغدادى فى ظل حرصه على أخلاقياته بينه وبين نفسه يدفع نفسه إلى أن ينأى بنفسه عن الدور

الذى تهيأ له فى خدمة وطنه ، ولنذكر أنه كان صاحب أطول مدة قضاها أى رجل ثان فى عهد عبد الناصر ، ولنذكر أيضا أن عبد الناصر نفسه كان كثيرا مايفكر فى الإفادة من قدراته حتى بعد ابتعاده وإن لم يكن هذا لايستتبع بالطبع القفز إلى فكرة استخلافه له .. بل لنذكر أيضا أن أنور السادات نفسه لم يفكر فى أن يؤثر أحداً من أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين بالاستقبال إلا البغدادى !!

□

على هذا النحو نستطيع أن نفهم أن البغدادى كان مُرحبا به على الدوام فى الصف الأول سواء فى عهد عبد الناصر أو حتى فى عهد السادات ، ولكنه كان ـ بحكم شخصيته وتكوينه ـ أقرب إلى طراز متفرد من السياسيين الوطنيين المثاليين الذين لايملكون القدرة على التجاوز عن بعض المواقف الخاطئة وهكذا فقد كان يؤثر لنفسه السلامة أمام ضميره ، وأمام خالقه جل جلاله ، وأمام التاريخ .. وقد يكون هذا مقبولا منه ومن غيره فى فترات طويلة من الزمن .. ولكن أن يقبله التاريخ منه حين كانت مصر مقبلة على هذه النكسة النكراء فى ١٩٦٧ فأمر أشك فيه .

ولست بمستطيع أن أتجاوز هذه النقطة من دون أن أذكر أن هذا كان هو الدافع الأكبر للبغدادى ـ فيما بعد ـ إلى المسارعة إلى عبد الناصر قبيل وقوع الحرب مرة ومرتين ، ثم طوال الحرب أيضا .. ولكنى مع هذا لا أستطيع أن أذكر أنه بهذا الذى فعل أدى ـ تماما ـ كل ما كان ينتظر منه وهو رجل حمل روحه على كفه ليلة ٢٣ يوليو وقبلها أكثر من مرة .

□

وربما يمتاز عبد اللطيف البغدادى عن أقرانه من قادة الثورة جميعا بالمام واسع بالشئون العربية قبل قيام الثورة ، فقد أتاحت له الظروف الاتصال باليمن وأزماتها وثورتها المبكرة فى ١٩٤٨ ، كما كان على اتصال بفوزى القاوقجى وجيش تحرير فلسطين ، كذلك كان على اتصال وثيق بالسوريين واللبنانين والعراقيين ، ولعل هذا قد ساعده على سعة الالمام بكثير من الحقائق وسعة الأفق فيما يتعلق بهذا المحيط المهم .

□

كذلك يمتاز عبد اللطيف البغدادى عن كل زملائه من رجال الثورة جميعا بالقدرة الفذة على الإنجاز ، وقد كان بمثابة الوحيد

منهم الذى جمع القدرة على الحلم وعلى وضع الخطط الكفيلة بتنفيذ حلمه ثم على متابعة هذا التنفيذ .

والفارق بينه وبين زملائه جميعا فى هذه القدرة كبير جداً فعلى الرغم من قدرة السادات الخيالية واللا محدودة على الحلم ، وعلى الرغم من قدرة عبد الناصر الرائعة على استثارة الحماس وتوجيهه وعلى الرغم من إخلاص كمال الدين حسين وتفانيه فى تنفيذ كل مابدأه وعلى الرغم من تفانى زكريا لما يعمل وادائه المتواصل فى صمت ، إلا أن البغدادى يفوق هؤلاء الأربعة فى القدرة على تقديم شئ متميز ومتكامل بتكلفة أقل وفى وقت أسرع وبجودة أرفع . . .

ولكن هذا لا يمنعنا أن نقرر فى صراحة ووضوح صحة ما وصل إليه الكثيرون من أن عبد الناصر كان فى مرحلة مبكرة من رئاسته كثيرا مايصاب بالغيرة من قدرة البغدادى على الإنجاز .

□

ولا يخفى على أحد أن عبداللطيف البغدادى كان يحتل مرتبة سامقة بين زملائه جميعاً فى وجدان الجماهير ، فقد كان اسمه مرتبطاً بالإنجاز الحقيقى والسريع ، ومنذ أيام عبداللطيف

البغدادى لم يتكرر صنو له يستطيع أن ينفذ ما استطاعه البغدادى بهمة واقتدار وفى لمح البصر ، ولاشك أن إنجازاته ذاتها قد تعرضت للتضخيم الفولكلورى حتى وصلت إلى حدود لم يكن هو ليتصورها ، ولكن الجمهور معذور فى ذلك ، فإن هذا الجمهور لم يشهد فى حياته قبل البغدادى ولا بعده مَنْ قام بما قام به البغدادى فى فترات وجيزة ، وقد سمعت أنا شخصياً من بعض الناس أن البغدادى كان يمر على الطريق الترابى فى الصباح فيأمر بأن يرصف الطريق فى ذات اليوم ويعود ليمر عليه فى المساء وهو مرصوف . ومثل هذه الأقوال تعطينا فكرة عن مدى الإنجاز وسرعته وإن لم تكن حقيقية تماماً .

□

لا استطيع أن أمضى دون أن أذكر عنايته بالجانب الخلقى فى السياسة ، فقد كان على خلاف كثير من أقرانه مؤمنا بأن الاخلاق لابد وأن تحكم السياسية ، و أنه لايليق بالسياسة أن تتنازل عن الاخلاق وسوف نرى أن هذا الايمان كان وراء كثير من أزمات البغدادى مع زملائه جميعا .

□

مع كل تقديرى لدور البغدادى فى الجانب الحضارى وفى الشئون البلدية والقروية فانى أرى له دوراً أهم من ذلك وهو مشاركته الفاعلة برؤية متوازنة ومتميزة فى صياغه السياسات الحاكمة لتطورنا الاجتماعى الاقتصادى فى عهد الثورة حتى وإن لم يؤخذ برؤيته فى ظل الاندفاع إلى التحول الاشتراكى .

ويبدو لى أنه حينما يُؤرخ بعد فترة للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى للثورة ، فسوف نكتشف لعبد اللطيف البغدادى دوراً مقدوراً فى توجيه السياسات الحكومية إلى كثير مما صارت عليه ، فقد كانت لهذا الرجل رؤية واضحة ، وقدرة أوضح على نقل الأفكار الثورية والجديدة إلى عالم الواقع باقتدار شديد .

وقد نجح البغدادى فى هذا بحكم البعد الثقافى فى شخصيته الذى كان قادراً على أن يترجم مثاليات الأفكار إلى حقائق واقعة أيما كان الاطار الذى يتحرك فيه .

عبدالله عبدالبارى

نشأت الصحافة فى مصر ، وكانت الصحف تظهر وسرعان ما تختفى ولا تعود للظهور ، إلا فى النادر حين تتاح لها عبقرية قادرة على الإدارة وتوفير التمويل المستمر ، سواء فى هذا تمويل «المال» أو تمويل «القراء» ، وكانت هذه العبقرية مرتبطة دائما بالأفراد الأفذاذ : على يوسف ، وروزاليوسف ، ومصطفى وعلى أمين ، ومحمود أبوالفتح ، ولكننا اليوم نرى الروح المؤسسية وقد أصبحت تحتل المكان اللائق بها فى بنيان الصحافة المصرية ومؤسساتها الصحفية ، على الرغم من الهزات الشديدة التى تعرضت لها هذه المهنة والرسالة خلال نصف القرن الأخير .

وإلى فن الإدارة بفروعه المختلفة يرجع الفضل الأول فى هذا النجاح ، وثمة رجلان يرمزان إلى هذا الفن بما بذلاه وبما حققاه وبما وصلا إليه من مجد ، وهما أستاذ وتلميذه ، وقد يتيح الزمن

للتلميذ أن يتفوق على الأستاذ، وقد كان الأستاذ هو الدكتور سيد أبو النجا، وكان تلميذه عبدالله عبدالبارى عليه رحمة الله.

□

إلى عبد الله عبد البارى يرجع جزء كبير جدا من نجاح «مؤسسة الأهرام» فى دخول القرن الحادى والعشرين بشموخ وثبات، وعلى الرغم من أنه حين كتب مذكراته الشخصية بدأ حديثه عن إنجازاته منذ أسندت إليه رئاسة هذه المؤسسة العريقة، إلا أن حياته العريضة الممتدة فى «الأهرام» وقبلها كانت حافلة بنقاط أقوى وأروع بكثير من رئاسة الأهرام، ذلك أن ارتقائنا الدرجة الأخيرة من السلم حين نكون قد وصلنا إلى الدرجة قبل الأخيرة لا يمثل إنجازا على الإطلاق إذا ما قورن مثلا بتصميمنا على أن نشارك قلة قليلة مكافحة ومثابرة ومغامرة ومخاطرة ومستميتة فى إنجازها لبيت ضخم يكون عرقنا المتواصل ونحن نبذل الجهد فيه، بمثابة الأسمنت الذى جعل الأحجار المتناثرة تتماسك لتصنع بيتا كبيرا.

□

وهذا هو جوهر حياة عبد الله عبد البارى حين شارك بكل فعالية فى بناء مؤسسة الصحافة المصرية، وحين كان يبنى مع

أقرانه فاجأتهم الظروف القاسية لنقل موقع البناء مرة بعد أخرى، فإذا هم ينتقلون بكل خبرتهم ومحصلتهم فى البناء من بناء «المصرى» القلعة المصرية الأولى للصحافة المصرية إلى دعم «أخبار اليوم» المؤسسة الصحفية المصرية الناهضة ثم إلى تجديد وتطوير وبعث الروح فى «الأهرام» المؤسسة القديمة التى تمصرت تماما وتقدمت تماما . . ومن الطريف أن سيد أبو النجا وكثيرا من أقران عبد الله عبد البارى قد مروا بنفس المراحل، وإن اختلف التوقيت.

□

وحياة عبد الله عبد البارى كما رواها لنا فى مذكراته الشخصية نموذج بارز للكفاح المتواصل الذى خاضه أبناء جيله، ومع هذا فهو يعترف بأن ظروف جيله كانت أفضل بكثير من ظروف هذا الجيل، لأنه نشأ فى مجتمع كان يحترم العصاميين ويضعهم موضع التقديس والتقدير والاعتزاز، وكان المسئولون فيها يبحثون للناس عن طريق النجاح.

وهو يذكر لنا كيف أنفقت والدته أرضها قيراطا قيراطا حتى يتاح له التعليم، ثم كيف كان من المفترض أن يدرس الطب ولكنه فشل فى النجاح فى السنة الإعدادية من كلية العلوم، فانتقل إلى

كلية الآداب ، ويروى لنا وللتاريخ أن عميد كلية العلوم الدكتور مشرفة كان يتعمد استقبال الطلبة الراسبين الذين سيتركون كلية العلوم إلى كلية أخرى ليستطلع أوضاعهم ويشجعهم على بذل الجهد ، وكأنه يريد أن يجعلنا نرثى لحالنا حين يصعب على العميد اليوم أن يجد الوقت لحل مشكلة أحد الأساتذة لا الطلاب ، وقد كان عبد الله عبد البارى يشعر بالأسى البالغ للجيل الجديد الذى يتقدم للحياة العامة بسرعة شديدة من دون أن تتهيأ له الفرصة الكاملة للنمو الثقافى والرياضى والاجتماعى قبل أن يتخرج من الجامعة .

□

لا أريد أن أمضى مع الأفكار والدروس والتجارب الكثيرة التى ضمنها عبد الله عبد البارى مائة صفحة من مذكراته ، على الرغم من أن مثل هذه الأفكار هى أكبر تحية توجه إلى الرجل العظيم بعد رحيله عن دنيانا ، ولكن لابد لنا أن نشير إلى طبيعة الإنجاز فى حياة عبد الله عبد البارى .

فلى مستوى الإدارة الصحفية قد لا يعرف الكثيرون أن عبد الله عبد البارى هو صاحب الفضل الأول والأوفى على كل صحف المعارضة والصحافة المستقلة ، بفضل قدرته الإدارية الفذة

على التخطيط الممتاز، ووضع الحلول المثلى لمشكلة الصحافة الأولى وهى الصراع مع الزمان . فعندما كان رئيسا لمجلس إدارة مؤسسة مايو وجد أن أفضل سبيل يمكن الصحف من الاستقلال التام فى إنجاز المادة التحريرية فى الوقت المناسب لها من الناحية الصحفية، وبدون ضياع أسرارها أو سبقها الصحفى بسبب جمع المواد وتوضيبها فى مطابع الصحف الكبيرة القائمة، ولهذا فقد دبر فى مرحلة مبكرة (منذ ١٥ عاما) المال اللازم لشراء أحدث نظام للجمع التصويرى وتجهيزات الأوفست لمؤسسة مايو، بحيث أمكن للصحف الثلاث التى تصدر عن مؤسسة مايو أن تخرج من مقر المؤسسة إلى مطبعة الأهرام الصحفية فى صورة صفحات كاملة. . وهو الأسلوب الذى أنقذ كل صحف المعارضة فيما بعد، وجعل لها هذا الوجود الحى والمتزامن فى الحياة اليومية والصحفية، وبدون هذا الأسلوب الذى تمكن عبد البارى من إنجازه كانت الصحيفة التى تصدر يوم الخميس لا تستطيع حتى الإشارة ولو بسطر واحد إلى ما حدث وقع يوم الأربعاء، لأنه كان مطلوبا منها أن تسلم موادها كاملة فى موعد أقصاه يوم الثلاثاء.

□

وفيما بعد حدثت تطورات تكنولوجية فى أنظمة الجمع ودخلت أجهزة الحاسبات (الماكنتوش) إلى الميدان، ولكن النظام الإدارى الذى وضعه عبد الله عبد البارى ظل بمثابة الإطار الذى تحركت فيه الإنجازات بدون أن تجد الصحف الأسبوعية نفسها مضطرة إلى توفير استثمارات ضخمة لشراء مطابع صحفية عملاقة.

وعلى المستوى السياسى ضرب عبد الله عبد البارى مثلا رائعا فى مرحلة مبكرة للولاء الصادق الذى لا يتجزأ بين الأصدقاء والوطن، ويكفى أن نلخص قصته مع الاعتقال فى الستينات بأن سببها كان حرصه الدائم على اللقاء بأسرة أبى الفتح العظيمة حين كان يسافر للخارج، ثم كان يحرص على ألا يخفى أنباء هذا اللقاء، وحين هرب زغول السيد إلى بيروت، كان اسمه على قوائم المقرر القبض عليهم، وكان فى أمريكا، وكان فى وسعه أن يقبل وظيفة فى «ريدرز دايجست» حيث كان يتولى إنجاز بعض الأعمال لمؤسسته «أخبار اليوم» هناك، ولكنه بذكاء الإدارى الناجح فضل أن يعود وهو يعلم أنه سيقبض عليه، لأنه ببصيرة الناجحين كان يعرف أن مكانه الحقيقى فى وطنه العظيم حتى ولو قُبض عليه لبعض الوقت ولاقى بعض العنت والظلم، وهو ما

حدث بالفعل .

□

وعلى مستوى العلاقات الإنسانية كان عبد الله عبد البارى يجيد تقدير المواقف ، وفى مذكرات أحمد بهاء الدين أنه (أى عبد الله) قال له إنه يستبعد تماما أن يوافق أنور السادات على تعيينه رئيسا لمجلس إدارة الأهرام لسبب لايعرفه الناس ، فقد كانت بينهما علاقة نسب انتهت بالطلاق . . ولكن بصيرة السادات أفادت مصر ببصيرة عبد الله عبد البارى . . وقد كنت على الدوام من أشد المعجبين بالكلمات القصيرة التى يكتبها عبد الله عبد البارى فى رثاء أصدقائه وزملائه .

وعلى مستوى الإدارة البشرية وضع عبد الله عبد البارى نماذج عملية وإنسانية واقتصادية ناجحة لرعاية العاملين فى المؤسسات الصحفية ، ويكفى أن نذكر صناديق الزمالة والعاملين . . إلخ .

□

وعلى مستوى الوظيفة ، لابد أن أذكر واقعتين ، الواقعة الثانية أن عبد الله عبد البارى وهو رئيس لمجلس الإدارة لم يستنكف أن يتقدم إلى نقيب الصحفيين صلاح جلال لكى يُقيد صحفيا تحت

التمرين فى النقابة ليكون بعد عام عضوا فى النقابة العريقة . . أما الواقعة الأولى فهى أن عبد الله عبد البارى بدأ حياته الوظيفية فى المصرى مشاركا أيضا فى التحرير الصحفى، وكان يعيد الصياغات ويحرر ملحقا للمحافظات (قبلى وبحرى) مع زميله فى الصحيفة الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف فيما بعد.

وعلى مستوى اللغة، أذكر أننا جلسنا على منصة احتفال أفريقى للشباب والبيئة استضافته مؤسسة الأهرام العريقة منذ خمس عشرة سنة، وألقى كلمة المؤسسة بعدما تحدثت باسم الشباب، ففوجئت بقدرات خطابية ولغوية وبيانية عالية، وكنت لا أزال فى السن التى تتمتع بطيش الشباب فقلت له : إننى كنت أظن نفسى الوحيد الذى سيستطيع الحديث الجيد بلغة سليمة ولكنه ضيع علىّ فرحتى بنفسى، . . ولشد ما كانت دهشتى حين أجابنى هذا الرجل الكبير الخطير ببساطة شديدة: إنه يعانى من نفس الشعور! نعم فقد ظل هذا الرجل شابا بحيويته وروحه ونشاطه وبصيرته وقدرته على الحلم.

نشرت تحت عنوان: «عبدالله عبدالبارى . . واحد من رجال عصر الليبرالية الذين نهضوا بعصر الثورة».

[الوفد: ٨ مارس ١٩٩٦]

عثمان سرور

فقدت مصر واحدا من أبرز أطبائها العلماء، الذين وهبوا حياتهم للعلوم الطبية فى مدرجات الجامعة ومستشفياتها وخارجها، والذين لم ينقطعوا أبدا عن ممارسة الطب وعلومه وبحوثه وتعليمه، والذين انصرفوا بكل ما أوتوا من قدرات ومواهب وملكات إلى الجهد المثمر فى الرقى بالمهنة والعلم والممارسة.

رحل الأستاذ الدكتور عثمان حسن سرور، الجراح المصرى العظيم الذى شق لنفسه - ولأبناء وطنه من بعده - طريقا لم يكن للطب المصرى عهد به، وهو تخصص جراحة الأعصاب، واستطاع فى أعوام معدودة أن ينمو بالقسم الوليد حتى أصبح من أبرز أقسام كلية طب القاهرة ومستشفى قصر العينى، ومن أكثرها تأثيرا وسمعة بين الأقسام الطبية المتخصصة والمتقدمة فى

المنطقة كلها .

□

تخرج - عليه رحمة الله - فى قصر العينى عام ١٩٤٢ (عن واحد وعشرين عاما)، وطيلة ٤٥ عاما لم ينقطع الدكتور عثمان سرور عن ممارسة الطب وتعليمه والبحث فيه .

كان نموذجا فذا للعالم المتمكن من علمه ، وللجراح الحريص كل الحرص على النجاح والتجويد ، وقبل هذا على راحة ضميره . . وفى هذه النقطة بالذات كان عثمان سرور كما يعتقد تلاميذه فى تخصصه أكثرهم جميعا تحفظا ، يعنون أنه كان أكثر الجراحين تعقلا قبل الانطلاق إلى استكشاف ما غمض من حقيقة المرض . . كان من الذين يرتبون خطواتهم ، ومع هذا كله فقد كان رائدا من الرواد الذين يقتحمون الآفاق البعيدة ، والمشكلات الصعبة ، بروح لا تعرف إلا النجاح ، ولا تطلب إلا النجاح . . وكانت عنده قدرة كبيرة على الجمع بين الريادة الجسورة . . والتحفظ التقليدى . . وكانت عظمته الحقيقية فى القدرة على النجاح فى المفاضلة بين الأسلوبين تبعا للظروف المحيطة بالحالة (أو المشكلة) التى يعالجها .

وإلى عثمان سرور يرجع الفضل فى وجود كثير من مؤسساتنا العلمية المرتبطة بقصر العينى، والتى تكررت بعد ذلك فى كليات الطب المختلفة، وكان عثمان سرور يبذل جهده ووقته فى هذه الأعمال المهمة بلا ضوضاء.. ومع هذا فقد عرف الجيل الذى شهد هذه الأعمال وهى تخرج إلى الوجود فضل عثمان سرور، وعرفت الأجيال التالية كذلك فضل رجل آثر العمل الهادئ المثمر على كل المناصب، وآثر العلم على الإرادة، والفن على السياسة، والمستقبل على الحاضر، والخلود على الضجيج، وحب الناس على حب الذات، والبحث عن المصلحة على البحث عن المنفعة.

□

إلى عثمان سرور يرجع الفضل فى المشاركة فى تأسيس الجمعية المصرية لجراحى الأعصاب (عام ١٩٦٨)، والجمعية الإكلينيكية لقصر العينى، ومجلة علمية من أعظم مجلاتنا العلمية (وإن كانت قد توقفت) وهى مجلة قصر العينى الجراحية، وجمعية جراحى الأعصاب للشرق الأوسط (عام ١٩٥٩)، والاتحاد الأفريقى لعلوم الجهاز العصبى (عام ١٩٧٢).

وحظى النشاط الطلابى كذلك برعايته وتوجيهه فتأسست الجمعية العلمية لطلاب قصر العينى والتى كانت نواة كل الأنشطة الطلابية التى ابتعدت - جزئيا - عن الرحلات الاجتماعية التقليدية وعن السياسة واتجهت جزئياً إلى العلم أو ما حول العلم .

واهتم عثمان سرور بالنشاط الاجتماعى الهادف ، وكان حريصا دوما على توفير المناخ الاجتماعى الذى يوفر لأعضاء هيئة التدريس الارتباط الوثيق بالمستشفى ، وهو لهذا صاحب فكرة كافتيريا خاصة بأعضاء هيئة التدريس فى قصر العينى ، والمنفذ الحقيقى لها .

□

كما بذل عثمان سرور جهدا واضحا فى الجمعية الطبية المصرية ، وفى المجلة الطبية لجامعة القاهرة . . وقبل وفاته بأسبوع كتب الدكتور عثمان سرور المقال الافتتاحى للمجلة الطبية المصرية الجديدة (التى فجعت بوفاته بأزمة قلبية) فى ملزمة كاملة عن «إصابات الرأس» ، وهو الموضوع الذى كانت كتابات عثمان سرور فيه بمثابة مرجع عالمى . . ولا ننسى أن عثمان سرور كان الرئيس الفخرى مدى الحياة للاتحاد الدولى لجمعيات جراحة

الأعصاب . . وهى مكانة لم يصل إليها كثيرون جدا من علمائنا الأفذاذ .

وقد كتب الدكتور عثمان سرور فى مقدمة مقاله الذى شرفنا بنشره : «إن اللغة العربية لغة حية قادرة على التعبير أكثر من كل لغات العالم ، وحبذا لو استطعنا أن نستعملها فى تعليم كل العلوم ، فلاشك أننا أقدر على فهمها من استعمال اللغة الإنجليزية . . إن الغرض الوحيد من التمسك بتعليم الطب باللغة الإنجليزية هو إبقاء نافذة الاستزادة من العلم مفتوحة على العالم» .

. . . وربما كان عثمان سرور يتمنى للأجيال التالية أن يصلوا إلى ما وصل إليه ، فقد كان عضوا فى الأكاديمية الأوروبية الآسيوية لجراحة الأعصاب ، وفى الجمعية الأمريكية لجراحة الأعصاب ، وجمعية الكونجرس لجراحة الأعصاب ، وكان عضوا فى مجلس تحرير أشهر مجلتين أمريكيتين لجراحة الأعصاب .

□

وخارج نطاق كليته كان عثمان سرور صاحب فضل كبير فى إنشاء مستشفى السلام الدولى ، وفى التطويرات التى أصابت

مستشفى العجوزة . . هذا فضلا عن معاونته البارزة فى إنشاء أقسام جراحة الأعصاب بكليات الطب فى الزقازيق، وأسيوط، والإسماعيلية .

وخارج نطاق الطب أتيح لى أن أعرف الراحل العظيم (منذ عشر سنوات) عضوا بارزا فى جماعة الرواد التى تأسست منذ ما قبل الثورة . . وفى الروتارى الذى تولى منصب محافظ المنطقة فيها أكثر من مرة . . وكان تقريبا أشهر روتارى مصرى بفضل نشاطه الدائب حين تسند إليه مقاليد الرئاسة وحين لا يكون إلا رئيسا سابقا .

وقد أتاحت لى جريدة الأهرام شرف الكتابة عن الرجل العظيم غداة رحيله، ولكن حق عالمنا الجليل على هذه المجلة يقتضينى أن أشير إلى كثير من خلفه وفضله لما لم يتسع له حيز الأهرام . . مع يقينى أن الحديث عن عثمان سرور يحتاج إلى مجلدات .

□

أتيح لى أن أتصل بالفقيد الكريم أول الأمر فى «جماعة الرواد»، حيث كنا نلتقى فى اجتماع أسبوعى يوم الجمعة فى

شاليه الجماعة القائم فى صحارى سيتى، ولم أكن مندهشاً من هذا التدقيق الشديد الذى بذله عثمان سرور يومها فى فحص ومتابعة وتسجيل كل ما يتعلق بصيانة وتجديد مستلزمات المعيشة، بدءاً من الصالون وحتى المطبخ، وصنابير المياه فى «شاليه الرواد»، لم أكن مندهشاً لأنى كنت أسمع من قبل عن تمكن هذا الخلق من هذا الرجل. . ولكنى كنت - مع شبابى يومها - أعجب من جهد قد لا تكون له نتيجة فى الغالب مع نقص الاعتمادات المالية المتاحة أمام الجماعة يومها. . ثم مع الاحتمال الذى كان قائماً ونفذ بالفعل بعدها بهدم هذه الشاليهات كلها. . رغم أن شاليه الرواد كان موجوداً بالقانون منذ الأربعينات!! ولم يكن ما فى بالى من انعدام الرجاء غائباً بالطبع عن عثمان سرور. . ولكن هذه الواقعة علمتنى أن الرجل العظيم يحرص على الإتقان حتى مع انعدام الرجاء!!

وربما أتيح لى أن أفهم بعد ذلك من هذا الخُلق سراً من أسرار الريادة الحقيقية التى كان عثمان سرور نموذجاً لها. . بل ربما كان هو آخر نماذج الريادة فى أعلام الطب المصرى الحديث. . وربما كان عثمان سرور لهذا معدوداً فى آخر السلسلة التى صاغت تخصصات الطب الوطنى المعاصر، لأنه أصغرهم جميعاً سناً. .

ثم كان وجوده مع زملائه ومعاصريه وأقرانه فى السن شيئاً آخر . . فقد كان بينهم جميعاً واحداً من الرواد حتى ولو كان أستاذاً قديماً .

□

فى كل حياته وإنجازاته كان عثمان سرور رمزاً لجيل من العلماء العاملين الذين كان من حظ من معه أن يوجدوا فيها . . والذين لم يكن من حظ من معه أيضا أن يتكرروا .

غفر الله له وألهمنا الصبر والسلوان . .

يجمع هذا الفصل بين محتويات مقالين نشرا فى رثاء الدكتور عثمان سرور :
الأول تحت عنوان : «عثمان سرور . . ٤٥ عاما من العطاء» .
[الأهرام : ٢٦ أكتوبر ١٩٨٧]
الثانى تحت عنوان : «الأستاذ الدكتور عثمان سرور» .
[المجلة الطبية المصرية الجديدة : نوفمبر ١٩٨٧] .

على شلش

فجعت وفجع معى كثيرون جداً من الأدباء والنقاد والقراء بالوفاة المفاجئة للدكتور على شلش عليه رحمة الله ، حين كنا نؤمل على يديه الخير الكثير للدراسات الأدبية والنقدية ، بحكم قدرته الرائعة على دراسة الأدب دراسة عميقة ومستفيضة ، وبحكم قدرته الأروع على النفاذ إلى جوهر الأعمال الأدبية ووضعها فى مكانها الصحيح فى سياق تراث الانسانية جمعاء بفضل ما تميز به من دراسة عميقة فى بلاده وخارجها فى لغته العربية وغيرها من اللغات .

□

كان الدكتور على شلش مهيئاً ليكون خلال سنوات قلائل فى مكانة أكبر ناقد عربى ، وكان يسعى بكل ما أوتى من قدرة

واجتهاد إلى تزويد نفسه بما يؤهله لهذه المكانة من دون أن يظهر ذلك فى تصرفاته . . وكان بلا شك واحداً من ثلاثة أو أربعة من دارسينا المعاصرين لا يتناولون القلم ليكتبوا دراسة إلا بعد أن يستوعبوا البيليوجرافيا المتاحة .

ومن ناحية أخرى أعطاه هذا الخُلق القدرة على أن يكون من ناحية أخرى واحدا أيضاً من ثلاثة أو أربعة (آخرين) ـ على أكثر تقدير ـ يستطيعون تقديم «الأعمال الكاملة» فى أعظم صورها .

□

وبلغت العظمة بعلى شلش الحد الذى جعله يتفرغ طيلة السنوات الأخيرة للسفر من لندن (حيث يقيم) إلى باريس وضواحيها ، ليجمع ويوثق ويرتب ويفهرس وينظم أعمال الأفغانى ومحمد عبده التى نشرت باللغة الفرنسية فى صحف فرنسا فى القرن الماضى .

وقد شرفنى فقصَّ علىَّ تفاصيل جهده فى هذا الصدد ، وكان يستطلع رأيى فيمن يقوم بنشر هذه الأعمال خلال لقاء ممتع منذ

شهور معدودة ، وأدعو الله أن يكون قد وفق فى هذا الشأن .

□

كان على شلش متواضعاً إلى أبعد الحدود ومع هذا كان يعرف قدر نفسه أيضاً، وكان كريما على نفسه من ناحيتين أنه اعتز بها ، وأنه لم يعذبها أبداً ، ولم يدفعها إلى المعاناة، ولعل الله وهو العليم الخبير أراد أن يزيد من إكرامه فى هذه الناحية ، فكانت وفاته واقفاً شامخاً على هذا النحو الذى يليق بجهده وبحياته المثمرة فى كل آن .

أتيحت للدكتور على شلش فرصة اختياره عضواً فى هيئة التدريس بالجامعة على درجة أستاذ مباشرة، وهى فرصة قد تبدو نادرة المنال ، ولكنه بروح الباحث النهم والكاتب المستنير أبى على نفسه أن يدخل قفصاً حتى ولو كان من ذهب.

□

شارك على شلش فى السنوات الأخيرة فى الإشراف على سلسلة رائعة لنقاد الأدب أصدرتها الهيئة العامة للكتاب،

فأضاف إلى المكتبة العربية مجموعة من الكتب كانت ولا تزال تفتقد المزيد منها . . وكنت أشبه له موقف المثقفين من النقاد بموقف الجمهور من أطباء التخدير، يتعلقون بهم قبل العملية الجراحية، فإذا ما كتب لهم الشفاء شكروا الجراحين ونسوا أطباء التخدير (أو النقاد) . . وكان عليه رحمة الله يوافقنى بابتسامته الهادئة التى لم تكن تتسع كثيراً .

□

وكان على شلش كذلك واحداً من الأساتذة الأفاضل الذين يشاركون فى تحرير العمل العظيم الذى تبذل «دار الشروق» جهد رائدها فى إصداره، وهو «موسوعة الشروق» وكان من حظى أن أقرأ كل ما كتب للموسوعة فإذا بى أزداداً علماً وعمقاً على يديه، وإذا به يزداد تألقاً يوما بعد يوم حتى فى تلك النبذات الموسوعية القصيرة .

□

من قبل هذا نشر الدكتور على شلش كتابه الرائع عن المجلات

الأدبية فى مصر (١٩٣٩ - ١٩٥٢)، فاضطررت أن أعيد كتابة الفصل الأول من دراستى عن مجلة الثقافة لأطعم هذا الفصل بكتابات وآراء على شلش، وأنا مدين له بهذا إلى يوم الدين.

ومن قبل كل ذلك كتب على شلش مرجعاً وسيطاً رائعاً فى الأدب الأفريقى لا يزال يمثل ذخيرة من الفهم والاستقراء والتحليل، والحكم الصادق على الأمور، والامتداد إلى الآفاق الصعبة من باب الريادة الحقيقية .

□

كان - رحمه الله - نموذجاً لا يتكرر كثيراً ، كانت متطلباته من الحياة أدنى إلى متطلبات الزهاد المتصوفين ، وكان عطاؤه أدنى إلى عطاء الزعماء المخلصين أو الجنود المجهولين .

وقد رزقه الله حياة زوجية هادئة مع زوجة أمريكية تقدر الفن الرفيع وتمارسه، وكان والدها من أساتذة جراحة الأعصاب الأمريكيين البارزين، وكان على شلش فى وسط أصهاره نموذجا للمثقف المصرى الرائع المشرف لبلاده . . قدم أدب بلاده على

خير ما يكون التقديم فى إذاعة لندن وغيرها . . وقدم أيضاً لأدب بلاده أياد كثيرة سيظل أدبنا ونقدنا يذكرها إلى أبد الآبدين. عليه رحمة الله ورضوانه.

على مصطفى مشرفة

حين انتقلت روح مشرفة إلى الرفيق الأعلى صباح السادس عشر من يناير منذ ثلاثين عاما ، لم يكن رصيده فى البنك يتعدى مائتين أو ثلاثمائة من الجنيهات . لكن رصيد مشرفة عند ربه وعند شعبه وفى علمه كان أكبر من أن يقاس بالمقاييس الدنيا .

فقد ترك مشرفة كلية العلوم الأولى فى مصر ، وقد أصبحت من كليات العلوم الأولى على المستوى الدولى بفضل الجهود المخلصة التى بذلها صاحبنا طيلة أربعة عشر عاماً قضتها الكلية تحت عمادته ، ابتداء من مايو ١٩٣٦ حين آل أمر العمادة فى كلية العلوم إلى أبناء الوطن ، فتولى أمرها مشرفة عميد العلماء المصريين وأولهم وأوسعهم شعرة وأبعدهم صيتاً ، فأضاف العمادة إلى سلسلة طويلة من الدرجات والمراكز العلمية التى أتيح له أن يكون الأول فى السباق إليها والحصول عليها .

فقد كان مشرفة ـ رحمه الله ـ أول أستاذ مصرى فى كلية العلوم وهو لا يزال فى السابعة والعشرين من عمره القصير.

وفى كلية العلوم استطاع مشرفة أن يقدم لمصر حشداً من أكفأ أبنائها العاملين عن علم والعاملين بالعلم. والله يشهد أن كلية العلوم لم تخرج فى عهد الرجل العظيم إلا الجوهرة تلو الجوهرة، ولم يكن غريباً على هذه الكلية إذن ما تمتعت به من سمعة طيبة على جميع المستويات.

□

على أن لمشرفة بالإضافة إلى هذا كله فضله فى تمصير العلم، وقد نجح مشرفة فى ذلك نجاحاً لم يستطع أحد من اللاحقين مجاراته فيه، ولعل السر فى هذا أن مشرفة سلك إلى هدفه الطريق القديم حين أيقن أن السبيل الأول إلى ذلك هو تعليم العلم فى المرحلة الجامعية باللغة القومية، ثم أدرك أن هذه هى مهمة الأستاذ الجامعى قبل أن تكون مهمة الدولة أو الطالب أو المجامع اللغوية والعلمية. ومن ثم فإن على الأستاذ أن يتقن بنفسه العلم فى لغته، وهذا هو ما فعله مشرفة فى علم الرياضة التطبيقية التى تسنم فيها الذروة.

وهكذا بدأ مشرفة تدريس الرياضة التطبيقية فى كلية العلوم باللغة العربية حين كانت العلوم الأخرى تدرس جميعها بلغات الأساتذة الأجانب، ثم شارك مشرفة إخوانه من أساتذة الرياضة الكبار فى كلية الهندسة ووزارة المعارف فى وضع الكتب والمراجع فى فروع الرياضة المختلفة. وقد صارت هذه الكتب منذ ذلك الحين بمثابة مراجع قومية ينقل عنها الأستاذ المصرى والطالب العربى حتى يومنا هذا، وعنها أخذت كل كتبنا التى ألفت فى هذه الفروع الرئيسية من العلم.

وهكذا أسهم مشرفة فى هذا المجال بأروع الجهد الذى لم يزل أثره باقيا إلى اليوم حين نجد علوم الرياضة هى العلوم الأولى بل والأخيرة التى تدرس فى جامعاتنا القومية بلغتنا القومية.

□

وقد نأى مشرفة بنفسه عن لعبة السياسة منذ البداية، فقد كان جد مقتنع بأن هذا الذى يخوض فيه الساسة المصريون ليس بالسبيل الأمثل إلى تحرير البلاد والنهوض بها، وإنما يأتى النهوض عن طريق العلم والعمل به والعمل لأجله، وهكذا كان صاحبنا صادقاً فى توجيه كل جهده إلى تحقيق المجد فيما جد فيه.

وكانت ثقافة مشرفة مثالاً رفيعاً فى تعدد مناهلها وتكامل حلقاتها. فقد كان الرجل بالإضافة إلى علمه الغزير كاتباً موفقاً، وخطيباً مفوهاً، وعالماً باللغة والأدب إلى الحد الذى جعله بلا مبالغة يناظر عميد الآداب الدكتور أحمد أمين، وعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين، والأستاذ عباس العقاد.

وكانت ثقافة مشرفة التى وسعت كثيراً من العلوم والمعارف رياضية الأصل رياضية الطباع يسيطر عليها النظام الدقيق لا النظام الشكلى وينتظمها المنطق السوى لا المنطق المرتب.

نشرت تحت عنوان: «الخالدون: الدكتور مشرفة فى ذكراه» بمناسبة ذكراه الثلاثين.

[الأهرام: يناير ١٩٨٠]

هذا المقال لايغنى بالطبع عن كتاب المؤلف «مشرفة بين الذرة والذروة»

[الهيئة العامة للكتاب: ١٩٨٠]

علي محمود البطراوى

سيداتى سادتى

أكاد أجزم أنه يجمعنا فى هذه اللحظات شعور واحد، ربما لا نستطيع جميعاً التعبير عنه، من فرط تأثير هذا الشعور على نفوسنا، وربما لا نستطيع جميعاً إلا الإقرار بتشخيص واحد له، ففى حياة كل منا لحظات لا يتمنى المرء أن تكون من عمره، ومواقف يود المرء لو لم تمر به، وأحداث يود لو لم يشهدها، ومن لطف العلى القدير وحكمته أن هذه اللحظات لا تتكرر كثيراً فى حياة عباده، ربما يكون تكرار الواحد منها لأكثر من مرة كفيلاً بذهاب النفس أو بعضها عن صاحبها حين يفتقد فى فقيده بعض نفسه، البعض الذى يعطيه. وفى حالتنا هذه يعطينا جميعاً الصفاء والنقاء، الذكاء والوفاء، الأمل والمثل، السماحة والرجاحة، الشمائل والفضائل، من دون أن يأخذ منا شيئاً اللهم

إلا دعاء نثاب عليه، أو ثناء نفخر بأننا نرتقى إلى مرتبة أصحابه من الذين يكون من حقهم بل من حظهم أن يثنوا على أصحاب العظمة الحقيقية، وتأبيناً يكون فرصة لاجتماع القلوب التى قد يصعب أن تجتمع فيعطينا ـ رحمه الله ـ جميعاً الأمل حتى وهو غائب عنا، ويرينا القدوة حتى بعد أن غاب عنا.

□

نعم أيها السادة فهذه هى سنة ذى الجلال والإكرام فى خلقه من ذوى الحضور الذين يكون من الصعب على من عرفوهم أن يفتقدوهم بين لحظة وأخرى، فتأبى رحمته سبحانه وتعالى إلا أن يسترد وديعته على نحو ينبئ بقرب اللحظة التى لا يعلمها إلا هو، ومع هذا كله تأبى عقولنا أن تتقبل ما أدركته الحواس من افتقاد من كان ملء السمع والبصر. . ويدرك السمع ويدرك البصر أنهما يفتقدان ولكن العقل يأبى. . وهو ـ أى العقل ـ يعتذر لنفس صاحبه عن هذا التناقض الظاهر بأن يذكر أن السمع والبصر نفسيهما قد تشبعا وشبعا من هذا من قبل بهذا الوجود الذى كان، والحضور الذى لم ينقطع. . وأظنكم أيها السادة الآن وقد عادت بكم رؤاكم إلى هذا المحيا الجميل، والابتسامة الرقيقة، والضحكة الصافية، واليد الحانية، والنظرة النافذة.

أظنكم تمتدون ببصركم لتبحثوا عن القلب العطوف، والصدر الرحب، والأفق الواسع، واللسان العف، والجاه العريض، والرأى الصائب، والفهم الدقيق.

أظنكم تودون لو عادت بكم الأيام لتستزيدوا من الخبرة الخيرة، والحب الصادق، والحكم الراجح، والعزم القوى، والحزم الواثق، و الذوق السليم.

أظنكم تترحمون معى على الطلعة المهيبة، والعاطفة الصادقة، والكلمة المسموعة، والسريرة النقية، والسيرة العطرة، والرائحة الذكية، والحكمة الصادقة

□

سيداتى سادتى

من الناس من نعجب بهم للوهلة الأولى ثم يتلاشى إعجابنا بهم شيئاً فشيئاً، ومن الناس من ينجح فى أن يحفظ على نفسه قدر احترام الآخرين له حتى بعد أن يعاشروه عن كثب، ومن الناس من نعجب بهم ثم هم يدفعوننا إلى الإبقاء على تقديرنا لهم، وفوق كل هذه الطبقات صفوة من البشر يتناقص أفرادها مع طغيان المادة، والآلة، ويندرون مع اقترابنا من يوم القيامة

لعلى لا أكون مبالغاً إذا قلت إن فقيدنا كان المثل الأوضح لهذه الطبقة، ولهؤلاء الذين نعجب بهم من اللحظات الأولى، ثم يزداد تقديرنا وحبنا لهم كلما تعمقنا فى تعاملنا معهم.. فلا يتكشف لنا الطلاء الفضى الجميل إلا عن معدن من الذهب الثمين، ولا يتكشف لنا المعدن الذهب إلا عن قلب من الماس النفيس، ولا ينفرج لنا القلب الماسى إلا عن مشكاة من نور يوقد من شجرة مباركة.

□

سيداتى سادتى

نشأ فقيدنا العظيم فى بيت من بيوت العلم والفضل، فقد كان والده واحداً من المعلمين القلائل والأفذاذ الذين تولوا تعليم جيل أساتذة الأساتذة فى مدرستين من أبرز المدارس العليا حين لم تكن هناك جامعة بعد، فعلى يديه فى مدرسة المعلمين العليا تلقى العلم الرواد الأوائل الذين تخرجوا ثم ابتعثوا ثم عادوا ليؤسسوا الجامعة المصرية وكل ما حولها من مؤسسات العلم والبحث والتعليم، ثم على يديه فى دار العلوم تلقى العلم رواد آخرون من رواد اللغة والأدب.

وسوف أقتطف لكم فقرتين هامتين لاثنين من أبرز رجال العصر يتحدثان فيهما عن والد الفقيد وعن شقيقه وكأنهما يتحدثان عن فقيدنا.

الفقرة الأولى لأستاذنا الجليل الدكتور مهدى علام نائب رئيس مجمع الخالدين، وهو يستقبل عالم الأجناس، وأستاذ التشريح المصرى الكبير الدكتور أحمد البطراوى فيقول:

«ولست أشك فى أن البيئة الثقافية الرفيعة التى نشأ فيها.. كانت ذات أثر بالغ فى حبه للغة وحساسيته الأدبية التى لازمته فى حياته أستاذاً ومؤلفاً ومترجماً.. فقد حضر مجالس والده مع زملائه وأصدقائه من علماء اللغة والأدب، ووجد أمامه مكتبة غنية بأمهات الكتب فصاحبها وأحبها منذ كان فتى يافعاً».

والفقرة الثانية للمؤرخ المصرى الكبير الأستاذ محمد رفعت وزير المعارف الأسبق وهو يقف موقفى اليوم من شقيق الفقيد فيقول:

«ومما زاد فى أسفى أنه أكبر أبناء أستاذى فى اللغة العربية فى مدرسة المعلمين العليا، فقد كان - رحمه الله - متبحراً فى اللغة، عميق المعرفة.. ومثلاً يحتذى فى مكارم الأخلاق، والذوق

السليم، وقد ورث فقيدنا عنه تلك المناقب، وأضاف إليها التفانى واحتمال الآلام المبرحة فى صبر وتضحية خدمة للعلم والوطن والأدب.

□

ثم إن فقيدنا الكريم، وقد فقد أباه الكبير قبل أن يبلغ العشرين من عمره، قد رزق من الآباء والأصدقاء عدداً من أبرز رجالات مصر، ربما كان أولهم الإمام الأكبر الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجامع الأزهر، وربما كان أقربهم إليه نسباً الأستاذ الدكتور عبدالعزيز السيد.. وربما ضمت النخبة من هؤلاء رجال الجامعة والعلم والإدارة والقضاء.

درس فقيدنا الكريم فى أرفع المدارس القاهرية شأناً حتى نال شهادة الحقوق من جامعة فؤاد الأول عام خمسين فى الدفعة التى ضمت معه الوزيرين محمد حامد محمود، وأحمد كمال أبو المجد، وعبدالفتاح حسن نائب رئيس جامعة المنصورة، وعبدالودود يحيى نائب رئيس جامعة القاهرة، وكاتبنا الكبير ثروت أباظة، وعمل فقيدنا فى بداية حياته بعضاً من الوقت فى الإدارات القانونية للحكومة فى مصلحة السكة الحديد، فلم

يأنس من نفسه الراحة بمثل هذا المنصب ، فإذا هو يتحول إلى العمل فى نواة القضاء العمالى الذى لم ينشأ حتى الآن .

وعمل - رحمه الله - فى مكاتب العمل فى المنصورة والإسكندرية فى الفترة التى شهدت تحول هذا الوطن فى تقديره لقيمة العمال فى كيانه ، وتحول مصير القضية الوطنية بفضل كفاح العمال الفدائيين فى القناة ، ثم تحول تاريخ هذا الوطن كله مع صياغة حركة الضباط التى لقيت القبول فى عام ١٩٥٢ لثورة سميت فيما بعد ثورة ١٩٥٢ .

ثم سنحت للفقيد الفرصة للعمل فى الجهاز التنفيذى للجامعة ، ولم تكن الجامعة يومها هى المثابة التى يلجأ إليها ذوو الشأن من أمثاله ، ولكنه ربما كان مدفوعاً إلى هذا بما خلق له ، فكل ميسر لما خلق له ، وربما لم يكن يدرى ساعتها أنه سيكون لمدة السنوات العشر الأخيرة من حياته النجم الساطع فى سماء السلك الإدارى فى الجامعات المصرى كلها ، بل ربما لم يكن الرجل المتواضع الكريم على نفسه يحب لها أن تتصور هذا التصور ، مع أنه كان بالفعل أقدم أمناء الجامعات ، وأرفعهم قدراً ومكانة طيلة السنوات العشر الماضية وبلا منازع .

وقد عمل ـ رحمه الله ـ أول عهده فى السودان، الذى ارتبط به وبزعمائه وعلمائه وبأبنائه وبالجالية المصرية فيه إلى أبعد حدود الارتباط، عمل مديراً لمكتب مدير فرع الجامعة، ثم مراقباً للفرع، فمراقباً عاماً، وكان هنا كما رأيتموه أو سمعتم ممن رأوه هنا الرجل الأول عن كفاءة وثقة واقتدار وتواضع قبل كل هذا.

□

وإلى على البطراوى يرجع كثير من الفضل فى صياغة الحياة الجامعية المصرية خارج حدود مصر، وربما لم يكن له حظ الذين عملوا فى بيروت العربية، لكنه ربما عوض عن هذا كثيرا بثواب الذين عملوا فى الخرطوم وفى المناطق الحارة بكل ما تعنى هذه الكلمة وتحمل من دلالات وكيانات.

ثم اختير فقيدنا ليعمل مستشاراً ثقافياً لبلاده فى موريتانيا ومديراً للمركز الثقافى فى نواكشوط، فأتيحت له آفاق أخرى من العمل الأفريقى والثقافى والتعامل الرسمى والدبلوماسى، زادت بلاشك من قدرته ومن قدراته، وزادت بالطبع من رصيده فى خدمة وطنه وبلده ولسانه العربى، ومساندة حركة التعريب والاستقلال، وتأكيد الهوية فى موريتانيا الشقيقة.

ومع عودته كانت هناك جامعة ناشئة تنتظر رجلاً تأتلف حوله قلوب لم يكن من الممكن أن تأتلف إلا حوله، وموارد وطموحات لم يكن من الممكن أن تتلاقى على طريق التنمية إلا على أيدى أمثاله . . وكان هناك على رأس هذه الجامعة رجل أوتى من الحكمة أقداراً كبيرة ليس آخرها معرفة قيمة الرجال، وكان هذا الرجل بعد أن أقنع فقيدنا بالعمل فى الزقازيق يغرى الأساتذة الكبار بالانضمام إلى الجامعة الناشئة التى فيها على البطراوى الذى ذاع صيته بينهم جميعاً.

وقد جاء فقيدنا إلى هذا البلد وعاش فترة ليست من القليل فى شظف من العيش حين كانت البلاد كلها قد بدأت تعرف طريقها إلى تنعيم الحياة، لكنه كان يؤسس، وأتيحت له الفرصة ليصمم نظاماً إدارياً يخلو من التعقيد، وينبنى على الثقة، ويتيح الفرصة للصغير، والكبير، ويحمى حقوق العاملين المؤسسين للجامعة من نوائب البيروقراطيات وأهواء السياسات، نظام يقدر قيمة الوقت، ويضرب عرض الحائط بالتسلسل المقيت الذى خلقه تصورنا المريض للإجراءات وضرورتها، وأصبح الناس فى الجامعات كلها يتسامعون عن المرتبات التى تصرف قبل موعدها بأسبوع، والشهادات التى تستخرج بمجرد إعلان النتيجة للدفعة

كلها من دون أن يتقدم كل واحد لملء ورقة فيها من الكلام أضعاف ما فى الشهادة نفسها، وهو الوضع الذى لا يزال قائماً حتى الآن فى الجامعات الأخرى.

وعرف الناس أنه من الممكن أن يُتداول الرأى بين الرءوس المسئولة على ذات الورقة التى قدمها الطالب.. وأنه من الممكن أن ينظر الأمين العام فى طلب غير متموغ، وأنه من الممكن أن تحل المشكلة فى وقتها، وأن الرجل العظيم يقف لكل من جاء ويرعى مصلحة من جاء ولا يرد سائلاً مهما كان.. وكان ـ رحمه الله ـ ينفق من ماله الخاص فيعوضه الله، وكان يجد لكل مشكلة حلا، ولم يكن من الذين يسعدون بإمساك الأمور فى أيديهم وإنما كان مثلاً رائعاً للذين ييسرون كل أمر ويفتحون كل باب.

عمل ـ رحمه الله ـ مع رئيسين للجامعة كانت المسافة بينه وبينهما أقرب من حبل الوريد.. كان لهما كأنه الذراع والعقل والقلب. وكانا منه فى موضع العقل والقلب والضمير.

وتعاقب على العمل معه ما يقرب من خمسين عميداً من كل التخصصات، فنال احترامهم وتقديرهم جميعاً بلا استثناء، وكان حين انتقل إلى رحمة الله أقدم أعضاء مجلس الجامعة

جميعاً، لكنه مع هذا كان يؤثرهم جميعاً على نفسه، ويعطيهم المكانة اللائقة بالعلم وأهله.

□

سيداتي سادتي

هل أستطيع أن أستعرض كل حياته بعد ذلك؟ أظنكم جميعاً تعرفون من أمره في الجامعة أكثر مما أعرف، أو تعرفون على الأقل أقداراً تكتمل بها وبما ذكرت عن حياته قبل أن يأتيكم ويعمل بين ظهرانيكم صورة تضعونها في أعز الأمل من نفوسكم جميعاً.

□

سيداتي سادتي

لعل من أبرز أخلاقه - رحمه الله - أنه نجا من خداع النفس، وبفضل نجاته من خداع النفس فقد نجا من خداع الغير، فلم يكن على الإطلاق من ضحايا النفاق الإداري رغم منصبه وصلاحياته، ولم يؤمن يوماً واحداً أنه أهل لمنصب أكبر مما هو فيه، رغم كل ما سمعه في هذا الصدد يوماً بعد يوم.

□

سيداتى سادتى

كان ـ رحمه الله ـ كالنسيم العليل يسعد المحيطين به والمارين عليه، ينعش الأفكار، ويروح عن النفوس، ويجدد الآمال، ويطور الأفكار . . وإنى لأفتقد فيه اليوم الأب الذى ظلت أبوته تزداد مهما تقدمنا فى السن، والأخ الذى ظلت أخوته تزداد مهما تقدم فى السن، والصديق الذى يحس غيابه، والرائد الذى لا يكذب أهله، والحب الذى لا تذبل شجرته، والحكمة التى لا تفقد مذاقها.

كان فقيدنا أيها السادة لى أباً بكل ما تعنى هذه الكلمة، كنت أقحم نفسى على بنوته فكان يعتبرنى ابنه الثالث، ولعلى لم أكن أقربكم إليه نفساً، ومع أنى لا أظن أن خسارة أحد فيكم جميعاً تقل عن خسارتى فيه، فإنى أؤكد لكم أن خسارتى فيه لا تعدلها خسارة . . ولهذا فإنى لازلت فى حيرة أين أنا من بعده؟ وأين أنا منه.

ألقيت فى حفل التأبين الذى أقيم بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة الزقازيق ـ ١٩٨٧.

كمال حسن على

كان كمال حسن على الوحيد فى مصر وربما فى العالم كله، الذى جمع بين خمسة مناصب رفيعة، قيادة أحد الأسلحة المهمة وهو سلاح المدرعات، ثم رئاسة جهاز المخابرات، ووزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، ورئاسة الوزارة. وقد بقى هذا الرجل فى هذه المواقع فى الصف الأول تماماً عشر سنوات كاملة ومتواصلة (٧٥ـ١٩٨٥)، وقريباً جداً من الصف الأول (٧٠ـ ٧٥) فى السنوات الخمس التى سبقتها، لكن الذى لاشك فيه أن كمال حسن على كان أبرز نموذج فى حياتنا السياسية المعاصرة للمحظوظ بعد فوات الأوان.

ومع هذا كله كان وجوده فى هذه المواقع كالنسيم العليل، وقد ملأ كل هذه المناصب بما لم يكن متصوراً له من أحد أن يملأه، ويكفى ـ على سبيل المثال ـ أنه خلف المشير الجمسى فى وزارة

الحربية حين كانت أذهان الناس كلها مملوءة بأن الفريق الجمسى سيظل وزيراً للحربية مدى الحياة . . على حين كان الناس لا يعرفون مَنْ هو مدير المخابرات ، وبالتالى لا يعرفون الفريق كمال حسن على كواحد من القادة العسكريين القريبين من السلطة جداً .

□

ولاشك أن كتاب الفريق أول كمال حسن على «مشاوير العمر» هو الكتاب الوحيد من بين كتب السياسيين التى كُتبت بعد الثورة ليبقى بين أيدى المؤرخين مرجعاً دائماً على نحو ما فعل الدكتور محمد حسين هيكل بكتابه «مذكرات فى السياسة المصرية» .

ويكاد هذا الكتاب أن يطاول كتاب الدكتور هيكل من حيث الإلمام الواعى بالتفاصيل المهمة فى مجريات الأحداث ، على الرغم من أن احتلال مؤلفه لموقع متقدم فى الصفوف الأولى جاء فى سن كبيرة نسبياً إذا ما قورن بالدكتور محمد حسين هيكل ، ولكننا لابد أن نذكر طبيعة الفرق بين عهدين ، عهد كانت الطبقة

الحاكمة فيه ثابتة بل ومعروفة سلفاً، وكان طريق السياسيين يبدأ مبكراً، وعهد آخر كانت صفوة العسكريين القريبين من السلطة من أكثر الفئات تعرضاً للقصف بسبب وبدون سبب.

□

على هذا النحو سيجد القراء متعة لا تعادلها متعة وهم يقرأون «مشاوير العمر» فيجدون فيها تفكيراً ابتكارياً من نوع ممتاز، يعرض المعلومات التى يعرفونها والتى لا يعرفونها ثم يخرج من هذه المعلومات إلى أحكام يصعب على كثيرين من القراء أن يتقبلوها للوهلة الأولى رغم صوابها الشديد، ولكنهم حتى وإن رفضوها يقرون فى تسليم شديد بمدى قدرة صاحب هذه المذكرات على التحليل الدقيق والعرض الحىّ لوقائع متعددة تباعد بها الزمان.

ويعتز كمال حسن على فى مذكراته بأنه أدى واجبه فى كل خطوة من خطوات مشاوير حياته على نحو ما كان يتمنى أن يؤديه، وهو يعترف بأن المصادفة لعبت أدواراً متكررة فى تقلبه فى المناصب المختلفة بدءاً من التحاقه بالكلية الحربية ثم انتقاله من

سلاح إلى سلاح ، لكنه مع هذا يمضى فى مجرى النهر بقوة واقتدار فى أغلب الأحيان ، وفى أحيان كثيرة يعوقه ما يعوق النهر نفسه كما حدث فى ١٩٦٧ .

وهكذا يحدثنا كمال حسن على عن حرب ١٩٥٦ بإنصاف لم نعرفه فى كتابة أحد من الذين تناولوها كحرب خاضتها قواتنا المسلحة ، وتسود كتابته العقلانية الشديدة ، لكنه مع ذلك يُنصف جيشه وقومه ووطنه وهو يعترف بفلسفة واضحة أن المنتصر فى ١٩٥٦ كان أمريكا وروسيا ، أو هو يتبنى وجهة النظر القائلة بهذا الرأى ، لكنه مع ذلك لا يدع الفرصة ليثبت لنا أن الجيش المصرى قد انتصر فى هذه المعركة .

وهكذا نجد بين أيدينا موسوعة حقيقية لتاريخ الوطن ولتاريخ القوات المسلحة لا يستنكف مؤلفها عن أن يعطى كل ذى حق حقه فى الموضع الذى يستأهل إعطاء هذا الحق ، فلا يلجأ أبداً إلى عبارة أحد الزملاء أو أحد القادة . . وإنما هو حريص (شأن كل المنصفين الذين تخلوا عن العقد) على أن يثبت كل اسم فى موقعه الصحيح ، والأفعال عنده مبنية للمعلوم إلا أن يكون المعلوم معلوماً بما فيه الكفاية .

وإنى لأعتقد الآن أن صاحب هذه المذكرات حين كان قائداً كان من أولئك القادة الذين يتميزون بأنهم بلا أعداء لأنهم يستبقون الأحداث بحيث لا تخلق لهم الدراما اليومية أعداء كان يمكنهم الاستغناء عنهم .

□

قد لا يكون كمال حسن على من الذين يجيدون الحديث عن إنجازاتهم بطريقة تصورها على أنها معجزات ، لكن كثرة ما أتيح لهذا الرجل من مواقع للعطاء الوطني قد عوضته عن هذا التواضع والإعراض عن عبادة الذات .

بيد أننا لو تأملنا إحساس مؤلف هذا الكتاب فى كل ما تقلد من مناصب وقارنا إحساسه بالإنجاز فى كل منها ، لوجدناه أكثر ما يكون سعادة بما بذل فى جهاز المخابرات عنه فى أى منصب آخر من المناصب الوزارية التى تقلدها بعد ذلك .

وقد نستطيع فهم هذا الشعور فى ضوء أن العمل فى هذا الجهاز كان عملاً هادئاً يتيح لصاحبه اللذة بإنجازه بعيداً عن السباق المحموم لأجهزة الإعلام ، وهو السباق الذى عانى منه هو

نفسه في كل خطوة يخطوها حين كان وزيراً للخارجية مثلاً في أثناء مباحثات واشنطن، حيث كانت العدسات تلاحق كل خطواته بأكثر مما يحتمل.

---

* لا يغني هذا المقال عن الباب الأول من كتاب المؤلف «مذكرات وزراء الثورة».

مجدى وهبة

بوفاة الدكتور مجدى وهبة عضو مجمع الخالدين ورئيس قسم اللغة الإنجليزية بكلية آداب القاهرة، فقدت الثقافة العربية المعاصرة علماً من أبرز أعلامها، ورمزاً للإخلاص للعلم والبحث العلمى الهادئ، والتأليف الموسوعى الهادف، والإسهام البناء فى التطور الحضارى والثقافى والدراسات الجامعية واللغوية.

كانت حياة هذا الرجل نموذجاً حياً للتألق الهادئ الذى لا يتاح للثقافات الحية إلا بعد تلك الفترات الخصبة من الصراع والجدل الفكرى حول الأصول والاتجاهات . . ثم يأتى جيل من الذين يخلعون ثياب المذهبية حتى وإن بدأوا حياتهم بها ويتفانون فى الحقيقة . . فإذا صادف هؤلاء موقعاً أكاديمياً أو صادفتهم المواقع الأكاديمية، ارتقوا بالتدريس والبحث العلمى إلى الذروة التى

لابد أن تتحقق مع جهودهم المتجردة . . وإذا ما صادف هؤلاء موقعاً تنفيذياً تركوا فيه من آثار الإصلاح والتأصيل ما يكفل للحضارة عوامل ازدهارها المستمر . . وفى ثقافتنا المعاصرة فإن مجدى وهبة واحد من أبرز هؤلاء . . وحياة هذا الرجل بالذات نموذج رفيع لقدرة المثقف على الانتصار على نفسه والتحول بها فى منتصف الطريق من المهنة الأولى إلى المهنة الأولى به . ونحن كثيراً ما نتحدث عن الأطباء الذين هجروا الطب إلى الأدب أو الصحافة ، لكن نموذج مجدى وهبة فى هذا الشأن يستحق بعض الحديث .

□

تخرج الدكتور مجدى وهبة فى كلية الحقوق عام ستة وأربعين مع زميله الدكتور بطرس غالى نائب رئيس الوزراء وابتعثا إلى باريس لدراسة القانون الدولى ، ومن الطريف أن الزميلين الصديقين حفيدان لاثنين من رؤساء الوزارة المصرية فى الربع الأول من هذا القرن .

وبعد عام من الدراسة فى باريس حصل مجدى وهبة على دبلوم عال فى القانون الدولى من جامعة باريس . . لكنه آثر أن

يترك دراسة القانون كلية ، بل وأن يترك فرنسا ، إلى انجلترا ، حيث التحق بجامعة أكسفورد وحصل على درجاته الجامعية فى الأدب الإنجليزى بدءاً من الليسانس (١٩٤٧) حتى الدكتوراه فى الأدب الإنجليزى من جامعة أكسفورد (١٩٥٧)، ومنذ ذلك الحين وقد داوم مجدى وهبة على صلته بالمجتمع الأدبى واللغوى من برج الحراسة . . فهو واحد من حراس اللغة والمصطلحات القلائل فى جيلنا هذا، وكلنا نعرف أنه اشترك مع الأستاذ الكبير أحمد كامل مرسى فى تأليف معجم الفن السينمائى ذى اللغات الثلاث . . وكلنا تقريباً يعرف أنه اشترك مع الأستاذ كامل المهندس فى وضع المصطلحات العربية فى اللغة والأدب (عربى - إنجليزى) . . ولكن القليلين يعرفون أن لمجدى وهبة عدداً آخر من المعاجم الهامة ، فهو صاحب معجم مصطلحات الأدب ، ومعجم العبارات السياسية الحديثة ، ومعجم مصطلحات الحضارة .

□

وبالإضافة إلى هذا فقد تولى مجدى وهبة ترجمة عدد من الأعمال الأدبية والنقدية الهامة . ومجدى وهبة واحد من أبرز النوادر الذين ترجموا من العربية وإليها ، ومن الإنجليزية وإليها ،

ومن الفرنسية وإليها . . لأنه كان قادراً على الكتابة فى اللغات الثلاث بنفس الدرجة من الأداء الرفيع ! ! وكان قادراً كذلك على القراءة بحس نقدى متميز .

ترجم عن الفرنسية مسرحية «ارديل» لجان آنوى ، ومسرحية «لن تحدث حرب طروادة» لجان جيرودو .

وعن الإنجليزية ترجم مجدى وهبة «راسيلاس أمير الحبشة» للدكتور جونسون ، ومقال فى الشعر المسرحى لجون درايدن ، وقصص كنتر برى .

ومن العربية إلى الإنجليزية ترجم مجدى وهبة «أحلام شهرزاد» لطه حسين ، و«إبراهيم الكاتب» للمازنى .

وقد طرح مجدى وهبة رؤيته للسياسة الثقافية فى مصر فى كثير من المقالات والبحوث ، ونشر فى هذا الجانب كتابين هامين ، الأول فى القاهرة بعنوان «مطالعات فى الأدب والسياسة» ، والثانى نشر فى باريس تحت عنوان «السياسة الثقافية فى مصر»

□

بقى أن أتحدث عن مجدى وهبة حين تولى منصب وكيل وزارة الثقافة للعلاقات الخارجية فى عهد تولى الدكتور ثروت عكاشة الوزارة للمرة الثانية (١٩٦٦ - ١٩٧٠)، ومن الطريف أن حكومة الثورة كانت قد خصصت للعلاقات الثقافية الخارجية وزيراً فى منتصف الستينات هو الدكتور حسين خلاف، ثم عادت هذه العلاقات لتكون بمثابة قطاع فى وزارة الثقافة.

ومن الطريف أن الدكتور مجدى وهبة هو الذى استقبل فى المجمع اللغوى بالقاهرة [مجمع الخالدين] سلفه الدكتور حسين خلاف حين انتخب لعضوية المجمع عام ١٩٨٠ بعد مجدى وهبة بعام واحد.

□

وعن جهد مجدى وهبة فى العلاقات الثقافية الخارجية يتحدث ثروت عكاشة فى مذكراته مشيداً بمجدى وهبة فيقول:

«ويطيب لى أن أنوه بالكفاءة العالية للدكتور مجدى وهبة، الذى توسمت فى قدراته المتعددة وخلقه النبيل وعلاقاته الطيبة، ما يؤهله عن جدارة لتسيير دفة العلاقات الثقافية الخارجية التى هى اليد الممدودة بالصداقة بين شعوب العالم وبيننا...».

ويكفى هذا الرجل أنه عقد اتفاقات ثقافية مع ما يربو على مائة دولة أجنبية بكفاءة ملحوظة .

كان مجدى وهبة واحداً من الذين يجيدون عمل الفريق ، وقد كان دائماً محل إعجاب زملائه فى مجمع اللغة العربية ، وفى المجلس الأعلى للثقافة ، وفى مجلس الشورى ، وفى المجالس القومية المتخصصة ، وفى اللجان العلمية الدائمة لترقية الأساتذة . . وقبل هذا كان واحداً من أبرز القادرين على الاشتراك فى التأليف أو الترجمة . وقد اشترك فى كثير من ترجماته وأعماله مع عدد من مثقفينا المصريين على اختلاف مشاربهم وأجيالهم .

وكان على الدوام نموذجاً حقاً للعالم الفاضل المتمكن والمتواضع . . الدقيق والرقيق . . الملتزم بالمثالية والموضوعية معاً حقاً حتى لا تكاد ترى له حزباً من تلاميذه ، ومع هذا فكلهم على اختلاف أحزابهم له مقدرون ، بل وكل أقرانه كذلك .

محمد أبو زهرة

منذ خمس سنوات رحل عنا الشيخ محمد أبو زهرة، أكثر علماء الشريعة فى العقد الحاضر تمسكاً برأيه، ومداومة على الدفاع عنه بصبر لا ينفد، وبعزم لا يلين.

وحين انتقلت روح أبو زهرة إلى بارئها، كان قلمه يتنقل بين السطور يسجل عصارة فكره الإسلامى اللامع فى بحث عن «المرأة فى ظل الإسلام»، وكأنما أراد الله أن يتوج حياته التى قضاها فى محراب العلم والبحث والتأليف بهذه النهاية الرائعة.

كان أبو زهرة يلقى إعزاز أهل العلم فى مصر والعالم الإسلامى، على الرغم من أن أغلبيتهم كانت تختلف معه فى أغلبية آراءه، ولكنهم كانوا يحترمون فيه اعتزاز العالم بما يراه صوابا، ومحاربة الشجاع من أجل عقيدته.

□

ولد أبوزهرة فى التاسع والعشرين من مارس سنة ثمان وتسعين (١٨٩٨) بالمحلة الكبرى، وتلقى فيها تعليمه الأولى، فلما انتهى من حفظ القرآن، بدأ يدرس فى الجامع الأحمدى بطنطا وشيخه يومذاك الإمام الأكبر الأحمدى الظواهرى، ثم رحل إلى القاهرة (١٩١٦) فالتحق بمدرسة القضاء الشرعى وقضى فيها تسع سنوات حصل فى نهايتها على عالميتها (١٩٢٥)، ولم يكتف بعالمية القضاء الشرعى لكنه جمع إليها دبلوم دار العلوم بعدما تقدم للامتحان إليه من الخارج (١٩٢٧)، وعلى إثر ذلك عمل أبو زهرة مدرساً بتجهيزية دار العلوم والقضاء الشرعى، ثم مدرسا فى سوهاج الثانوية ففؤاد الأول الثانوية، حتى إذا كانت سنة (١٩٣٧) نقل أبو زهرة مدرساً فى كلية أصول الدين، وفى العام التالى نقل إلى كلية الحقوق، حيث بقى طيلة أربعين عاماً أستاذاً للشريعة الإسلامية لأجيال القانونيين الذين قدروا فضله ونهلوا من علمه.

□

ومنذ وضع أبو زهرة قدمه فى أستاذية المدارس العليا، وهو يبحث ويبحث، ويؤلف ويؤلف، حتى أضاف إلى المكتبة الإسلامية مجموعة قيمة من الكتب الرصينة فى أكثر من فرع من فروع العلم، فأرخ لتاريخ المذاهب والفرق الإسلامية تأريخاً

متجرداً عن الهوى والتميز ، وقد ظل كتابه في تاريخ المذاهب المرجع الأول إلى اليوم في هذا الموضوع ، وأرخ أبوزهرة للجدل وللخطابة عند العرب وللأدب العربي ، فبلور في كتبه هذه وجهة نظر جديرة بالتسجيل والوقوف جنباً إلى جنب مع آراء المستشرقين ومؤرخي الآداب .

وكتب أبو زهرة عدداً من التراجم الإسلامية جلا فيها عبقريات سبعة من أئمة الفقه والتشريع الإسلامي هم : أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وابن حنبل ، وابن تيمية ، وابن حزم والإمام زيد .

ووضع أبو زهرة لتلاميذه كتبا قيمة في شرح قانون الوصية ، وقوانين الأحوال الشخصية ، والميراث عند الجعفرية ، والملكية ، ونظرية العقد ، وأصول الفقه ، ومصادر الفقه الإسلامي .

وكان أبو زهرة في هذا كله بمثابة ذلك العالم المحقق صاحب المنهج التحليلي ، والرؤية الشاملة ، والعمق التاريخي ، وحاسة المقارنة .

□

ولعل هذا هو ما دفعه إلى دراسة تاريخ الديانات القديمة وتدريسه لطلابه ، وإلى دراسة مصادر الفقه الإسلامي ومناقشتها

فى كتابه، وهكذا كان حرص أبو زهرة على التأصيل بطرفيه: تأصيل الجذور ، وتأصيل النتائج.

ولعل طول مطالعة عالمنا الجليل لتاريخ التشريع الإسلامى قد مكنه من تتبع كل ما أحاط بالفقه والتشريع الإسلاميين فى العهود المختلفة من التأويل، وإلباس الباطل ثوب الحق تحت شعارات من الإصلاح، و لعل فى هذا ما جعله يتمسك برأيه ويدافع عنه يوماً بعد يوم، وكأنى به كان يخاف أن تؤتى الفتنة من قبله.

على أن فى الشيخ أبى زهرة مثالاً رفيعاً للتفتح العلمى والنضج الفكرى، حين كان يناقش آراء مخالفيه فى هدوء ويقين، ويرد عليهم الحجة بالحجة دون ضجيج، ودون طنطنة، ومن غير أن ينساق إلى ما عهدناه من أصحاب الرأى والرأى الآخر، وذلك كله على الرغم من أن الرجل كان يناقش الدين، والذين يناقشون فى الدين يظنون أنفسهم أو يصورونها على أنهم خلفاء الله على الأرض فى الزود عن حياض الدين، ولكن أبا زهرة لم يكن يخرج عن حدود المنهج العلمى فى نقاشه أو إبداء رأيه، فكان بذلك مثلا لا ينبغى أن يغيب عن حياتنا الفكرية ونحن نعانى فى بعض الأحيان من بعض التطرفات.

فى الذكرى الخامسة لوفاته (١٩٧٤ - ١٩٧٩).

محمد المعلم

فقدت الثقافة العربية بوفاة الأستاذ محمد المعلم، ركناً من أهم وأقوى أركانها وأكثر فعالية، فقد كان - عليه رحمة الله - أكبر ناشر عربى بلا منازع، وقد تطور حبه للنشر ماراً بكل المراحل التى يمر بها الحب الشديد، بدءاً من البحث عن المحبوب، ثم العمل من أجله، ثم الارتباط به، ثم الارتقاء، ثم الارتقاء المتواصل، فضلاً عن فتح الآفاق الجديدة، ومراجعة النفس حيناً بعد حين، وتحديث الشكل، وتعميق المضمون، والانتشار بهذا الحب كما ينتشر الهواء فى كلّ فراغ .

تخرج - رحمة الله عليه - فى كلية العلوم عام اثنين وأربعين منذ أكثر من خمسين عاماً، وعمل مدرساً للكيمياء فى وزارة المعارف، وكان أستاذه عميد العلوم العالم المصرى الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة يود لو أتيح له أن يتخصص فى

تاريخ العلوم عند العرب ، ولكنه فى الحقيقة شأن المبرزين من أبناء جيله امتد بنشاطه إلى كثير من المجالات كان منها الصحافة حيث عمل فى جريدة الأساس وغيرها .

□

وحين آنس فى نفسه القدرة على أن يقدم لأبناء وطنه ما لم يقدمه أحد قبله من نشر الفكر الرفيع ، والثقافة المتخصصة ، ومخاطبة الجمهور بما يرتقى بمستواه ، لم يتردد فى أن يبدأ مشوار الألف ميل الذى قطعه يوماً بعد يوماً وهو يلهث ، فقد كانت نفسه من النفوس الكبار التى تتعب لمرادها الأبدان ، وحين أصبح المجال أمامه مهيئاً لأن يلتقط أنفاسه ويرمى بالعبء على حكومة أعلنت عن تبنيها لما كان يقوم به ، لم يشأ المجاهد أن يضع الشعلة من يده على الرغم من إضاءة شعلات أكبر بجوارها أتيح لها من الموارد ما هو كفيل بأن يجعل نورها أقل إضاءة وإبهاراً ، ولكن بقيت لشعلة الأستاذ المعلم خاصية فريدة ، فقد ظلت مع هذا الضوء من حولها تمثل الضوء الحالم فى ثقة بكل قيم الحق والخير والجمال ، وقد بقى الضوء المنبعث منها أنقى الأضواء وأكثرها شفافية ، لأنه كان يستمد زيته من روح صاحبها الفدائى المضحى المثابر المؤمن بكل ما يصدر .

وظل لدار القلم دورها حتى أممتها الدولة حين أرادت أن تعلن عن مسئوليتها المطلقة عن الثقافة والفكر، وبقى محمد المعلم على رأس داره وغيرها موظفاً من كبار موظفى الدولة ، ولكنه لا يطول به المقام حتى يتمثل روح جبران الرومانسية مؤثراً الحرية المطلقة والسعى من جديد والبدء من صفر فى لبنان وطن جبران نفسه .

هنالك وبين كل أقطاب النشر فى العالم العربى استطاع محمد المعلم أن يبدأ من جديد وبقوة شديدة، وأن ينتصر على الجميع بكل ما احتفظ به فى كيانه القوى من طاقات الوضع المتراكمة (كما يقول علماء الفيزياء) التى انطلقت كما تنطلق الطاقة الجبارة عند الاتحاد النووى .

وفى سنوات معدودة لمع اسم الدار الجديدة «دار الشروق» على مستوى العالم العربى كله ، ولكن صاحبها كان يحلم بأن يعود إلى وطنه الحبيب ليمارس فيه فكره وفنه واجتهاد .

□

وحين انتصرت العروبة فى ٦ اكتوبر ١٩٧٣ وقبل أن تنتهى الحرب طلب إلى الأستاذ أحمد بهاء الدين أن يكتب كتاباً على

وجه السرعة عن النصر المبين لتنشره دار الشروق، ليشفى غليل نفسه التى كانت تتألم فى كل حين وهى تطالع على أرصفة بيروت أكداساً مكدسة من كتاب شجعت نشره المخابرات الاسرائيلية بعنوان «وتحطمت الطائرات عند الفجر» ، ونشر المعلم كتاب الأستاذ أحمد بهاء الدين «وتحطمت الأسطورة عند الظهر» الذى انتهى من إعداده فى أيام قلائل تحت نفس العنوان الذى اختاره محمد المعلم بحسه الوطنى والثقافى المرهف .

بعدها بشهور انتقلت «دار الشروق» بالجزء الأكبر من نشاطها إلى القاهرة، حيث تنامت على مدى عشرين عاماً جهود محمد المعلم التى استطاع من خلالها أن يقدم للمكتبة العربية أكثر من ألف ومائتين كتاب فى شتى المعارف، كانت منها مؤلفات زكى نجيب محمود، والعقاد، وعلى الجارم، وسليمان حزين، والشيخ الغزالى، ومحمد عمارة، وأحمد كمال أبو المجد، وسيد قطب، ومحمد حسنين هيكل، فضلاً عما انفرد به من تقديم الترجمات الرائعة لجورباتشوف وجارودى ومذكرات عباس حلمى الخديوى السابق .

□

وكان - عليه رحمة الله - يتميز فى أدائه لرسالة النشر بروح المسئولية الشديدة عن كل كلمة ينشرها، لا فى اعتقاده بصحة الرأى وراء ما ينشره، ولكن فى اعتقاده وإيمانه المطلق بمسئوليته عن أن تظهر هذه الكلمة على أدق ما يكون وأجمل ما يكون ملتزماً إلى أبعد حد بفكر المؤلفين الذين عملوا معه ومسئوليتهم عن فكرهم . . وقد أفنى عمره فى سبيل هذا الهدف التى حققه على خير وجه .

وكان حريصاً على أن تكون علاقاته بكل زملائه من الناشرين على أرفع مستوى من الخُلق الكريم ، ويكفى أن أذكر أنه دعانا على حفل غداء احتفالاً بإصدار دار الهلال لكتاب صديق عمره العلامة الجيولوجى المصرى الكبير رشدى سعيد عن نهر النيل، مع أنه كان يتمنى أن تتولى دار الشروق نشر هذا الكتاب، ولكن روحه الرياضية كانت تحلق دائماً فى آفاق عالية ، ولعل هذا هو ما أعطانا جميعاً الإحساس بالشرف والكرامة عند تعاملنا مع دار الشروق، وأذكر أن الأستاذين صلاح عبد الصبور وأنيس منصور فى أواخر السبعينات كانا يؤثران نشر مؤلفاتهما فى دار الشروق على حين كانا يتوليان مسئولية أكبر مؤسستين قوميتين للنشر (هيئة الكتاب ودار المعارف) .

وفى سنواته الأخيرة كان محمد المعلم منصرفاً بكل ذرة من جوارحه إلى إنجاز موسوعة الشروق لتمثل الهرم الثالث بجوار دار الشروق ومطابع الشروق ، وكان يتخيل نفسه دائماً وقد لقى ربه بعد أن يطبع المجلد الأول من الموسوعة . . وقد بذل ـ عليه رحمة الله ـ أكثر من اثنى عشرة ساعة كل يوم فى قراءة موادها وبروفاتها والاتصال بمحرريها ومراجعيها الذين كان عددهم بالمئات من كل التخصصات فى مصر وخارجها ، ولم يكن يطيق أن يكون هناك أى جهد فى التجويد والإتقان تحرم منه هذه الموسوعة على أى مستوى .

نشرت تحت عنوان : «رحيل عاشق النشر» .

[الأهرام : ٢١ نوفمبر ١٩٩٤]

محمد حافظ إسماعيل

فى تاريخنا المعاصر يبرز اسم محمد حافظ إسماعيل كواحد من القلائل الذين تركوا بصمات واضحة فى أكثر من المناصب الحساسة فى رئاسة المخابرات أو وزارة الدولة للشئون الخارجية، ورئاسة ديوان رئيس الجمهورية، وكمستشار للرئيس للأمن القومى (وهو المنصب الذى لم يتوله أحد قبله ولا بعده)، ومن قبل هذا كله ومن بعده أيضا كسفير بارز ونشط ومنتم ومؤثر، ثم من قبل هذا كله كمدير لمكتب القائد العام للقوات المسلحة فى بدايات الثورة وكمسئول أول عن وزارة الخارجية وديوانها فى الستينات.

وليس فى تاريخنا المعاصر كله مثله من ينبئ تاريخه الوظيفى عن ثقة شديدة بالنفس، وتواضع نادر فى قبول مناصب أقل من مكانته و، تحت رئاسة من هم أقل من كفايته وقدراته الرهيبة.

وطوال هذا التاريخ الحافل على مدى ستين عاما منذ تخرجه فى عام ١٩٣٧ وحتى وفاته فى مطلع عام ١٩٩٧ ، ظل هذا الرجل رضىّ النفس، رفيع الخلق، مخلصا إلى أبعد حدود الإخلاص لقضايا أمته ونهضتها وجهادها فى سبيل مستقبلها القريب والبعيد، وفى سبيل الحفاظ على أمنها القومى.

□

كان أول دفعته حين تخرج فى الكلية الحربية فى نهاية العهد الذى كان القبول فيها مقصورا على طبقات معينة، وكان بمثابة ابن قيم الجوزية فى هذه المدرسة. فقد كان والده مدير المدرسة الحربية، وفى مرحلة مبكرة من حياته حصل على شهادة كلية أركان الحرب من انجلترا وأثبت هناك (عام ١٩٤٤) تفوقا واضحا.. ولو تأملنا التاريخ بطريقة الافتراضات فقد كان الطريق منفسحا تماما أمام محمد حافظ إسماعيل ليكون الرجل الأول فى القوات المسلحة المصرية لعقد من الزمان على أقل تقدير، ولكن الثورة قامت وكان قادتها جميعا من التالين لهذا الرجل العظيم فى كل الأقدميات.

وهكذا أصبح عليه أن يوازن بين راحة البال والانفصال عن

مؤسسته المهنية من ناحية، وبين الولاء لوطنه وتحمل الآثار الجانبية للظروف الجديدة من ناحية أخرى، ويبدو أن التزامه الداخلى وثقته الشديدة فى نفسه وقدراته قد دفعاه إلى قبول الخيار الثانى. وهكذا قبل أول دفعة ١٩٣٧ أن يكون مديرا لمكتب القائد العام عبدالحكيم عامر، الذى كان شبه الأخير فى دفعة ١٩٣٩، ومع هذا فإن حافظ إسماعيل ينصف عبدالحكيم عامر بما لم ينصفه كل الذين استظلوا بظله!!

وهو صاحب الصورة الجميلة التى يقول فيها إن عبدالحكيم عامر كان يذكره بصور قدماء المصريين فى معابدهم وهم يجمعون بين هذا الطول وهذه السمرة!

ومع الستينات آثرت الثورة أن تنتقل به إلى وزارة الخارجية (سبتمبر عام ١٩٦٠)، بعدما كان وصل إلى رئاسة أركان حرب القيادة المشتركة بين مصر وسوريا والأردن والسعودية، وبعدما كان قد شارك فى صفقة الأسلحة التشيكية وفى المحادثات المتعددة حول تسليح الجيش المصرى وفى مباحثات تمويل السد العالى كذلك.

□

وفيما بين عامى ١٩٦٠ و١٩٦٤ عمل حافظ إسماعيل وكيلا لوزارة الخارجية مع وزيرها الدكتور محمود فوزى، وهو أيضا صاحب أبلغ وصف يعبر به عن شخصية الدكتور فوزى التى اختلف حولها الكثيرون، وذلك حين يقول فى مذكراته ما معناه إنه كان يعرف الأبيض والأسود، وبعمله مع الدكتور فوزى عرف الدرجات والألوان الرمادية، ثم عمل محمد حافظ إسماعيل سفيرا فى لندن (عام ١٩٦٤) وإيطاليا(عام ١٩٦٧) وفرنسا (عام ١٩٦٨)، وذلك قبل أن يختار كرئيس للمخابرات العامة مع آخر تعديل وزارى فى نهاية عهد الرئيس عبد الناصر (إبريل عام ١٩٧٠).

□

ثم كان حافظ إسماعيل بمثابة أول وزير فى عهد الرئيس محمد أنور السادات، أو كان واحدا من أول مجموعة دخلت الوزارة فى عهده فى نوفمبر عام ١٩٧٠، وقبل أقل من عام انتقل إلى رئاسة الجمهورية بدرجة نائب رئيس وزراء ليكون مستشارا للرئيس للأمن القومى حتى عام ١٩٧٤، حيث شارك بكل فعالية وفكر وجهد فى صنع نصر ومجد أكتوبر ١٩٧٣.

□

وفى كل هذه المناصب وطوال هذه الرحلة، تمتع حافظ إسماعيل بشخصية قوية ملتزمة لا تتخلى على الإطلاق عن رفيع الخلق فى كل اللحظات، ولا عن الالتزام الشديد فى معالجة كل القضايا الوطنية، وكان دءوبا فى العمل، جادا، شديدا على نفسه، حريصا على الابتعاد عن الخطأ بكل المعانى المحتملة للخطأ.

وقد كتب مذكراته فالتزم فيها بالصدق وبالموضوعية وبالبعد عن تمجيد الذات، وحين وجد موجات من الأفكار المضللة حول حرب أكتوبر وأدوار الرئيس السادات، لم يتردد فى أن يصحح هذه المفاهيم على صفحات الصحف، كذلك كان حريصا على أن يكتب فى «الأهرام» فى عام ١٩٨٦ عن علاقتنا بالاتحاد السوفيتى.

وفى كثير من الروايات أن الرئيس عبد الناصر كان يعد محمدحافظ إسماعيل ليتولى قيادة القوات المسلحة المصرية فيما بعد حرب ١٩٦٧، وفى كل الأحوال فإن مكانة محمد حافظ إسماعيل العسكرية والمدنية قد بلغت من الذرى ما لم يتحقق

لأحد قبله، وقد بلغ القمة فى ثقة الرئيسين عبد الناصر والسادات به، ومع هذا لم يستخفه الفرح ولا الغرور ولم يتح لنفسه أن تقوده إلى فرض ذاته فى أية لحظة من اللحظات، سواء كان فى السلطة أو بعيدا عنها.

□

وهو فى كل الأحوال طراز نادر اعتز بنفسه إلى أقصى حد من دون أن يطلب من الناس أن يدفعوا نيابة عنه ثمن هذا الاعتزاز، ووثق بنفسه وقدراته إلى أقصى حد، ولكنه لم يكلف وطنه أى ثمن مقابل هذه الثقة. . وهو واحد من القلائل جدا الذين كانت رئاسة الوزارة أقرب إليهم من حبل الوريد، ولكنهم آثروا لها غيرهم من دون أن يندموا ولو للحظة واحدة. . وحين يتأمل قارئ التاريخ وجود هذا الرجل فى تاريخنا المعاصر فسوف يدرك كيف كان النصر ممكنا رغم كثرة المتسرعين والنرجسيين والمسارعين إلى الارتباك أو الانفعال.

نشرت تحت عنوان: «حافظ إسماعيل: ثلاثية النبوغ في الالتزام والطهارة».
[الأهرام: ٨ يناير ١٩٩٧]

محمد حسن الزيات

لا أعتقد أنه توجد صفحات غير صفحات مجلة « الشموع» أحرى بأن تنفرد بمثل هذا الحديث عن المغفور له الدكتور محمد حسن الزيات ، فقد كان للشموع فضل اكتشاف أو إعادة اكتشاف «الأديب والمفكر» فى الراحل العظيم . . وعلى صفحات هذه المجلة منذ أعدادها الأولى أتيح لقراء العربية، وأنا واحد منهم ، أن يستمتعوا برحيق ثقافة عريضة وعميقة تنفذ إلى لب الفلسفة الدنيوية فى لمح البصر ، وترتد منها إلى الواقع بقوة الجاذبية الشديدة التى لم تفصل هذا الرجل العظيم عن أرضه يوما ما . . أو بعبارة فيزيائية أدق لم تدعه ينفصل .

كان الدكتور محمد حسن الزيات رجلا واسع الأفق إلى أبعد الحدود التى ندركها . . وكان أيضاً بعيد النظر إلى أبعد مما تدركه أبصار جيلنا من آفاق . . وكان يجمع إلى هذين الخُلقين اللذين

أوشكا على الانقراض قدرتين أخريين انقرضتا بالفعل . . كانت له ذاكرة قوية منظمة إلى الحد الذى تحرص فيه على ألا تستوعب المعلومة الجديدة فحسب، وإنما تستأذنك دقيقةً أخرى لتضعها فى موضعها المناسب من تلافيف الذاكرة فى مخه الكبير . . وكانت له أيضاً قدرة رائعة على الإلمام بالتفضيلات المتعددة . . للجوانب المختلفة . . للقضايا المتشابكة . . فى الموضوع الواحد . .

□

هذه هى أبرز قدرات هذا الرجل العظيم الذى انتقل إلى رحمة ربه سبحانه وتعالى بعد حياة حافلة بالعطاء ، وحافلة بالهدوء النفسى، والصفاء النفسى، والسعادة النفسية . . ثم أخيراً الرضا النفسى العميق .

أما ملمس هذا الرجل فقد كان عجيباً إلى أبعد الحدود، إلى الحد الذى يصفة خيراً منى الوزير محمد حافظ إسماعيل الذى تزامل معه فى كثير من المواقع طيلة عهدى الرئسيين الراحلين عبد الناصر والسادات حتى توجت هذه الزمالة قبل وأثناء حرب أكتوبر حيث كان الزيات وزيراً للخارجية وحافظ إسماعيل مستشاراً للأمن القومى للرئيس السادات .

يقول محمد حافظ إسماعيل فى معرض حديثه عن الدكتور محمد حسن الزيات: «ولم يكن الدكتور محمد حسن الزيات غريباً علىّ، فقد التقينا فى مطلع الخمسينات فى واشنطن، ثم جمعنا ديوان وزارة الخارجية بعد عشر سنوات، والدكتور الزيات يجتذبك دون أن تدرى، فترتاح إليه أو لا ترتاح.. ولكنك تظل على احترام له. فهو المثقف من قمه رأسه إلى أخمص قدمه، وقد عهدته حاد الذكاء، حاضر البديهة.. يتمتع بروح الفكاهة، تختلط سخريته بجديته ووضوحه بغموضه، حتى ليتوه الإنسان إن كان يؤيده أو يعارضه ولكنه أبدا يستحوذ على إعجابك».

□

وإذا كان لا بد من أن ننقل للقارئ بعض الفقرات التى تصور أسلوب محمد حسن الزيات كأديب، فلنطالع كتابه «ما بعد الأيام» الذى جعله تكمله لكتاب طه حسين «الأيام» والذى يمثل طرازاً جميلاً من أدب التراجم الذى تختلط فيه الترجمة الذاتية بترجمة محورية أخرى، ثم هو مع ذلك حريص على التاريخ الموثق الدقيق، وحفى فى الوقت نفسه بالعبارة الأدبية القصيرة قادر أيضاً على تحريك الأحداث لتعبر له عن المعنى الذى يراه فى

أروع من أن تعبر عنه الكلمات وحدها فهو يلجأ للأحداث نفسها لتعبر عن معانيه وكأنه لا يفعل شيئا غير القص . . وهو نوع من الثقة الجميلة بالفكرة الذاتية . . من هذا الكتاب ننقل للقارئ وقائع عقد زواج الزيات نفسه (مابين الاقواس من تعليق الكاتب لا الدكتور الزيات)

«فى منزل طه حسين بالزمالك ١٢ يونيو ١٩٤٨ يحتفل بزواج أمينة . الشيخ عبد المجيد سليم « المفتى وشيخ الأزهر الشجاع صاحب المواقف» يعقد العقد والشاهدان هما مصطفى النحاس باشا (زعيم الوفد) وأحمد لطفى السيد باشا (زعيم الفكر)، ويشهده كذلك المستشار ابراهيم الزيات وعبده حسن الزيات المحامى (شقيقا الدكتور الزيات) ، ويخرج العروسان من الحفل بسرعة إلى المستشفى القبطى ليزورا والد العريس الذى كان قد وصل مع زوجته إلى القاهرة (أى من دمياط) لحضور حفل الزفاف، ولكنه أحس فى محطة القاهرة بتعب مفاجئ فنقل إلى المستشفى القبطى (أقرب المستشفيات الكبرى إلى محطة مصر) وذهبت زوجته معه، وأجريت له جراحة عاجلة هناك، وقد ألح على ولده وعلى الدكتور طه حسين عندما زاره فى المستشفى كى يتم عقد القران فى موعده، وهو يبدو الآن فى حالة معنوية طيبة،

يقبلهما ويباركهما وتقبلهما الأم (آثرت البقاء إلى جوار زوجها على حضور زفاف ابنها فيما يبدو)، وهما يريدان أن يرجئا السفر لقضاء شهر العسل فى الخارج حسبما كان متفقاً عليه حتى يغادر الوالد المستشفى ، ولكنه يطلب منهما فى إلحاح عدم تغيير برنامجهما، ويرجو لهما سفراً طيباً وعودة سريعة ليسعده استقبالهما فى منزل الأسرة فى دمياط».

« فى ميناء الإسكندرية وفوق ظهر السفينة «اسبيريا» يصل رسول إلى السفينة يبلغ العروسين بما حدث : انتكس الوالد فجأة، و نادى فى الليل زوجته وطلب منها كوب ماء، وشرب منها جرعة، وابتسم ونام وتخيلت زوجه أنه نام، ولكن قضاء الله كان قد وقع . . استعاد ربه وديعته . أمينة تخلع ملابس العرس وتلبس ملابس الحداد، ينزل العروسان من الباخرة ، ليسافراً إلى بيت الأسرة فى دمياط».

□

ولد الدكتور محمد حسن الزيات عام خمسة عشر (١٩١٥) فى الرابع عشر من فبراير فى دمياط ، وتخرج فى كلية الآداب ، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة أكسفورد، وكانت رسالته

عن «تأثير السياسة الإيرانية فى الأدب السياسى العربى فى القرون الثلاثة الأولى فى الاسلام».

وأتيح للدكتور الزيات أن يعمل مستشاراً للسفارة المصرية فى واشنطن، وأن يتولى بعد ذلك مسئولية سفارتنا فى طهران، وفى مايو ١٩٥٧ عين الدكتور الزيات ممثلاً لمصر فى اللجنة الاستشارية للوصاية على الصومال، و فى ديسمبر ١٩٦٠ أختير مديراً للإدارة العربية فى وزارة الخارجية، وبعدها بشهور فى مايو ١٩٦١ تولى الدكتور الزيات مهمة المندوب الدائم لمصر فى الجامعة العربية (بدرجة سفير)، وبعدها بشهور أخرى أصبح رئيساً للوفد المصرى فى الأمم المتحدة. وهناك مثل الدكتور الزيات بلاده فى مجلس الأمن حين نظر هذا المجلس قضية الكونغو، وفى ديسمبر ١٩٦٣ انتخب الدكتور محمد حسن الزيات نائباً لرئيس لجنة التعاون التابعة للأمم المتحدة، وفى مارس ١٩٦٤ (مع تشكيل حكومة على صبرى الثانية وتعيين محمود رياض وزيرا للخارجية) عين الدكتور الزيات سفيراً فى الهند، وأضيفت إليه (مايو ١٩٦٤) أعباء سفارتنا فى نيبال. ثم عاد الدكتور الزيات إلى القاهرة ليشغل منصب وكيل وزارة الخارجية.

وفى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ عُين رئيسا لمصلحة الاستعلامات ، ومتحدثا رسميا باسم مصر بدرجة نائب وزير . وكان هذا من اختيار للرئيس جمال عبد الناصر شخصيا .

وفى يوليو ١٩٦٩ عاد الدكتور محمد حسن الزيات إلى الأمم المتحدة ليرأس وفدنا الدائم فى نيويورك ، ثم أختير الدكتور الزيات وزيراً للدولة للإعلام عند تشكيل وزارة الدكتور عزيز صدقى (يناير ١٩٧٢)، (وكانت هذه الوزارة تضم أيضا واحداً من أبناء عمومته وهو الأستاذ محمد عبد السلام الزيات نائباً لرئيس الوزراء). . وقد عهد إلى الدكتور الزيات فى أبريل ١٩٧٢ بالإشراف على هيئة الاستعلامات، وفى سبتمبر ١٩٧٢ اختير الدكتور الزيات وزيراً للخارجية (خلفاً للدكتور محمد مراد غالب). وقد واكب هذا التعيين تعيين المشير أحمد إسماعيل وزيراً للحربية وإقالة الفريق محمد أحمد صادق .

وقد شغل الدكتور محمد حسن الزيات منصب وزير الخارجية أيضاً فى تشكيل وزارة السادات الأولى (مارس ١٩٧٣) وحتى ٣١/ ١٠/ ١٩٧٣ حين ترك هذا المنصب .

□

وربما يصعب علينا اليوم تخيل حجم الجهد الذى بذله الدكتور محمد حسن الزيات كوزير للخارجية قبل حرب أكتوبر وقد مضى من التاريخ عشرون عاماً على هذا الزمان . . ولكنى أحب أن أدل القارئ على كتاب أمن مصر القومى لحافظ إسماعيل وهو يلخص فيه مناقشات مجلس الوزراء فى أبريل ١٩٧٣ ، فترينا قراءة هذا الكتاب المحايد كيف كان الزيات يجاهد مثلاً حتى فى مجلس الوزراء ليبرز معنى من قبيل أن مصر المستهدفة وليس «النظام الاشتراكى» وهو يقول :

«وكان الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية أبرز المتحدثين ، كان تقديره أن المستهدف الآن هو «مصر» . . وليس النظام الأشتراكى . وأبدى أنه لا يوافق على "الاختيار بين مصر الخاضعة عسكريا ، ومصر المسيطر عليها اقتصاديا» ، وأن الوقت يمر لمصلحة «مؤامرة الصمت السياسى والعسكرى» ، وأن علينا الدفاع عن أجيالنا القادمة» .

«وعن الحلول السياسية ، قال إنه ليس هناك حل يوائم بين السيادة والأمن فيما عدا الحل المرحلى . . الذى يراه شاه إيران أنه سيصبح - فى حالة تنفيذه - الحل النهائى . إذ أننا نعيش بين الهزيمة والنصر» .

وفى تقديره كان كسر وقف إطلاق النار تحركا لمصر والعرب «فالعالم العربى يدرك أنه معلق بمصر وأن أوروبا ستتحرك دفاعاً عن مصالحها . . كما ستضطر للتحرك حفاظاً على هيبتها . فضياعها ضياح للوجود السياسى الأمريكى ، وسيتحرك السوفيت بينما تقترب الحرب من منطقة الخليج» .

وفيما بعد تركه الوزارة بأكثر من ١٥ عاماً سئل الدكتور الزيات فى حديث صحفى عن خلافه مع الرئيس السادات عندما ترك الوزارة فكان جوابه :

« فيما يختص باستقالتى من الوزارة فإن أساسها أن لى الحق أن أرى الأمور السياسية حسب رؤيتى لها من ضرورة الحل الشامل والعادل للجميع ، ولكن هذا الحق لى قابله واجب آخر وهو افتراض أن رئيس الدولة عنده من المعلومات ما ليس عندى ، وهو بذلك أقدر على الحكم ، فإذا كانت المعلومات التى عندى تؤكد لى أن السياسة المقترحة غير سليمة ، فعلىّ أن أترك مكانى . ولكن ليس لى أن أفترض أن المعلومات التى عندى هى نفس المعلومات التى عند رئيس الدولة ، وبالتالى فله حق رسم سياسته ، وعلينا أن ننتظر نتائج السياسة التى يتخذها» .

□

هذا إذن هو «محمد حسن الزيات» خريج الآداب النابه الذى أصبح مدرساً جامعياً فى مرحلة مبكرة فى جامعة ناشئة هى جامعة الإسكندرية وبدأ يكتب بعض مقالات فى المجلات التى كان يصدرها أو يرأسها الدكتور طه حسين، ويتصل فى ذات الوقت بالبيئة الثقافية فى أرفع مستوياتها، سواء عن طريق شقيقه الأستاذ عبده حسن الزيات مدير تحرير كوكب الشرق، أو والد زوجته الدكتور طه حسين.

ولكنه فيما يبدو يخلو إلى نفسه فيؤثر أن يبتعد عن خضم الحياة العامة فى وطنه ليتعمق التفكير فيما تعترك به هذه الحياة من حوله، ويؤثر الانخراط فى السلك الدبلوماسى الذى بدأ فى ذلك الحين يتسع لينضوى فيه شباب جامعى نابه من ذوى الأصول المصرية الأصيلة . . وحين يروى السفير الفطاطرى فى كتابه مراحل تكون السلك الدبلوماسى، نجده يضرب المثل على هذه المرحلة بالألقاب الجديدة (أى أسماء العائلات) التى بدأت تأخذ مكاناً فى قائمة الدبلوماسية المصرية التى كانت تكاد تكون تقريباً حكراً على الأصول الأجنبية والشركسية والتركية، ومن أطرف ما يمكن أن تتأمله من هذه الألقاب لقب الدكتور الزيات

والسفير الفطاطرى نفسيهما . . هذا بائع الزيت أو تاجره . . وهذا صانع الفطير أو بائعه !!!

ويقودنا التأمل خطوة أخرى لنجد أن هذه الفترة واكبت أيضا فترة انخراط العنصر المصرى فى الجيش المصرى، حين التحقت به بعد معاهدة ١٩٣٦ الأجيال التى خرجت بعد ذلك فى ٢٣ يوليو لتحكم هذا البلد من خلال ثورة يوليو ١٩٥٢ .

كان محمد حسن الزيات إذن بحكم «التاريخ الطبيعى» هو النظير الأمثل لرجال الثورة فيما بين الدبلوماسيين . . ولكن . . محمد حسن الزيات كأبرز أبناء جيله من الدبلوماسيين لم يأخذ مكانه المرموق فى صناعة السياسة المصرية أو فى صياغة الدبلوماسية المصرية إلا فى مرحلة متأخرة عن مكانة نظرائه من العسكريين فى المجالات التى تولوا شأن الكلمة الأخيرة فيها (كعبد الحكيم عامر فى القوات المسلحة وزكريا محى الدين فى الداخلية وكمال الدين حسين فى التربية والتعليم وحسين الشافعى فى الشئون الاجتماعية وعبد اللطيف بغدادى فى الشئون البلدية وصلاح سالم فى الأرشاد القومى) . . ولكنه مع ذلك ظل تقريباً بل وقريباً جداً من الموقع الوزارى على نحو ما سنقرأ فى تسلسل تاريخه المفصل فى المناصب الحكومية

والدبلوماسية .

وقد شاءت ظروف الثورة أن تستعين على وزارة الخارجية فى أول عهدها برجلين من أبرز رجال السلك الدبلوماسى من الجيل السابق على الدكتور الزيات ، قضى أحدهما شهوراً معدودة - وبقى الآخر مع الثورة قرابة ربع قرن ، وهما المغفور لهما الأستاذ أحمد محمد فراج طايع والدكتور محمود فوزى . و قد دفعت الثورة باثنين من العسكريين إلى المكانة المتقدمة ، فدفعت أولاً بحسين ذو الفقار ليكون نائباً للوزير (الدكتور محمود فوزى) . . ثم بمحمود رياض ليكون وزيراً للخارجية من ٦٤ وحتى بدايات عهد السادات ، وليظل الدكتور محمود فوزى فى مواقع أرفع من موقع الوزير نائبا لرئيس الوزراء ومساعداً للرئيس الجمهورية ثم عضواً فى اللجنة التنفيذية العليا ثم رئيساً للوزراء ونائباً لرئيس الجمهورية .

وحين شرع الرئيس السادات تحت مظلة الشرعية الدستورية (بعد الشرعية الثورية) يبحث بين الدبلوماسيين المخضرمين ، كان «الزيات» واحداً من اثنين أعتقد أنهما خير من يقوم لمصر بهذا العبء . وعين مراد غالب السفير المصرى العتيد لدى الاتحاد السوفيتى فى سبتمبر ١٩٧١ وزيراً للدولة للشئون الخارجية

بينما عين الدكتور محمد حسن الزيات وزير دولة للإعلام فى فبراير ١٩٧٢ . . وما هى إلا شهور حتى أسندت الخارجية إلى الدكتور الزيات فى أكتوبر ١٩٧٢ . . وكانت هذه الشهور لحسن حظه هى الشهور السابقة مباشرة على حرب أكتوبر !!

وحين كانت حرب أكتوبر تتهيأ لأن تضع أوزارها، كان أنور السادات يبدأ السير فى خط جديد مواز لخطوط كثيرة كان يمضى فيها بذكاء شديد، وكان إسماعيل فهمى وزير السياحة يأخذ طريقه إلى نيكسون فى الولايات المتحدة ليبدأ خيطاً يتواصل مع خيوط أخرى ليشكل مرحلة هامة من تاريخ هذا الوطن .

وعلى حين انتهت علاقة الرئيس السادات يرحمه الله مع كل من سلف الدكتور الزيات (الدكتور مراد غالب) وخلفيه (إسماعيل فهمى ثم محمد إبراهيم كامل) بنهايات أقرب إلى القطيعة التامة كارتداد طبيعى لحدة الخلاف فى الرأى بين الرئيس و وزراء الخارجية !! فإن علاقته مع الدكتور الزيات مضت ربما بحكم شخصية الزيات وثقافته فى منحنى آخر، فقد عين مساعداً لرئيس الجمهورية بقرار جمهورى يسبق فى رقمه المسلسل قرار تعيين خليفته وزيراً للخارجية . . ثم بقى فى هذا المنصب إلى أن بلغ الستين أو شيئاً من هذا القبيل . . ومنح مع ذلك أرفع

الأوسمة . ولم يجد بعد ذلك غضاضة فى أن يدخل معترك السياسة المحلية فى عهد الرئيس حسنى مبارك يخوض انتخابات المجلس التشريعى، وأن يتولى رئاسة عدة لجان من لجانه !!

هذا إذن هو محمد حسن الزيات نموذج فريد بين الدبلوماسيين جميعاً فى جيله . . أسبقهم جميعاً إلى منصب رئيس هيئة الاستعلامات ووكيل الخارجية وأكثرهم حظاً فى هذا المجال . .

خامس السفراء التسعة الذين أتيح لهم أن يرأسوا الدبلوماسية المصرية (من خلال منصب وزير الخارجية) على مدى تاريخها الطويل و فى عهد الثورة : (طايع - فوزى - رياض - غالب - الزيات - فهمى - كامل - عبد المجيد - عمرو موسى) وهو خريج الآداب وخريج اكسفورد الوحيد بين هؤلاء جميعاً ، وهو أيضا الوحيد الذى تولى وزارة الدولة للإعلام قبل وزارة الخارجية نفسها، وهو أيضا الوحيد الذى مارس الحياة البرلمانية، وهو أيضا الوحيد الذى مارس الحياة الحزبية على مستوى القواعد الإقليمية .

نشرت فى العدد الخاص الذى صدر عنه من مجلة «الشموع» .

محمد حلمى مراد

فيما بين أقرانه جميعا تتمثل فى الدكتور محمد حلمى مراد مجموعة من القيم الرفيعة والسامقة التى لم يستطع غيره أن يحققها ولا أن يصل إليها ، ولكن محمد حلمى مراد بفضل عوامل كثيرة تمكن من أن يصل إلى ذراها وفى مراحل مبكرة جداً عما يمكن للمراقبين أن يتنبأوا له .

ومع هذا فإن الرجل العظيم لم يتوقف فى لحظة من لحظات حياته لكى يقنع نفسه بأن تكتفى فى تلك اللحظة بما حققته قبلها ، ولكنه كان على الدوام نموذجاً للمؤمن المناضل الجسور المنطلق إلى تحقيق واجبه من أجل مبادئه دون أن يحسب حساباً لمكانة أو لموقع ، ولهذا فإن حرصه على الموت هو الذى وهب له الحياة القوية المضيئة الخالدة بإذن الله جل وعلا .

□

نشأ حلمى مراد فى جو كان يكفل له أن يكون فى خلال سنوات قلائل من عودته من البعثة واحداً من أقطاب عصر الليبرالية التى كانت تعيشها مصر فيما بين الثورتين (١٩ - ١٩٥٢)، وحين قامت الثورة لم يكن محمد حلمى مراد يبدأ خطواته فى السلك الجامعى والأكاديمى، وإنما كان قد تقدم فى هذا السلك بالفعل، وبالإضافة إلى هذا فقد كان قريباً جداً من الحركة الوطنية المعاصرة.

وكان صاحب رأى واضح جداً ، وفكرة ، ورؤية، وإنى لأذكر أنى طالعت له مقالات ممتازة نشرت فى مطلع الخمسينات فى صحفنا اليومية حين كنت أبحث فى هذه الصحف عن موضوعات أخرى. . وكان فى هذه المقالات واعياً جداً للوضع السياسى والاقتصادى على مستوى العالم، وعلى مستوى مصر على وجه الخصوص، بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها، وابتدأت اقتصاديات الدول الأوروبية تتشكل فى مرحلة متميزة لا تقف عند المفاهيم التقليدية للاقتصاديات القديمة.

وكان محمد حلمى مراد تواقاً بالفعل إلى أن يفيد بلاده من الفكر الاقتصادى الجديد الذى بدأت ملامحه تتشكل بل وتؤتى

بعض الثمار، وكانت دعوة محمد حلمى مراد إلى إنشاء وزارة للاقتصاد فى مصر مواكبة لاتجاه حكومة الوفد الأخيرة إلى إنشاء هذه الوزارة. . وكانت مكانتة الأكاديمية تتيح له إبداء الرأى وإن لم تسمح له بالمشاركة فى توجيه دفة الحكم فى ظل وجود عمالقة كبار من الاقتصاديين الأكاديميين والممارسين، ومع هذا فلم يكن من الصعب أن نلحظ وجود هذه الخبرة المبكرة عند هذا الرجل الوطنى.

□

ومع هذا فإن الثورة لم تستفد من محمد حلمى مراد فى مرحلة مبكرة من تاريخها، وربما يرجع هذا إلى تخوف المشيرين على الثورة من كل من كان له ماض بارز فى العمل الوطنى والجماهيرى. ومع هذا فإن علم الدكتور محمد حلمى مراد وشخصيته وطموحه قد ساعدوا على أن يحتل مواقع متميزة فى الحياة الجامعية فى ثلاث من جامعاتنا هى: الإسكندرية والقاهرة وعين شمس. . وقد تمكن من الوصول إلى منصب مدير جامعة عين شمس قبل أن يكون قد بلغ الخمسين من عمره.

ولم يتح لمحمد حلمى مراد لقاء مباشر بالرئيس جمال

عبدالناصر إلا في أعقاب هزيمة ١٩٦٧، ثم مظاهرات الطلاب في ١٩٦٨ احتجاجاً على الأحكام الصادرة في قضية الطيران.. وكان عبدالناصر العظيم في ذلك الوقت حريصاً على أن يستمع من كل ذي فكر ومن كل ذي تجربة.. ولم يبخل محمد حلمي مراد بآرائه في ذلك اليوم، وكان صريحاً إلى أبعد الحدود مع الرئيس في ذلك الاجتماع الذي لم يضم إلا مديري الجامعات الأربع.

وهكذا اتخذ عبدالناصر قراره بأن يكون الرجل أحد وزرائه في المرحلة القادمة، وقبل أن يعلن بيان ٣٠ مارس كان عبدالناصر قد اختار محمد حلمي مراد وزيراً للتربية والتعليم، وليكون أول الوزراء الجدد (١٣ وزيراً في ذلك اليوم معظمهم من أساتذة الجامعات)، ولست أغالي إذا قلت إن محمد حلمي مراد دخل هذه الوزارة وتصرف خلالها كما لو كان رئيساً للوزراء وليس وزيراً متقدماً ومقدماً فحسب.. ولهذا فقد كان بإيحاء وتشجيع من عبدالناصر نفسه يتناول السياسة العامة والسياسات الخاصة على حد سواء، وكان يعطي نفسه ما أعطاه له عبدالناصر من سلطة الرقابة على التصرفات العامة تحت مظلة التحقق أو التأكد من تطبيق بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨.

وإنى لأرجو القراء أن يراجعوا فى ضوء هذا الرأى الذى أذهب إليه كل ما روته المذكرات السياسية عن هذه الفترة وعن دور الرجل فيها، وسوف يتضح لنا - على الرغم من كل الأهواء التى لونت هذه الروايات - أنه كان يكلف نفسه مسئولية كبرى كان جديراً بها، وإن لم تكن ديناميكيات المرحلة السياسية لتسمح له بالاستمرار فيها فى عهد كان العسكريون والمنظمون ما يزالون يحتفظون بلياقة عالية، وبقدرة على أداء ذى إيقاع سريع، وإن لم يكن أداءً متميزاً.

وهكذا كان من بدهيات التاريخ الطبيعى للحياة السياسية المصرية المعاصرة أن يحدث اصطدام بين الرئيس عبدالناصر نفسه وبين صفيه الجديد محمد حلمى مراد. . وكانت تقارير الأجهزة قد تكاثرت على مكتب الرئيس عبدالناصر تسجل على الرجل ما يفضفض به فى أى لقاء خارج مجلس الوزراء. . مع أن الرجل لم يكن يتحدث بغير ما تحدث به ولا بغير ما يؤمن به، إلا أن الفهم الأمنى والاستراتيجى لطبيعة المرحلة لم يكن قادراً على أن يتجاوز للرجل عن هذا القدر من الحرية.

□

على ضوء هذا أرجو للقراء أن يطالعوا مذكرات أمين هويدى وعبدالوهاب البرلسى، وسيد مرعى، وصلاح الشاهد، وغيرهم عن يوم استقالة محمد حلمى مراد، ليجدوا حدثاً من الأحداث المهمة جداً فى تاريخ جمال عبدالناصر نفسه والثورة المصرية. ولست أبالغ فى هذا الوصف ذلك أن أى استقالة أو إقالة فى عهد عبدالناصر كله لم تأخذ مثل الاهتمام الذى حظيت به وماتزال تحظى به استقالة محمد حلمى مراد فى يوليو ١٩٦٩.

ومن اللافت للنظر أنه حين حاول الأهرام أن يختزل القضية إلى سطر واحد، فإن الضمير المصرى المعاصر لم يسمح بهذا حتى فى عنفوان حكم الرئيس عبدالناصر نفسه.. وهكذا وجد النظام نفسه مضطراً إلى استصدار قانون خاص يحظر على الوزراء السابقين العمل فى وظائف دولية إلا بعد فترة ليست بالقصيرة من خروجهم أو إقالتهم!!!

ومع هذا فإن العلم قد حمى الرجل فى هذه المرحلة من أن يكتنفه النسيان أو الظلم، وسرعان ما حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية تقديراً لعطائه لبلاده، وظل محمد حلمى مراد فى ندوت فى بيته وحوله شباب واعد ينهل

من فهمه وخبرته ووطنيته .

□

وجاءت مرحلة التحول السياسى إلى أحزاب متعددة . . وكان محمد حلمى مراد بلا جدال أحد النجوم اللامعة فى سماء هذه المرحلة ، ولم يكن له دافع إلا أن ينجز بنفسه ما كانت نفسه تواقة إليه من اصطراع الرأى والرأى الآخر من أجل تحقيق مصلحة شعبه ووطنه . . وهكذا كان محمد حلمى مراد فى موقعيه المتميزين جداً نائباً لرئيسى حزبى الوفد ثم الشعب . . كان معبراً تماماً عن المكان الذى ينبغى للأكاديمى الكبير والعالم المتميز المهموم بقضايا بلاده أن يقف فيه .

وحين أصبح من الضرورى أن يمسك بقلمه ليكتب فإنه لم يتردد أن يقتحم كل الحصون بكل الجرأة والثبات والثقة بالنفس مستنداً إلى ما كان يمحصه من وقائع وما يكونه من رأى .

وفى لحظات كثيرة كان يبدو وكأنه مصمم على أن يناطح الصخر ، ولم يكن الرجل نفسه ينكر هذا ولكنه كان ينكر علينا أن ننصرف عن المعارضة حين تكون المعارضة مناطحة للصخور ، ولست أظن أنى أستطيع أن أوفى الرجل حقه فى هذه الجزئية التى

يعرفها الناس جميعاً ومازالوا يعاصرونها طيلة الأعوام العشرة الماضية، حيث تألق الزاهد العابد الماجد محمد حلمى مراد.

□

لست أستطيع أن أتحدث عن محمد حلمى مراد من دون أن أعترف بفضله - غير المباشر - علىّ شخصياً كواحد من أبناء الجيل الذين أفادوا من جهده وإخلاصه حين تولى وزارة التربية والتعليم، ولست أستطيع أن أتغاضى عن أن أذكر بكل فخر أن محمد حلمى مراد هو الذى اختار بنفسه الأساتذة الذين تتلمذت عليهم فى المرحلة الثانوية قبل أن أصل إلى هذه المرحلة.

فقد كان هذا الرجل هو أول من نبه إلى أهمية الاستثمار فى البشر حين كان مثل هذا التعبير لايزال شيئاً بين الرومانسية واللامعقول، ولكنه كان مؤمناً بهذا إلى أبعد الحدود، حتى إنه كان يقضى أوقاته وهو وزير بين زملائى السابقين من طلبة مدرسة المتفوقين الثانوية التجريبية فى مطعم المدرسة أو ناديها حين كان يأتى إليهم بلا موعد، ويجلس معهم بلا حدود، ويعطيهم من الاهتمام ما لم يعطه وزير سابق ولا لاحق. وكان محمد حلمى مراد يبذل وقته وجهده فى استثمار كان يعرف أنه

لن يظهر أثره إلا ربما بعد ثلث قرن من الزمان، لكنه كان وطنياً مخلصاً إلى أبعد حدود الإخلاص والعطاء والتفانى والذوبان فى الوطن.

□

لا أخالنى قادراً على أن أستعرض تاريخ حياة محمد حلمى مراد كله فى سطور قليلة، ولكنى أستطيع بكل تأكيد أن ألفت النظر إلى مواقفه الصلبة منذ بداية حياته، ولاشك أن لزعيم مصر الفتاة العظيم أحمد حسين دور كبير فى تشكيل وعيه واتجاهه، ولكن هذا لا يمنع أن نقدر تمكن روح الفداء للوطن والوفاء للوطن فى شخصيته العظيمة منذ عمله المبكر فى النيابة العامة واحتجاجه على تدخل الحكومة فى عملها.

ولعل ميل محمد حلمى مراد إلى تسجيل المواقف كان على ما روى موسى صبرى (دون أن يقصد) كان بمثابة السبب الجوهرى فى تباعد الرئيس أنور السادات عن الإفادة منه فى أى موقع تنفيذى.

ومع هذا فإن مصر لم تخسر من هذا الابتعاد بل ربما أفادت منه حين أصبح محمد حلمى مراد على الدوام صوت من لا

صوت له، ونائب من لا نائب له، وحين ظل إلى أخريات أيامه رمزاً للجسارة والنضال والتفوق على النفس.

نسأل الله له الرحمة ولعارفي فضله الصبر والسلوان.

وإنا لله وإنا إليه راجعون

تحت عنوان: الدكتور حلمي مراد

[الشعب: ١٨ فبراير ١٩٩٨].

محمد رشاد مهنا

تنبئنا قراءة التاريخ أنه فى عصور الانتقال الحادة التى تشهدها الأوطان يحدث أن يكون البطل واحداً من المبرزين الذين أسهموا بطريقة أو بأخرى فى دك صروح النظام السابق والتمهيد للنظام الجديد، فإذا به من أول ضحايا العهد الجديد، لأنه كان يتمتع بالإضافة إلى ثوريته بحُسن السمعة وقوة الشخصية، فلايكون مصيره مع النظام الجديد إلا أسوأ مصير، وقد كان محمد رشاد مهنا أبرز نموذج لهذا الملحمى عند قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ .

فقد كان واحدا من الضباط الوطنيين المتميزين، المشهود لهم بالكفاءة والنزاهة والأمانة والأخلاق الحميدة فيما قبل الثورة، وكانت كل هذه الصفات مؤهلة له ليكون على رأس قائمة المرشحين لنادى الضباط من جانب ما قد يمكن أن نسميهم بالقوى الوطنية فى مواجهة قائمة أتباع الملك ، ويفوز رشاد مهنا

بفضل القوى التى راهنت عليه، وبفضل عظمته هو أيضا.

وحين تقوم الثورة يأتى من العريش مؤيداً لها، وبعد أسبوع من قيام الثورة يقع عليه الاختيار ليكون واحداً من الأوصياء الثلاثة على الملك الرضيع أحمد فؤاد الثانى بعد تنازل الملك فاروق عن العرش فى ٢٦ يوليو ، وكان لابد له أن يكون وزيراً أو وزيراً سابقا فيجتمع مجلس الوزراء لتعيينه وزيراً للمواصلات، وهو الوزير الوحيد فى تاريخ مصر الذى لم يعينه ملك ولا رئيس وإنما عينه مجلس الوزراء، ووقع هذا القرار أعضاء المجلس فرداً فرداً (عدا مَنْ كان فى الخارج) ، وبعدها أصبح رشاد مهنا مع الأمير محمد عبد المنعم وبهى الدين بركات باشا بمثابة الأوصياء الثلاثة على العرش، وبدأت المشكلات المبكرة جداً والتى كانت إرهاصاً لكل ما حدث بعد ذلك من خلافات أفقدت القائمين بالثورة تعاونهم ثم أفقدتهم بعضهم أنفسهم بالتالى حين ابتعدوا واحداً بعد الآخر عن المشاركة الفاعلة فى خدمة الوطن.

□

وقد كان الرئيس محمد نجيب بالطبع أول مَنْ اختلفوا مع رشاد مهنا الذى كان يريد أن يُعامل على أنه ثلث ملك على حد رواية نجيب نفسه... ولم يكن عبد الناصر هو الآخر يرتاح إلى وجود

رشاد مهنا بهذه الصورة ولا بهذه الصفة ، ويروى بعض أصدقاء الرئيس عبد الناصر أنه كان صاحب فكرة التخلص من مهنا بتصعيده إلى أعلى ، وكان مهنا إنساناً واضحاً وصريحاً يتمتع بقدر من الوطنية يفوق ما يتمتع به من الخبرة بالسياسة ، ولهذا لم يكن غريباً أن يُبعد بأقصى سرعة عن الوصاية على العرش حتى قبل أن تلغى الملكية وتعلن الجمهورية .

وهكذا قدر لهذا الرجل أن يعتزل الحياة العامة بسبب الثورة نفسها ، وهو الذى كان بحكم أقدميته وألمعيته واحداً من المرشحين لتولى قيادة الجيش أو وزارة الحربية لو لم تقم هذه الثورة ، وهكذا أتيح لنا فى تاريخنا المعاصر نموذج صاحب الرأى والشخصية الذى يدفع ثمنهما من حريته ومجده على يد زملائه فى الوطنية والكفاح ، ولكنه بحكم خُلقه الرفيع وصفاته الممتازة وعسكريته الملتزمة ، لم يكن يستطيع أن يكون شيئا آخر غير هذا فكان بطلاً حتى وهو فى غياهب النسيان .

□

وأصبح رشاد مهنا يمثل صورة من صور البطولة التى لم تحقق شيئاً ذا بال فى مقاعد الحكم والسلطة ، ولكنه كان بكيانه رمزاً للقوى الوطنية التى حكمت مصر بعد ذلك حتى ولو كانت قد

حاكمته هو نفسه بتهمة التآمر عليها، وكان بسلوكه إرهاصاً لعسكرية مصرية تنعم بالكفاءة والسلوك المستقيم، وهو الطابع الغالب على قواتنا المسلحة منذ انضمت إليها جماعات متتالية من أبناء الشعب بعد ١٩٣٦ وقادتها هذه الجماعات بعد ١٩٥٢، وكان بفكره بشيراً بهذه الثورة التى لم تلبث أن أصبحت حقيقة واقعة ومستمرة به وبدونه، وبه أو بدونه.

وحتى ماقبل وفاته بأعوام قليلة كان رشاد مهنا يدلى من حين لآخر بأحاديث صحفية قليلة وهادئة، فلم يكن نادماً على خير قدمه حتى وإن جوزى بشر، ولم يكن أيضاً باكياً على حظ فاته، ولا متعطشاً لتكريم هو أكبر منه بالطبع، ولم تغره الدنيا بأن ينشر مذكراته أو أن يطلب شيئاً مما كان يستحق.

وسيبقى هذا الرجل نموذجا حياً فى تاريخنا المعاصر للمأساة التى تصنعها أحداث التاريخ من حين لآخر حتى تكون صورة التاريخ فى النهاية هى الحياة التى نحياها وهى الحياة الدنيا.

نشرت عقب وفاته مباشرة فى جريدة الأهرام تحت عنوان: «رشاد مهنا: نموذج حى فى تاريخنا المعاصر».

محمد طلبة عويضة

أرجو أن تأذنوا لى حضراتكم أن أستعمل الأرقام كبدايات لفقرات حديثى اليوم عن أستاذنا الجليل ، فهو رجل الأرقام ، وهو صاحب الإنجازات التى تتحدث عن نفسها بالأرقام

□

أربعون حولاً من الزمان قضاها رجلنا العظيم فى مواقع التعليم الجامعى منذ تعيينه معيداً فى قسم الرياضة من كلية العلوم الأولى فى مثل هذا الوقت من عام ١٩٤٣ ، عقب تخرجه بمرتبة الشرف الأولى ، نصفها الأول أو أقل فى مواقع هيئة التدريس ، ونصفها الثانى فى ثلاثة مواقع بارزة من العمادة فوكالة الجامعة فرئاستها . كان فى النصف الأول الأستاذ القدير المتمكن ، فى الرياضيات البحتة ، وفى رياضيات الماليات والتأمين ، ثم كان فى النصف الثانى علامة بارزة فى التمكن من الإدارة ، والقدرة على

تحقيق الأهداف، وخلق الأهداف التى لم تتوقعها الأمانى ولا راودت أهلها فى الأحلام، وإضافة الأبعاد المعاصرة إلى العملية التعليمية فى مستوييها الجامعى والعالى، بل وفى المستويات الأخرى، وإعطاء الجامعة أكبر قدر من الدفع يهيئ لها التطور الذاتى الذى هو أرقى أنواع التطور.

□

اثنان وعشرون مشعلاً أضاءها الرجل القدير، وجعل فيها من القوة والقدرة والكلاسيكية والعصرية والانسجام والتواءم والتكامل ما ليس فى غيرها، وما لم يكن ليتأتى لها من غيره، وقد كانت أربعاً فقط تستمد نورها من خارج حدودها، فتؤثر فيها عوامل الزمن والمسافات فجاءها الله بصاحب الأصابع السحرية والأيادى الذهبية التى غيرت وجه الحضارة فى إقليم (بل إقليمين) من أقاليم مصر لتقفز به عبر الزمان يقولون سبعين عاماً، لكن بودى أن أسأل: ومن كان يكفل لنا أن يتحقق هذا فى سبعين عاماً؟ إلا أن هيأ الله الرجل الذى بذل ما بذل مما أتاه الله، فكان ما ترون مما آتانا الله من أبواب مفتوحة لمئات الألوف يتلقون التعليم الجامعى فى جامعة لا تدعى أنها، لكنها، تسبق إلى الإنجازات، والإرهاصات، والأنشطة، ومحبة الأفئدة: مراكز

خدمات متقدمة، ومعاهد بحوث متطورة، كليات ناهضة، وأقسام متكاملة، أبنية شامخة، وإدارة سلسلة، كل ذلك لأن الجامعة كانت فى فكر الرجل الكريم منارة، وليكن و قودها من غالب أهل البلد، وليكن نورها لأغلب أهل البلد، فإن تكن فلتكن واجهتها من ذهب، وليكن باطنها خالياً من الحسد، فإن تكن إمارة فللعلم فيها الصدارة، وللفن فيها الإدارة.

□

صفات ثمان تحلى بها أستاذنا الكبير فخرجت به وبنا إلى الآفاق الرحبة الواسعة، آفاقاً من وراء آفاق، وكأنى بحضراتكم جميعاً تدركون معى المعنى المعجمى للأفق على أنه منتهى النظر، وعلى هذا فإنه يستحيل علينا أن نعبر عن هذه الآفاق التى جنح إليها الرجل بهذا اللفظ إلا إذا كنا نضع فى الحسبان أعظم نعمة وهبها الله للرجل وهى «بُعد النظر» الذى لم يكن لأحد من معاصريه، ولهذا كانت له آفاقه التى لم تكن لأحد منهم ولكنها آتت أكلها لهذا الجمع الكبير ولجموع أخرى.

□

ثم تأتى بعد «بُعد النظر» عقلية رياضية ممتازة استوى عودها

بدراسة علم الرياضة، وبتدريسه، وتطبيقه، نمت أصولها من جذور علمية، ثم استزادت وترعرعت مع الخبرة بالحياة، ومثل هذا القدر من قدرة العالم المتخصص مع العمل بعلمه فى المجالات التى يُظن أنها قد تكون بعيدة عن بعضها، هو أروع مثل يعبر عن الأصالة العلمية، لا أقول فى سلوك عالمنا العظيم فحسب، ولكن فى آثاره وأعماله التى ستبقى على الزمان.

وفى المكان الثالث من هذه الصفات السبع قلب كبير إذا كان للعاطفة فيه أثر فهى العطف والحب الكبير الذى شمل، وظلل، وتحمل، قلب ينبض فتنبض معه الأعمال العظيمة المتلاحقة، وينبضه بعد ذلك نجاح هذه الأعمال العظيمة المتلاحقة فى سلسلة متواصلة من النجاح يقود إلى النجاح والإنجاح.

□

ومع القلب الكبير لسانان، لسان الحال ولسان المقال مجتمعين، أحب أن أصفهما لكم فلا أجد خيراً من القول بأن الدكتور طلبة كان فى كل ما قدم أروع مَنْ انطبقت عليه الفكرة المثالية التى عبر عنها الرئيس الأمريكى الأشهر «فرانكلين» حين كان يقول: «كما أننا يجب أن نُحاسب على كل كلام فى غير

موضعه، يجب أن نحاسب عن كل صمت فى غير موضعه».
وحقيقة أن الدكتور عويضة لم يكن يترك لحظة من غير عمل يتكلم، على الرغم من أنه وُجد فى عصر كان يَغْنم فيه من آثر السلامة. كان السكون والسكوت من ذهب، على حين لم يكن البناء يجلب إلا النقد والحقد المرير.

□

سادس عناصر النجاح أنه كان يؤمن بالانفتاح فى الفكر والعلم والتعليم والجامعة، وكان لا ينى عن التعبير بذلك، بأفعاله أكثر كثيراً جداً من أقواله، فإذا ما سئل فى ذلك لم تكن إجابته إلا على النحو الذى عبر به شاعر المهجر إيليا أبو ماضى للذين زعموا أن أهل الحقيقة هم ساكنو الدير فقال:

قيل أدرى الناس بالسر سكان الصوامع
قلت إن صح الذى قالوا فإن السر شائع
عجبا كيف ترى الشمس عيون فى براقع
والتى لم تتبرقع لا تراها . لست أدرى

ثم كانت له همة عالية لا تثنيها الصعاب ولا تهزها العواصف ولا تعوقها العقبات، ولا تثبط من عزمها الشدائد، ولا تقف فى

طريقها آثار الغابرين ولا لوائحهم . . وإنما تزداد همته مع الأيام عزماً وحزماً وقدرة وومضاء ووضاءة . . همة تزودها الخبرة بالقدرة على النفاذ على حين أن عهدنا بالخبرة تغرى بالنكوص متعللة بالاستنفاد . . همة أتيح لها أن تبنى وتربى ، وترقى ، وتسرى .

وثامن هذه الصفات أن الرجل كان من طراز نادر ، اجتمعت فيه صفات ثلاث عبر عنها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم فى أحاديث ثلاثة : «خير الناس أنفعهم للناس» ، «إن لله عباداً اختصهم بقضاء حوائج عباده» ، « هل أدلكم على أقربكم منى مجلسا يوم القيامة . . إلى أن قال عليه السلام : الموطئون أكنافاً . . الذين يألفون ويؤلفون» .

□

بذل الدكتور طلبة عويضة جهداً كبيراً فى تكوين هيئات التدريس لكليات جامعة الزقازيق ومعاهدها المختلفة ، فى الزقازيق وفى بنها وفى مشتهر ، وكانت هذه المسألة من أشق المسائل فى جميع وجوهها ، فى ظل ظروف اقتصادية صعبة ، وفى ظل إغراءات مادية ومعنوية متعددة فى الجامعات العربية فى

الوقت الذى نشأت فيه من هذه الجامعات متزامنة مع جامعة الزقازيق، وفى ظل ظروف صعبة تجعل الأساتذة يفكرون ألف مرة قبل أن يتركوا العواصم الأولى ويذهبوا إلى مدينة أخرى يعانون من عذاب المواصلات ومن جحيم مشكلة للسكن.

التفت الدكتور طلبة عويضة إلى كل عوامل الطرد، واستطاع بحنكته ومهارته أن يحولها إلى عوامل إغراء، ومع أنه استقطب كل هيئات التدريس هذه عضوا عضوا، إلا أنه مع ذلك وضع من الخطط العامة ما ساعده على أن يجعل من فاوضهم يحسون أن الزقازيق أقرب إلى ميدان التحرير من مصر الجديدة بفضل مرفق نقل خاص نما للجامعة واطرد نموه على نحو جدير بكل تقدير.

وأصبح الشعور السائد بين الجامعيين أن العمل فى جامعة الزقازيق ذات الجهاز الإدارى السلس الذى يعرف أنه فى خدمة العلم والعلماء يوفر من كل أسبوع أكثر من نصفه، الذى هو كفيل بالضياع فى الجامعات أو المصالح الأخرى، لأن الروتين الذى هناك يغلب عليه طابع التقييد، أما الروتين الذى فى الزقازيق فطابعه الإنطلاق بأصحاب المصالح إلى مصالحهم، وعرف الأساتذة أن فى وسعهم إذا كانوا فى جامعة الزقازيق أن يكون لهم حضور دولى فى المجالات العلمية، أكثر من ذلك

الحضور الذى يتهيأ لهم وهم فى الجامعات القديمة. وسمع الناس بكثير من المؤتمرات والندوات والاجتماعات الدولية تعقد فى الزقازيق، فتلقى من التنظيم والمعاونة الإدارية الحفاوة الاجتماعية والعون المادى، ما يصل بها إلى هدفها فى سهولة ويسر. وما يتيح من الوقت لأصحابها قدراً يتدارسون فيه فيخرجون بحصيلة علمية وتعاون علمى لم يكن ليتاح لهم فى المؤتمرات التى تعتريها الصعوبات، وتكتنفها المشاق، ويعطلها الروتين أو الإهمال أو الزحام أو كل ذلك معاً، وتسامع الموظفون بمدى النشاط المتزايد الذى يتاح لموظفى الجامعة الشبان أن يقوموا به فيعود عليهم بالخبرة الجديدة، والعلاقات الاجتماعية، والمكافآت المالية، فأصبحت النظرة إلى العمل فى جامعة الزقازيق على أنه من الفرص المرموقة التى يحسد أصحابها على حظهم فيها.

ومع هذا كله لم يقف الدكتور طلبة عويضة ذات يوم ليقول إن جامعته قد بلغت مداها من حاجتها لكبار الأساتذة أو صغارهم، وإنما كان يود لو أتيح له أن يزيد من هذه الهيئات كل يوم. وتلك شيمة من شيم العلماء الأصلاء، لا يفيها حقها من التعبير إلا أن نتأمل فى قول الدكتور طه حسين «ويل لطالب العلم إن رضى

عن نفسه»!

□

أما جهده فى مبانى الجامعة فقد كان مضرب الأمثال للهمة التى لا يقف فى طريقها أن ليس فى طريقها شىء يساعدها على الإطلاق، إلا روح الإيمان، وقد لا يصدق الذين يشاهدون هذه المبانى العملاقة تتوالى وراء بعضها على شاطئ بحر مويس أنه لم تكن وراء إقامة هذه المبانى غير روح هذا الرجل العظيم.. لم يكن هناك جدار واحد من كل هذه الصروح العملاقة قبل أن يثب الدكتور طلبة تلك الوثبة القياسية التى لم يحطم رقمه فيها أحد ولا فى بلاد الثروات.

ومن ذا الذى يصدق أن هذه المبانى تقوم على النحو الذى تقوم عليه، ولم يكن لجامعة الزقازيق من ميزانيات غير ميزانيات نظائرها من الجامعات الإقليمية.

□

يحكى الأستاذ على البطراوى أن الدكتور طلبة عويضة قال له فى مطلع عملهما بالجامعة إن علينا أن نسابق الزمن فى بناء

جامعاتنا، فقال له: ومن أين بالأموال؟ هنا أجاب الرجل الرياضى بعقليته وبقوة بصيرته: نبنى بميزانية السنة القادمة. وكان هذا سر النجاح المذهل الذى نراه جميعا ملموساً، محسوساً، مجسماً، مجسداً للآلام، والحق أن طلبة عويضة لم يبن بميزانية السنة القادمة لكنه بنى بميزانية عشرات السنوات القادمة.

وسوف تظل هذه الصروح ما قدر لها أن تعيش رمزاً لهذه العزيمة الجبارة التى كانت تبنى ثم تبحث عن الأموال لتسدد بها ثمن ما تم بناؤه، على حين كانت الأمور فى النظائر تسير على العكس تماماً. فإذا استقامت أمور سياستنا وتنفيذها فى نواحى التشييد بعد أعوام أو بعد أجيال، وأراد أهل تلك الأجيال أن يدركوا قيمة وحجم الجهد الذى بذله هذا الرجل فليعودوا إلى صفحات الصحف التى كانت تسجل باباً للمبانى التى لم تتم، فلم يتم هذا الباب حصر عُشر هذه المبانى!.

ولعل هذا هو ما دفع البعض أن يعبروا عن هذا المعنى بأن الدكتور طلبة عويضة كان يزرع مبانى جامعة الزقازيق، والحق بلا مراء أنه كان يزرع فى الشتاء ويحصد فى الصيف، وكان يزرع فى الصيف ويحصد فى الشتاء، وكانت له فى كثير من الأحيان

القدرة على جعل السنة التشييدية ثلاث دورات .

□

أما النشاط الجامعى ، فقد ضربت فيه الجامعة على عهده بسهم وافر ، مكنها وهى الجامعة الناشئة من أن تصعد درجات مجده فى سنوات معدودة على الأصابع ، وأن تتربع على قمة الأنشطة الجامعية فى المسابقة التى ينظمها المجلس الاعلى للشباب والرياضة لثلاث سنوات متصلة .

وأستطيع أن أقول إن الفضل فى ذلك كان مرجعه فى الدرجة الأولى إلى السياسة التى انتهجها الدكتور طلبة وفريقه فى معالجة أنشطة أبنائهم من الطلاب ، وأول أركان هذه السياسة هو ذلك الشعور الفياض الذى غمر كل أولئك على مدى السنوات التسع التى قضاها الرجل من أن أموال النشاط وسيلة إليه ، لا غاية فى حد ذاتها .

□

ومن هنا لم يكن الدكتور طلبة عويضة حين يوافق للأسر والجماعات والاتحادات الطلابية على مبالغ المال التى لم تكن تحظى بها الأسر والجماعات والاتحادات الطلابية فى الجامعات الأخرى ، يؤلف القلوب ، لكنه كان يحيى العقول ، والأهم من

ذلك أن إمكانات النشاط من الأصول الثابتة بالإضافة إلى المال والقوى البشرية كانت متاحة دوماً أمام الجميع فى سهولة ويسر عجيبين .

لهذا السبب لم يوجد فى جامعة الزقازيق أبداً ذلك النوع من زعماء الطلبة الذين يكونون محل الشبهات فى أمور السياسة أو المجتمع ، لأن رب هذه الأسرة لم يكن من النوع الذى تساعد تربيته لأبنائه على نمو هذا السلوك فيما بينهم ، ولم يكن فى جامعة الزقازيق أبدا ذلك الصنف من محترفى النشاط أو الانتخابات ، لأنه لم يكن فيها من عوامل الإهمال ما يساعد العفن على النمو ، ولأنه لم يكن فيها من صعوبة الاتصال بالكبار ما يساعد على نمو الطفيليين ولا الطفيليات .

□

وقد توفر للدكتور طلبة ذلك الإيمان العميق بالعائد غير المنظور لكل منشط جامعى ، على الرغم مما قد يقود إليه الظن فى رجل علم بحت ، لكن النفاذية والشفافية العميقتين اللتين كانتا عنده وهو يعمل على أن تكون الجامعة مصدر إشعاع حضارى بكل المعنى الجامع الذى تعنيه كلمة الحضارة على مر الحضارات ،

كانتا أقوى من كل الظروف التى كانت مهيأة لأن يرتكن إليها الرجل ليكف عن ذلك السيل الفياض من التشجيع فى كل صوره لكل صور النشاط .

وقد أثبتت التجربة أن النشاط نفسه كان كفيلاً بأن يبرز ما هو أصلح ، وأن يبقى ما هو أخلد ، وأن يفرز ما هو أنفع ، وأن تبقى بعد ذلك كل المحاولات الأخرى بمثابة الدروس والتجارب والعبر التى يتولد معها بعد ذلك النفع أو النجاح أو الخلود أو كل ذلك معاً .

□

وحين شرع الدكتور طلبة عويضة فى إنشاء معهد الكفاية الإنتاجية لاقى من عنت الهجوم بالباطل أضعاف ما عانى من مديح على الحق ، ولكنه لم يتردد لحظة واحدة فى المضى قدماً نحو تحقيق آمال سامية تتمثل فى تجديد الأذهان بالعلم ، فمهما قيل عن مسألة الكوادر ، وكبر السن أو صغره ، وعدم الحاجة إلى هذه الطائفة ، مهما قيل فى هذا الشأن ومع أن هذه الأقوال مجرد مقولات حق اريد بها باطل ، فإن السمة الرئيسية والعلامة البارزة فى إنشاء معهد الكفاية الإنتاجية ، تبقى ماثلة فى أنه يجدد شعلة

المعرفة ، وسوف يجدد شعلة المعرفة ، وفى كلتا الحالين فإنها المعرفة المنظمة . . ولعمرى هل الغاية العظمى للجامعات منذ نشأت إلا هذا التجديد لشعلة المعرفة .

لن يدرك قيمة معهد الكفاية إلا رجل خاطب الجماهير ، وخاطبته الجاهير ، وأحس بمدى الحاجة إلى أن يرتفع بمستوى طائفة من الناس بأقل التكاليف ، ولو كان عندنا معاهد تتولى دراسة العقليات والنفسيات لسجلت لنا بعد سنوات قلائل ذلك الأثر الهائل الذى سوف يتركه معهداً الكفاية على نفسيات وعقليات وقلوب وكفاءات ما يزيد على العشرين ألفا من الذين قبلهم المعهد فى عهد الرجل العظيم .

□

وقد أنشأ الدكتور طلبة عويضة معهداً للتكنولوجيا الطبية ، وجعله يستقبل طلابه فيما بعد الإعدادية مباشرة ، ولم تظهر بعد ثمرات هذا المعهد ، ولكنها حين تظهر فسوف سوف ندرك على أقل تقدير المدى الذى تستطيع فيه تجربة التخصص المبكر أن تحقق نجاحها ، وسوف يكون لنا من خبرتنا فى هذا المعهد الأساس القوى المتين الذى نستطيع أن ننطلق على هديه فى إنشائنا

للجامعات التكنولوجية المتوسطة، التى لابد أن يأتى اليوم الذى نؤمن فيها بقيمتها، ونسعى إلى إقامتها.

□

على أن هذين المثلين فى معهدى التكنولوجيا الطبية، والكفاية الإنتاجية يلقيان لنا الضوء على هذا الإيمان الذى كان عند الرجل بأهمية تنمية التعليم التكنولوجى، على الرغم من كل الظروف غير المشجعة التى تتزامن مع الأسف مع تنامى الاحتياجات القصوى لمجتمعنا فى شىء من التنافر يقود إلى الاندهاش.

ولعل الدكتور طلبة قد أسهم بالطرقة الأولى على هذه الحلقة، ولعله خطط للضربة الثانية حين كانت فكرته فى أن تكون طالبات المعهد العالى للتمريض الذى أصبح على وشك افتتاح أبوابه من خريجات مدارس التمريض المتوسطة .

روى الدكتور محمد عبداللطيف أن الدكتور مصطفى كمال حلمى نائب رئيس الوزراء حين تحادثا فى تكريم الدكتور طلبة، لفت النظر إلى أن أثر الدكتور طلبة فى تاريخ التعليم المصرى، لم يكن مقتصرا على الشرقية أو القليوبية، وإنما هو أثر قومى لا يقل

بحال من الأحوال عن تلك الآثار التى كانت لعلى مبارك أو لرفاعة الطهطاوى .

والحق أن التاريخ القومى حين يؤرخ لنهضتنا التعليمية بعد حرب أكتوبر ، فسوف يذكر بكل التقدير العميق ذلك الأثر البارز الذى أحدثه كل من الدكتور عبدالحليم محمود والدكتور محمد طلبة عويضة على التربية والتعليم فى مصر ، بفضل الخطوات الواسعة والجريئة التى لم يتوانيا عنها لحظة واحدة ، وإذا كنا نفخر بأننا كهربنا الريف كله ، وإذا أتيح لنا أن نفخر فى المستقبل أن نمد مياه الشرب النقية إلى كل رجا من أرجاء مصرنا ، وإذا . . وإذا . . فسوف نذكر تلك النوافذ والأبواب التى تعد التى فتحها هذان الرجلان بأقصى ما وسعهما من قدرة أتاهما الله .

□

وإذا ذكر التاريخ للدكتور طه حسين قولته : «إن التعليم كالماء والهواء» ، فسوف يذكر للدكتور طلبة فضل فى توسيع هذه القاعدة على مستوى التعليم الجامعى .

وإذا ذكر التاريخ للطفى السيد تلك الروح المحافظة التى

سرت منه إلى أساتذة جامعة القاهرة فى عهدها الأول طوال خمسة عشر عاما ، فسوف يذكر لطلبة عويضة أنه كون فريقاً ليس فيه واحد يظن أنه أحسن الناس .

وإذا ذكر التاريخ لكامل حسين كيف صاغ فى جامعة عين شمس تلك الارستقراطية العلمية الرفيعة ، فسوف يذكر لطلبة عويضة كيف صاغ فى الزقازيق تلك الديمقراطية العلمية المحببة .

وإذا ذكر التاريخ لسليمان حزين تلك القوة والجسارة التى أنشأ بها جامعة أسيوط متمتعة بنفوذ قوى من يومها الأول ، فسوف يذكر لطلبة عويضة تلك الهمة والمخاطرة التى لا تقل عن جسارة الدكتور حزين ، رغم اختلاف الظروف وازدياد المصاعب بتقدم الزمن .

وإذا ذكر التاريخ لطه حسين ومصطفى عامر والفريق الذى أنشأ جامعة الإسكندرية كيف استطاعوا أن ينموا بالوليد بقوة بعيداً عن أمه التى بلغت سبعة عشر عاماً يومها ، فسوف يذكر التاريخ لطلبة عويضة كيف استطاع أن ينمو لا بمولود واحد وإنما بمواليد عديدة من أمهات عديدة اختلفت أعمارها ومعظم

صفاتها . . ومع هذا خرج بهؤلاء فى وحدة عائلية رائعة .

وإذا ذكر التاريخ للشيخ الباقورى أنه استطاع أن ينمى فى جامعة الأزهر القدرة على استيعاب الكليات الحديثة وهيئات تدريسها إلى جوار الكليات القديمة والتقليدية فسوف يذكر التاريخ أن طلبة عويضة استطاع أن يطور من فرع جامعة عين شمس بكلياته الثلاث جامعة جديدة من اثنين وعشرين كلية لايستطيع أحد أن يصدق أنها كانت فرعاً لعين شمس لأنها فاقتها فى لمح البصر .

كتبت هذه الكلمة عند إحالته ـ رحمه الله ـ للتقاعد فى أكتوبر ١٩٨٣ .

محمد عبدالهادى

فقدت مصر بوفاة الدكتور محمد عبد الهادى واحداً من علمائها الدوليين الذين يظل ذكرهم ممتداً فى الحياة العلمية لفترات طويلة بفضل الإخلاص الشديد لما تعلموه ، والتوظيف الجيد لبحوثهم فى خدمة وطنهم وأمتهم فى جميع المجالات .

كان ـ رحمه الله ـ أبرز علماء المهجر الذين تغلب عليهم الحنين للعودة إلى مصر فى أوائل السبعينات حين كانت مصر فى أصعب حالاتها ، وبفضل علمه من ناحية وبفضل روح الترحيب الرسمية والأهلية بعودة علمائنا المهاجرين أتيح له موقع مرموق فى أكاديمية البحث العلمى (الناشئة لتوها فى ١٩٧١)، والتى هى (بلا شك) أفضل مؤسساتنا التى أسسناها من أجل خدمة البحث العلمى والتكنولوجيا ، واستطاعت الاكاديمية أن تدبر لهذا العالم فى مبناها مقراً للمركز العظيم الذى أسسه فى مصر

من أجل الاستشعار من البعد، حين لم يكن مردود هذا المصطلح يومها أكثر من أنه مجرد لفظ بلاغى ومعنوى جميل، وقد أفاد عبد الهادى من علاقاته الدولية ومن مكانته العلمية فى المجتمع العلمى الامريكى حتى أصبح لمصر هذا المركز الممتاز الذى مكن بلادنا من أن تعرف على وجه اليقين والتحديد حجم ثرواتها الطبيعية التى لاتزال مدفونة فى أرضها . . . وإن لم يكن عبدالهادى ومركزه بالطبع مسئولين بعد ذلك عن استثمارنا لهذه الموارد والثروات.

□

وطيلة ربع قرن من الزمان لقىّ محمد عبد الهادى كثيراً من التعاون والتشجيع والثناء من هيئات كثيرة عمل معها وقدم لها خدماته ، كما اضطر نفسه عن عمد وإصرار إلى الدخول فى خلافات حادة ومتكررة مع كثير من المسئولين لم تزده إلا إصراراً على ما يعتقد، وأتاحت له مكانته العلمية أن يتبوأ منصب نائب رئيس أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا ثم رئاستها فى ١٩٨٦ ليكون الرئيس السادس لهذه الأكاديمية ولكن كان ينتظره صراع تقليدى لم تفرط الدولة فى خلقه واستخدامه من باب ممارسة القدرة على خلق صراعات من حين لآخر بين كبار

العاملين فيها، وكان هذا الصراع يدور بين مَنْ يعين وزيراً للدولة للبحث العلمى وهو منصب وزارى بلا وزارة، وبين رئيس أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا وهو منصب علمى رفيع محدد المعالم والاختصاصات منذ وضع الدستور الدائم فى ١٩٧١.

□

وكان من قدر محمد عبد الهادى أنه بعد توليه رئاسة الاكاديمية بفترة قصيرة أسند منصب وزير الدولة للبحث العلمى إلى وزير سياسى نشط تنفرد به وزارة الدولة هذه ولم تكن إضافة إلى مسئولياته أخرى له، وكان من المنطقى أن يتكرر مع عبد الهادى الخلاف العميق الذى بين وزير الدولة، ورئيس الأكاديمية، وقد ضحى محمد عبد الهادى بالوظيفة وبما كان ينتظره من مستقبل سياسى قريب لو كان قد نفى عن نفسه ولو إلى حين اعتداده اللامتناهى برأيه، واحترامه لشخصه، وتصميمه على مايراه حقاً، وأُبعد محمد عبد الهادى عن منصبه، ولكنه لجأ إلى القضاء الذى أعاد إليه حقوقه، وكانت قصة طويلة تنبئ بكل وضوح عن أهمية الوعى بقيمة العلماء والحفاظ على كرامتهم، وتحقيق الاستقلال لمؤسسة العلم فى

مصر وهى أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا. اذا ما أردنا التعبير الجيد عن الأمل فى الافادة من العلم والتكنولوجيا . . . .
وأنا أقول «التعبير عن الأمل» لأنه يبدو أنه لازالت بيننا وبين تحقيق هذا الأمل خطوات كثيرة.

□

وعلى المستوى العلمى والتطبيقى حقق محمد عبد الهادى كثيراً من الإنجازات الرائعة ، فقد أتاح لعلوم الاستشعار من البعد أن تشارك فى كثير من الدراسات العلمية لمشكلاتنا القومية والبيئية الراهنة والمتوقعة ، وأتاح لنظم المعلومات أن تأخذ مكانها فى الهيئة التى أسسها ، وقد أفاد من نظم المعلومات المتقدمة فى تقديم خرائط علمية وجيولوجية دقيقة لثرواتنا المعدنية وفى ربط دراساتنا البيئية بالدراسات الدولية ، وقدم عبد الهادى خدمات بلا حدود لوزارات الزراعة والدفاع والأشغال والموارد المائية وشئون البيئة والثروة المعدنية من أجل المسح العلمى الدقيق لثرواتنا ،واستخدم الطائرة (لأول مرة) فى تصوير ومسح الاراضى المصرية، وإليه يرجع الفضل فى الخرائط المساحية الحديثة التى تمت فى عهد وزارة كمال حسن على وتحددت بها على وجه اليقين حدود الريف من الحضر فى جميع المحافظات،

كما قدم صوراً رائعة لقناة السويس ، وشارك فى تقدير المشكلات الجيولوجية المتعلقة بالزلازل وبالانهيار الذى حدث فى المقطم، وتولى تحليل كل هذه البيانات بصورة علمية وتقديمها لكل الجهات والوزارات المسئولة .

□

وكان محمد عبد الهادى بحكم مكانته العلمية قادراً على أن يقدم لوطنه كل ماهو متاح عن أرض هذا الوطن فى شبكات المعلومات والأقمار الصناعية الأمريكية ، واستطاع تحقيق التواصل بين مركزه وبين تلك الأقمار الصناعية ، كما كان صاحب فضل بارز فى تحقيق المسح الشامل لثرواتنا المعدنية

وقد ظل عبد الهادى واحداً من أبرز علمائنا المعاصرين فيما حقق من صلات دولية ، فقد عمل مستشاراً علميا لسلاح المهندسين الأمريكين ولهيئة بحوث الأسلحة بالجيش الامريكى منذ ما قبل عودته لمصر ، كما عمل أستاذا زائراً بجامعة قطر طيلة عشر سنوات (٧٥ـ ١٩٨٥) وأستاذا زائراً بمركز دراسات الجيولوجيا التطبيقية فى السعودية ، وخبيراً استشاريا لمنظمة الأغذية والزراعة (الفاو)، وظل أستاذا غير متفرغ بجامعة

أوكلاهوما بالولايات المتحدة بعد عودته إلى مصر ، وكان قد عمل فى هذه الجامعة مدرساً واستاذ مساعداً منذ ١٩٦٣ بعد حصوله على الدكتوراه من جامعة ألينوى .

□

وعلى المستوى القومى كان واحداً من أعضاء الأمانة العامة لهيئة مستشارى رئيس الجمهورية فى نهاية عهد الرئيس السادات ، كما كان عضواً فى المجلس الأعلى للمرور ، وتولى تقديم الاستشارات لعديد من مشروعات التنمية التى أقيمت فى مصر بالتعاون مع هيئة المعونة الأمريكية والبنك الدولى للانشاء والتعمير .

وترك من المؤلفات أكثر من مرجع فى الميكانيكا الهندسية للتربة ، وفى الاستشعار من البعد ، وكتب عبد الهادى مبكراً جداً (١٩٨٢) عن الفضاء الخارجى كبعد جديد فى سباق التسلح (وهو ماعرف فى عهد ريجان بحرب الكواكب) ، وكان على الدوام على صلة ممتدة بالتقدم العلمى فى مجال تخصصه .

□

وفى أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا واصل عبد الهادى

جهود أسلافه العظماء فى تنشيط مجالس البحوث النوعية ، وفى تنمية دور المركز القومى للبحوث واتصاله بالمجتمع ، وفى توسيع وتعميق الاتصال بالمجتمع العلمى الدولى . وحين عاد إلى وظيفته بحكم قضائى أسس لبلاده أول هيئة قومية تتولى رعاية مشروعات الاستشعار من البعد وأبحاث الفضاء(لأول مرة) ، وبذا حول الترضية التى قدمتها له الدولة لتكون موجهة إلى علمه و تخصصه لا إلى شخصه الدمث الرقيق المتواضع المنظم ، وكأن هذه الترضية كانت تطلب منه أيضا بث الروح فى علوم الفضاء فى مصر .

□

وقد كان من الندرة النادرة فى مصر المعاصرة الذين لا يأنفون من الاتصال بأى إنسان لايعرفونه لمجرد أن الآخر يريد أن يتصل به ، وكان يفعل هذا بنفس سمحة وخُلق رفيع ، ولم يكن يتأخر عن أى جهد يطلب منه لوطنه مهما كان الجزاء ضعيفاً أو منعدماً ، وقد شرفت بأن أنشر له مقالا طلبته منه عن مشكلة المرور فى المجلة البيئية لجامعة الزقازيق حين كنت أرأس تحريرها منذ ١٥ عاماً . . وقد كان من العلماء القلائل الذين يجيدون التعبير بأقلامهم عن الافكار العلمية ، وأعتقد أن السبب فى ذلك كان

بسيطاً وعظيما فى ذات الوقت وهو وضوح الفكرة فى ذهنه إلى أبعد الحدود .

كان له سمت العلماء من هدوء، و وقار ، وتواضع نفس ، وإشراقة محببة ، وابتسامة لاتغيب إلا لتتكرر ، وكان كثير السفر إلى الخارج ، ولكنه مع ذلك كان دائم الحضور فى وطنه . . . كان نموذجاً جديداً لشهيد الفكر فى المعركة مع الجانب المظلم من البيروقراطية الرفيعة ، لكنه مع هذا كله كان العالم والعلم القوى الشامخ الذى يشار إليه بالبنان . وقد اختلف مع كثيرين من الأفذاذ الأفاضل الذين كنت ولا أزال أحبهم وأعزهم وأقدرهم من علمائنا ومسئولينا ، ولكنى كنت أراه فى هذا الاختلاف المتكرر نموذجاً للرجل الممتاز الذى يتمتع بقدر كبير من الإيجابية العالية التى لابد لها من أن تختلف على الدوام ، ، فقد كان يتمتع بطاقات أكثر من قدراته .

رحمه الله رحمة واسعة وألهم وطنه وأسرته وعارفى فضله الصبر على فراقه .

نشرت تحت عنوان : «د. محمد عبدالهادى نموذج معاصر لشهيد الفكر . . معركة العلماء مع الجانب المظلم من البيروقراطية» .

[الوفد : ٢٣ فبراير ١٩٩٦]

محمد على فهمى

خاضت مصر حرب أكتوبر ١٩٧٣ بجيش وطنى متفرغ لوظيفته، ومجيد لمهمته، ومستعد للتضحية والفداء إلى أقصى حد، بل ومتعجل من أجل هذه التضحية ، وغير قادر على الصبر أو على الانتظار ، وبقدر ما كان تميز هذا الجيش بقدر ما تميز قادته العظام أيضاً .

ومن بين قادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة كان المشير محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى هو الذى استمر فى منصبه منذ عهد الرئيس جمال عبد الناصر ، أما الرئيس محمد حسنى مبارك فقد كان رئيسا لأركان حرب القوات الجوية فى عهد الرئيس عبد الناصر ، ثم اختاره الرئيس السادات قائداً للقوات الجوية فى ١٩٧٢ . . أما الفريق فؤاد ابو ذكرى قائد القوات البحرية فقد كان قائداً للقوات البحرية فى عهد الرئيس عبد الناصر منذ ما بعد نكسة ١٩٦٧ ، ثم عُزل من قيادة هذه القوات

عندما تم عزل المشير أحمد اسماعيل على من منصب رئيس أركان القوات المسلحة فى ١٩٦٩ عندما استطاعت القوات الاسرائيلية العبور والاستيلاء على أحد الرادارات فى إحدى عمليات التحدى السخيفة التى كانت تعبر بها عن غطرسة النصر فى أثناء حرب الاستنزاف. وما كان من الرئيس عبد الناصر إلا أن تصرف بعصبية ظاهرة لم يكن لها ما يبررها وعزل رئيس الاركان وقائد القوات البحرية وغيرهم. وحينما عاد المشير احمد اسماعيل وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة المصرية فى أكتوبر ١٩٧٢، عاد معه الفريق أبو ذكرى قائداً للقوات البحرية لينضم بذلك إلى زميليه المشير محمد على فهمى والرئيس مبارك فى قيادة الأفرع الرئيسية الثلاثة للقوات المسلحة.

وفى كل الاجتماعات التى عقدها الرئيس السادات مع قادة القوات المسلحة، كان السادات يؤكد على دور سلاحى الجو والدفاع الجوى، وكان يركز على الدور المطلوب من هذين السلاحين وقائديهما محمد وحسنى، وكان بعبقريته ملتفتاً إلى الأهم من هذين الدورين وهو أهمية تعاون الدورين معاً بدقة شديدة من أجل تحقيق النصر، ولم يكن مثل هذا ليتحقق لولا تمتع قائدى هذين السلاحين بأقصى ما يمكن للبشر أن يتمتعوا به من الحب والتقدير، ونكران الذات، والموضوعية الشديدة،

وإعلاء المصلحة العليا والهدف النهائى فوق كل اعتبار .

ولا يمكن أبداً أن نتصور النجاح الذى تحقق منعزلاً عن أن يكون هذان الرجلان حسنى مبارك ومحمد على فهمى قادرين إلى أقصى ما يمكن على التجرد التام فى كل تصرفاتهما من كل النزعات البشرية والأرضية ! والذين يعرفون تاريخ الرجلين قبل ١٩٧٣ وبعد ١٩٧٣ يدركون تمام الإدراك أنهما كانا كذلك بلاجدال .

□

قبيل ١٥ مايو ١٩٧١ كان المشير محمد على فهمى أحد القادة البارزين الذين يعتمد عليهم الفريق أول محمد فوزى نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة وقتها ، ويروى الفريق أول محمد فوزى نفسه فى مذكراته أن المشير محمد على فهمى (اللواء وقتها) قد راجعه وألح عليه فى ألا يستقيل مع مجموعة الوزراء الذين استقالوا فى ١٣ مايو ١٩٧١ مما دفع الأحداث إلى قيام السادات بحركته التصحيحية . . وعبارات الفريق فوزى فى مذكراته وسام على صدر المشير محمد على فهمى الذى كان واعيا تمام الوعى لحدود القائد العام فى تصرفاته وقراراته ، وحاول جاهداً أن ينصح قائده العام دون أن

ينتصح هذا القائد العظيم ، ولكنه لحسن الحظ روى الواقعة فى مذكراته ليدلنا على أن أصحاب الرؤية المتجردة ينبئون منذ مراحل مبكرة عن مدى ولاءهم الصادق لوطنهم فى أحلك اللحظات دون أن تخدعهم الانفعالات أو تقودهم إلى مسالك لاتنتهى إلى تحقيق المصلحة العليا لوطن كان يمر بأحلك اللحظات .

□

ومع هذا فقد عمل محمد على فهمى بعد ذلك تحت قيادة ثلاثة وزراء حربية آخرين وكان فى عمله مثالاً يحتذى فى الجد، والإخلاص، والتفانى، ونكران الذات، والتجويد، والسمو، والالتزام ، والرؤية الثاقبة ، والخطوة المنضبطة .

وهكذا عمل محمد على فهمى دون أدنى حساسيات تحت قيادة الفريق أول محمد أحمد صادق، ثم المشير احمد اسماعيل، ثم زميله المشير الجمسى كوزراء، كما عمل من قبل تحت قيادة عبد المنعم رياض، وأحمد إسماعيل، وصادق، وسعد الشاذلى، والجمسى كرؤساء للأركان، على الرغم من أنه فى أقدميته العسكرية كان يسبق الفريق الشاذلى وعلى الرغم من أنه زميل دفعة المشير الجمسى . . ومع هذا فإن أحدا من هؤلاء القادة العظام (وبالذات محمد على فهمى وحسنى مبارك) لم

يكن ليفكر لحظة واحدة فى مثل هذه الترهات التى قد تعكر صفوة حياة المهنى منا طيلة حياته !! .

□

وفيما بعد أكثر من سبع سنوات من واقعة محاولته إثناء الفريق محمد فوزى عن الاستقالة ، شاء القدر لمحمد على فهمى أن يشهد موقفا مناقضا تماماً رواه لنا المشير الجمسى ولم يروه محمد على فهمى ، وقد كان على المشير الجمسى أن ينهى إلى محمد على فهمى أن الرئيس السادات قرر إنهاء عملهما هما الاثنين كوزير وقائد عام ورئيس للأركان على أن يخلفهما كل من كمال حسن على وأحمد بدوى ، وكان الجمسى ينهى النبأ إلى زميله وصديقه وهو متأثر من أن يختار السادات هذا التوقيت (٥ أكتوبر ١٩٧٨) لمثل هذا القرار . ولكن محمد على فهمى الذى كان بملابس الميدان وهو يتلقى النبأ كان على النقيض من المشير الجمسى حسبما يروى الجمسى نفسه . وكان يدعو زميله المشير الجمسى ويقنعه بأن يحمد الله على هذه النعمة التى جاءت فى وقتها وأن تنتهى خدمتهما وهما فى عز مجدهما ، وكان يذكر زميله وصديقه بمصير من سبقوهم .

وهكذا كان محمد على فهمى فى ذكائه وثاقب بصيرته

واستيعابه لحركة التاريخ، وفى اليوم التالى حضر محمد على فهمى العرض العسكرى على حين اعتذر الجمسى عن الحضور ، وقبل منصب المستشار العسكرى لرئيس الجمهورية بسعادة على حين قبله الجمسى على مضض وسعى للخروج منه ، وهكذا بقى محمد على فهمى رمزاً على الدوام للجندى المحترف السعيد بكل مواقعه وبكل ما أداه دون أن يظن نفسه اكبر من موقع أو أهم من آخر .

□

لست أظننى فى حاجة إلى الحديث عن دوره فى بناء القوة الرابعة : سلاح الدفاع الجوى، ولكنى سأذكر للقراء مثلاً واحداً ينبئا عن مدى الجهد المتجرد الذى بذله هذا الرجل ، فقد كان بمثابة الوحيد فى تاريخنا العسكرى الذى عين مساعداً لوزير الدفاع قبل أن يعين قائداً لفرع رئيسى ، وذلك أن الدفاع الجوى لم يصبح فرعاً رئيسياً إلا على يديه ، وقد عُين قبل رئاسته له مساعداً لوزير الحربية لشئون الدفاع الجوى وكان هذا مبكراً جداً وفى أعقاب حرب ١٩٦٧ .

والحديث عن دور الدفاع الجوى يصبح نوعاً من الظلم إذا ما تناولناه فى سطور، ولكن يكفينا أن ننظر إلى نتائج حرب أكتوبر

نفسها وأعداد الطائرات التى أسقطها محمد على فهمى وجنوده، ولولا أن حرب أكتوبر لم تحظ حتى الآن بما تستحق من كتابة وتاريخ وتمجيد لعرفنا أن خط باريف العظيم لم يكن شيئاً ذا بال إذا ما قورن بخط آخر ديناميكى كان هو حائط الصواريخ الذى بناه محمد على فهمى وجنوده فى أحلك اللحظات، ولكن للأسف الشديد فإن خط بارليف حظى بتمجيد متصل ومتكرر من كاتب السلطة فى ذلك الوقت حتى كان يصوره نهاية أحلام أمته. بينما لم يحظ خط محمد على فهمى حتى الآن من نفس الكاتب بما يستحق من تمجيد ونحت للتعبيرات والأوصاف وذلك مع الفارق فإن خط بارليف انهار فى ساعات بينما ظل خط محمد على فهمى بمثابة خط الدفاع الأول - وأحيانا الأخير وإذا جاز أن عدم الحديث عن خط فهمى قبل الحرب كان لمصلحة الحرب نفسها أفلم يكن الحديث عنه فى أعقاب النصر أولى بكثير من تضخيم الثغرة الزائفة . . ومن المفارقات أن كلا من بارليف وفهمى تولى رئاسة اركان جيشه . . ولكن الخط الديناميكى هو الذى انتصر على حين انهار الخط الاستياتيكى تحت وطأة المياة فحسب دون حاجة إلى قنبلة ذرية كما بشر المبشرون بالهزيمة . . ولك الله يامصر .

وليس سرا أن مصر حين قبلت مبادرة روجرز قبلتها لتقيم هذا

الحائط، وأنها أقامت حائط فهمى فى ظل هذه المبادرة والتزام الولايات المتحدة بمراقبة تنفيذ هذه المبادرة ، وهكذا مكن محمد على فهمى وجنوده بلادهم من أن تخطو اكثر الخطوات أهمية فى صناعة النصر العظيم المجيد فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، ولو انحصر الفضل فى نصر أكتوبر ١٩٧٣ فى خمسة فقط منهم صاحب القرار العظيم لكان محمد على فهمى واحداً من هؤلاء الخمسة بلا أدنى جدال .

□

ولهذا فإن الرئيس مبارك الذى يعرف للناس أقدارهم كان فى قمة التجلى والتوفيق حين انتبه فى ١٩٩٣ إلى ضرورة تكريم رتبة المشير بأن يحملها محمد على فهمى على نحو ما حملها من قبل المشيران أحمد اسماعيل على ومحمد عبد الغنى الجمسى، على الرغم من أن محمد على فهمى لم يصل إلى رتبة القائد العام أو منصب الوزير ، ولكنه فى تاريخ أمته اكبر من هذا المنصب بكثير .

[الوفد : ١٧ سبتمبر ١٩٩٩]

[أعيد نشرها فى الأهرام الدولى : بانوراما الصحافة : ٢٠ سبتمبر ١٩٩٩]

محمد فوزى العنتيل

كان المغفور له فوزى العنتيل واحداً من أولئك القلائل الذين أتيح لهم أن يجمعوا بين ثلاث فضائل فى عالم الكلمة، فقد مكنته الدراسة من التمكن من اللغة وأصولها وقواعدها وأساليبها بفضل السنوات الطوال التى تلقى فيها تعليمه، والطريقة القديمة التى تعلم من خلالها، ثم مكنته الحياة أن يخرج من حدود مصر، وأن يبقى خارج هذه الحدود، عشر سنوات متتالية، لم تكن من سنى الشباب الأول، يدرس الفولكلور والثقافة الشعبية، وقبل الحياة، وقبل الدراسة كانت الموهبة الإبداعية التى حباه الله بها.

ومن الحقائق التى لا أمل من أن أكرر القول فيها فى عالم الأدب، أن المحصلة النهائية لإمكانات الأديب - أياً كان - لا تتمثل فى الناتج الحسابى للجمع بين المواهب (أو الفضائل)، وإنما تأتى

نتيجة عملية أكثر تعقيداً، هى أشبه بالجمع الجبرى الذى يضع فى الحسبان اتجاهات القوى المؤثرة، وعندئذ يجد الباحث نفسه أمام قوى كبيرة، لكن بعضها يذهب بقوة البعض الآخر، لا لشىء إلا للاختلاف فى الاتجاه.

وإنى أعتقد أن خير دليل من أدلة الإثبات على ما أقول هو ما يحدثنا عنه الأستاذ العنتيل نفسه فى شأن نفسه فى (صفحة ٦) فى مقدمة كتابه «رحلة فى أعماق الكلمات»، حين يروى أنه حين عاد من بعثته لدراسة الفولكلور فى آخر عام ١٩٦١ «كان مناخ الإبداع الفنى والفكر فى مصر قد دخل مرحلة المحاق، ثم أخذت بعد ذلك رياح الفزع تهب من كل مكان، فأصبح كل شىء فى مستوى الموت. . وكنت متعب الجسد والروح فقلت لنفسى هذا زمان لا ينفع فيه الشعر. . وصرفت همى إلى موضوع «التراث الشعرى» أريد أن أقدم شيئاً نافعاً جديدا. . .»، حتى إذا كان عام ١٩٧١ «كانت قد مضت عشر سنوات منذ عودتى من أوروبا باعدت بينى وبين الشعر، ثم غلبنى الشعر على أمرى فكانت بداية أخرى فى قصيدة: «رحلة فى أعماق الكلمات».

على أننا مع هذا كله قد ظفرنا من الأستاذ العنتيل فى مجال البحث بدراسته المثلى عن الفولكلور. ويكفينى فى تقرير فضلها

أن أشير إلى صورتين من صور نجاحها: نفادها من السوق، وتدريسها فى الجامعة.

وظفرنا منه فى السنتين الأخيرتين من حياته بنوع آخر من البحث، والإشراف على البحث، عاد فيه الأستاذ العنتيل إلى التراث العربى القديم، مديراً لمركز تحقيق التراث فى الهيئة العامة للكتاب، على أن فضله فى هذه الناحية ليس من الأفضال الفورية، أعنى تلك التى يتاح لها أن تظهر فوائدها فور الانتهاء منها، وإنما الفضل فيها يبقى كامناً عن الحياة العامة فترة من الزمن تدور فيها عجلات المطابع.

إنما يعنينا فى هذا المقال أن نشير إلى الجانب الشعرى فى حياة شاعرنا الراحل، ويعنينى بصفة خاصة أن أشير إلى أمور أربعة:

أولها أن موهبته كانت أعظم من تجربته، وأن قصائده الأولى إجمالاً خير من قصائده الأخيرة إجمالاً، وليس فى هذا ما يعيبه، ولا ما ينقص من قدره، وليس فى هذا إثباتاً لعذر، لأنه ليس عليه تثريب فى شىء لا يستحق الاعتذار ولا تلمس الاعتذار، وإنما أقصد من وراء هذا القول أن ألفت النظر إلى روعة القصائد الأولى للأستاذ العنتيل إذا ما قيست بروعة

قصائده الأخيرة .

□

ثانيها أن أعبر عن هذه الظاهرة التى وجدتها فى أبيات الأستاذ العنتيل حين يجد الصور والمجازات فى العيون :

(أ) إلى ولدى الصغير الذى لا يعرف . .
. . لا يعرف أنى فى عينيه الضاحكتين
رأيت الدنيا ومفاتنها ،
أشواق بحار يسبح فيها الموج إلى الشطآن
وسماء تضحك فيها الماسات

إلى الوديان

(ب) قصيدة «عينان» ص ٨٦ ، ٨٧ .

(جـ) قصيدة «صورة» ص ١٢٠ .

(د) قصيدة «أغنية لعينيها» ص ١٢٤ .

وهذا ليس تعبيراً عن حب العين ، أو الغرام بها ، أو التعلق ، أو الارتباط ، لكنه تعبير عن الصدق الفنى ، هذا من باب النظرة

النفسية فى الأدب .

□

ثالثها هذه المجالات التى افتقدت الأستاذ العنتيل بباعه الطويل فيها ، وإنى واثق أن الأجل لو امتد به لأتاح له أن يصوغ من شعر الحكم درراً من لآلئ الشعر فى القرن العشرين ، على النحو الذى تمثل لنا فى قوله فى «تنويعاته الصوفية» ص ١٤ :

لو أن المعتمد الاشبيلى تدبر
فى معنى «لا غالب إلا الله»
ما راحت مئذنة أندلسية !

أو قوله فى قصيدة «أغنية للصيف» ص ٤٥ :

وأنا أعرف أن الفرح الجارف
يذوى لكن الحزن يظل
صنوبرة خضراء
تسبح فى أشرعة الريح الشرقية
فاخفق يا قبلى ، وتأرجح
فى أنسام الأشجار الصيفية

وغير هذا كثير . .

أما الاتجاه الوطنى وبخاصة فى قصائده الثلاث «لن يمر الأعداء» و«عودة الشهداء» و«من كتاب الحرية»، فقد كان فى إمكان العنتيل وقدرته - وأظن فى نيته أيضاً - أن يواصل القول فيه على نحو أروع بعدما اضطرته ظروف عهد ما إلى شىء من السلبية عبر عنه فى قصيدة «رحلة فى أعماق الكلمات» ص ٢٦ بقوله :

ورأيت ثعالب مصر الكالحة الألوان
تتواثب بين أماليد الكرم
وتعيث فساداً فى البستان

□

رابعها هذا الحنين إلى الماضى الذى كان يأخذ الأستاذ العنتيل :

- يازنبقة الفجر اقتربى من عينى
الساهرتين
فأنا مازلت - برغم الأعوام -
أحن إلى المدن الريفية .

(أغنية للصيف ـ ص ٤٤)

ـ اسمع كل لغات العالم

فى أجراس الريح الوحشية

أولد . . أفنى . . أبعث فى لحظة رعب

يركض قلبى مذبوحاً فى لهب الغابات

السحرية

تذرونى الريح الشرقية

وأعود . . جنينا

فى أحضان الغابات الأفريقية .

(فى أعماق الكلمات ـ ص ٥٠)

ولا أريد أن أمضى فى سرد الأمثلة للاستشهاد على هذه الناحية، فهى فى شعر الرجل أوضح من كل استشهاد .

□

بقى بعد هذه الأمور الأربعة أن أشير إلى القدرة التعبيرية للشاعر، وهنا أختار للقارئ قوله (ص ١١) فى «رحلة فى أعماق الكلمات» بعداً عن فترة انقطاعه عن الشعر :

أغلقت القلب على إيقاع الأمنيات
دهرا، لا أعرف أين مداه ولا مجراه
دهرا يتدفق مثل الأكوان
على تاريخ الإنسان . .
وصحوت، بلا ذكرى . . وبلا نسيان
فرأيت الموت على الأغصان
يلقى أكفان الموتى
للأحياء بلا أكفان . . !

وأنا أختار هذه الأبيات للتعبير عن قدرة العنتيل الشعرية رغم أن ثقافتى الطبية حالت بينى وبين أن أفهم إغلاق القلب على إيقاع الأمنيات كيف يكون؟ ولكن أدرك تمام الإدراك أن وقوف قلب شاعرنا اليوم عن الدق لن يذهب بإيقاع الأمنيات .

محمد متولى الشعراوى

فيما بين كل معاصريه تمتع الشيخ الشعراوى بقدرة فائقة على اجتذاب أكبر عدد من مختلف الطوائف إلى محيطه الهادى والهادئ ، وكان شأن أصحاب الدعوات الصالحة يزداد أتباعاً مع الأيام لأنه لم يكن يهدف بدعوته أو حركته إلى هدف يستعمل هؤلاء فى الوصول إليه على أعناقهم ولا على أكتافهم (ولا على جثثهم من باب أولى)، وإنما كان يهدف فى بساطة شديدة إلى أن يرتقى بهؤلاء جميعاً فى مدراج الإيمان بالله والهداية إلى طريقه، والسلوك المستقيم ، والنفس المطمئنة ، والشخصية الآمنة .

وقد وجد الشيخ الشعراوى نفسه يقود مجموعات كبيرة جداً من الناس فى طريق إرادة الله ، فلم يصبه للحظة واحدة غرور الزعيم ، وإنما تصور نفسه كما كانت بالفعل نفساً مسئولة عن

أنفس ، وضميراً مسئولا عن ضمائر ، وأدرك منذ بداية صعود نجمه أنه رجل مسئول فى كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو إقرار ، وعرف أن اتباعه يريدون منه القدوة وأن أعداءه قد يتربصون به أى فرصة للخطأ ، وعلم أن عليه ألا يكف عن الاستزادة من علوم الدين والدنيا وأن يرتقى بثقافته إلى حيث وصلت ثقافة العصر ، وأدرك من دون خوف ولا وجل مدى سطوة آلة الإعلام الرهيبة فى عصر التلفزيون ثم الفضائيات والأقمار الصناعية.

□

وفى خضم كل هذه الصعوبات التى كانت تكتنف المجالات التى سيقوم فيها بأداء دوره الذى وجد نفسه منقاداً ومسخرا لأدائه ، ومع تقديره العميق لطبيعة ساحة النشاط وسماتها وصعوباتها ، فإن الشيخ الشعراوى اهتدى بفضل الله وتوفيق منه إلى أن يكون كما هو على حد تعبير المثل الإنجليزى وهكذا قدم الشعراوى نفسه للناس على الصورة التى هو عليها فى أغلب اليوم ، فكانت ثيابه أو جلده الثانى شيئاً قريباً جداً من جلده الأول ، وكانت لهجته أقرب إلى لهجته فى الطفولة منها إلى لهجته فى الكهولة والشباب ، وكانت معلوماته أقرب إلى

الشباب من معلومات الأستاذ القديم ، وكان اداؤه أقرب إلى إمام ميت غمر منه إلى أداء إمام أى مسجد قاهرى ، وكانت تعبيراته وتشبيهاته ومجازاته وصوره واستعاراته وتجريداته أبسط من أن يكتنفها أى تكلف أو تعقيد أو تركيب .

ومع كل هذا فقد كانت صلته بمريديه ومستمعيه ومنتقديه أبسط بكثير جداً من أن يتصورها الإنسان ، كانت مباشرة جداً وحميمية جداً مع أنها قد تبدو للمتفلسفين واهية كخيوط العنكبوت ، ولكنها كانت فيما بدا ومازال يبدو أقوى وأصلب من أى صلة أخرى ، لأنها كانت صلة قلبية راسخة من حيث الطبيعة ، وإن لم تكن كذلك من حيث بناء العلاقة .

□

ولعله من المناسب أن نتأمل فى بعض الاختلافات حول شخصية الشعراوى وأثره

كان الشعراوى يلجأ إلى العامية الراقية حين يحتاج إليها ، وكان يفعل ذلك فى براءة الأطفال وبراءة الدعاة ، ولهذا فقد قدره مجمع اللغة الفصحى نفسه ، ودعاه إلى تبوأ مقعده بين الخالدين .

وكان الشعراوى كثيرا ما يصرح بانه لايقرأ إلا القرآن الكريم، ولكن أحاديثه كانت تنم عن أنه لايكف عن القراءة، وأنه متابع جيد لكل تفصيلات الحياة والعلم والاقتصاد ولأدق نظريات الاجتماع، وتطورات العلوم الحديثة، ومنجزات التكنولوجيا، وكان هذا أظهر ما يكون فى حديثه وتشبيهاته وحواشيه، ولكنه والعلم عند الله، كان يلتزم الأمانة فى ألا يقيد الناس بشىء يقرأونه اقتداء به.

□

وكان الشعراوى (ثالثا) واضح الانتماء فى أفكاره السياسية، ومع أنه لم يكن ميالا إلى الحزبية بمعناها الديناميكى، فإنه حين اختار طريقه السياسى كان دائماً فى الصف الذى فيه أغلبية الشعب، وكأنه - والعلم عند الله - كان حريصاً على أن يكون مع الجماعة، وعلى الرغم من أن معظم متاعبه جاءته من هذا الاختيار إلا أنه لم يتراجع عن اختياراته السياسة المبكرة، وظل على الدوام فخورا بوفديته المبكرة وبعلاقته بالنحاس باشا ومدحه له، بل واستشرافه لأخريات أيام سعد زغلول.

□

ولا ننسى أن الشعراوى كان أحد الوزراء الذين انضموا لأول وزارة حزبية بعد الثورة فى نوفمبر ١٩٧٦ والتى شكلها ممدوح سالم (وزارته الثالثة) بعد فوز حزب مصر العربى الاشتراكى فى الانتخابات البرلمانية التى أجريت لأول مرة بين تنظيمات (أو مشروعات أحزاب) .

وفى كل حواراته السياسية وغير السياسية فإن الشعراوى لم يدلس أبداً ولم يزعم على الإطلاق أنه قاد، ولا انضوى تحت أى حركة دينية ذات طابع سياسى !

وقد سببت له صراحته فى هذه النقطة كثيراً من المتاعب الخفية .. ولكنه بحكم إيمانه وعقيدته لم يكن ليعبأ بمثل هذه المتاعب ولا كان حريصا على أن يسترضى كل الناس .

□

وكان الشعراوى (رابعا) يستعمل المنطق والفلسفة والقياس فيما استعمله الأقدمون وربما أكثر ، وكان الشعراوى يمضى فى استنتاجاتها إلى نهايتها ما دام مطمئنا إلى وسائله ومقدماته .. ولكنه مع هذا ـ والحق يقال ـ كان يؤمن برحابة الفكر حتى وإن لم يدرك هذه الرحابة بما مكنه الله من وسائل عقلية ، ولهذا فإن

الاهتداء القلبى كان يقود خطواته فى التسامح الفكرى، وتقبل الآخر على الرغم من أن الجماهير ووسائل الإعلام والمشاعر الجارفة كانت طوع منانه ، ولو كان مغرضاً ولو بنسبة واحد فى المليون لأشعل فى العقدين الأخيرين حروبا لاتقل ضراوة عن الحروب الصلبية ، ولعقد محاكم لاتقل قسوة عن محاكم التفتيش ، ولكنه لحسن الحظ لم يفعل هذا ولم ينسق إليه ، وكان امتناعه عن كثير من السلوك الأرعن أعظم - فى رأيى المتواضع - بكثير جداً من كل إنجازاته الفكرية والفقهية والبيانية ، بل ومن كل انجازات أقرانه على مدى القرن العشرين ، وكان الشعراوى موفقاً جداً فى التوقف عند لحظة حاسمة فى كل الخلافات التى اشتعلت بينه وبين أعلام الفكر والأدب والسياسة .

□

على أن الأهم من كل هذا أن هذا الرجل كان يمضى فى طريق الأسطورة من حيث لا يدرى، ولكنه كان فى بساطة شديدة يحطم بنفسه أسطورة شخصيته ، وكان يفعل هذا بتلقائية شديدة وبمهارة شديدة أيضاً، فكان يلجأ من حين إلى آخر إلى الإبرة ينهى بها البالونات التى تنتفخ لتكون من شخصه أو شخصيته أسطورة .. ولم يكف عن تذكير نفسه والناس ببساطة أصوله بل

وببساطة علمه .

وعلى النقيض من كل أقطاب الفكر الذين عرفهم العالم العربى ، كان الشعراوى أقرب الناس الذين كتبوا سيرتهم إلى الغربيين فى انتهاج منهج الصدق المطلق والحديث عن كل نوازع النفس ، وكان الشعراوى يحاول على الدوام أن يسلط الأضواء على الجوانب المظلمة من حياته العقلية والدراسية ، وقد انتهج فى هذا أيضا سلوك الواثقين الراضين حين نأى بخطوات حياته أن تكون متأثرة بظلم وظيفى أو خوف من عهد الثورة وما ساده من رأى واحد ، مع أنه كان فى وسعه أن يفعل ، ولكنه آثر أن يمضى بحياته بعيداً عن مثل هذه المسالك قصيرة الأجل أو قاصرة الأمل .

□

ويكاد يكون هناك إجماع على أن هذا الرجل استطاع أن يحقق مالم يحققه غيره فى بعث الطمأنينة فى نفوس الذين يبحثون عن الإيمان والصواب والحق ويبدو لى أنه خاض على المستوى الشخصى معارك كثيرة فى سبيل الحصول لنفسه على الاتزان النفس والتوازن الداخلى ، ولهذا فانه كان فى كل

أحاديثه قادراً على الوصول إلى المناطق الرمادية فى الفكر الإنسانى وفى الصراع النفسى ولعل هذا كان بمثابة أحد العوامل البارزة فى نجاحه فى تحقيق مالم يحققه غيره مع أنه لم يكن أبرز أقرانه ولا أعلمهم ولا اكثرهم فقها .

نشرت تحت عنوان : «الشعراوى : المحيط الهادى»

[الأهرام : ٢٠ يونيو ١٩٩٨]

ممدوح سالم

كان ممدوح سالم يلقى كثيرا من الاحترام فى الأوساط المهنية العالية، ولعل احترامه فيها كان يفوق الاحترام الذى كان يلقاه بين الجماهير، والذى تصفه الجماهير فى عهد الثورة بأنها لم تعط هذا الاحترام لرجل من رجال الشرطة من قبله .

كان ممدوح سالم من ضباط الشرطة الناجحين، تدرج فى مناصبها رتبة بعد رتبة بغير طفرة ولا تلكؤ، وأعطاها حياته حيث عاش بلا زواج ولا ولد، وعرفت عنه نظافة اليد وقوة اليد أيضا، ووصل إلى منصب مدير أمن الإسكندرية ، ثم اختير نائبا لمدير المباحث العامة بدرجة لواء . . وفى أثناء عمله بالشرطة لسنوات طوال عهد إليه بمسئوليات الأمن فى رحلات الرئيس عبد الناصر (١٩٦٠ -١٩٧٠)، ولا شك أنه أدى هذه المهمة على الوجه

الذى لم يحس معه الناس بأن أضطرابا قد هدد الرئيس أو الأمن فى تلك الرحلات.

□

فى التغيرات التى أعقبت هزيمة ١٩٦٧ مباشرة اختير ممدوح سالم فى أغسطس ١٩٦٧ محافظا لأسيوط ليخلف عددا من أسلافه الأقوياء . وفى أغسطس ١٩٧٠ نقل ممدوح سالم محافظا للغربية . . . وفى الشهر الأول من حكم الرئيس السادات (نوفمبر ١٩٧٠) عين خلفاً لأحمد كامل محافظا للأسكندرية بعد ثلاث شهور فقط فى طنطا (ولكن أيضا بعد ثلاث سنوات فى أسيوط). هذه المقارنة البسيطة (أو التى تبدو مقارنة) قد تمثل تصويراً حياة ممدوح سالم اللامعة كلها ، فلم يكن الرجل الذى صعد من منصب الوزير إلى منصب رئيس الوزراء فى أربع سنوات فقط يصعد بهذه السنوات الأربع ، ولكنه كان يصعد بكل ماضيه .

ولم يكن ممدوح سالم حين أسند إليه من قبل مراكز القوى مسئولية التنظيم الطليعى فى الإسكندرية وهو محافظها يلعب هذا الدور من خلال الأيام القليلة التى قضاها فى هذا المنصب

والتى لم تصل فى إجمالها (بعد ذلك) إلى ستة شهور، ولكنه كان يستفيد من سنوات عمره قبل ذلك منذ مولده فى الإسكندرية (١٩١٨) ثم عمله فى الشرطة إلى أن أصبح مدير أمن الإسكندرية.

ولم تكن تلك السنوات التى قضاها فى موقع المحافظ فى ثلاث محافظات متتالية بمنأى عن خبرته الإدارية أو التنفيذية حين أصبح نائبا لرئيس الوزراء لقطاع الخدمات أو رئيسا للوزارة!!

□

وحين يقال إن انتخابات ١٩٧٦ كانت أنزه الانتخابات المصرية فى عهد الثورة، فإن هذا وحده يكفى ممدوح سالم فخرا، والحق أن ممدوح سالم حين أجرى الانتخابات بنزاهة لم يكن يمثل دورا بنزاهة، ولكنه كان يؤدى عملا أسند إليه على نحو ما عرف عنه من نزاهة ونظافة اليد.

كنت حين رأس ممدوح سالم الوزارة لا أزال فى دور الشاب الغر، وكنت كثيرا ما أردد آراء بعض اللامعين الذين لا يكون من همهم إلا أثبات أن الحظ لا يمضى فى الحياة إلا بمحاذاة الضلال والخطأ، وكنت لا أستحى أن أردد عن ممدوح سالم أنه رجل بلا

تخصص ولا لون ولا طعم ولا رائحة . . . ثم مضت بنا جميعا الأيام لتثبت أن ممدوح سالم إذا ما قورن بمعاصريه كان الأنظف يدا ولسانا وعقلا ، وقد أدى دوره كل يوم لعشرين ساعة من الساعات الأربع والعشرين من دون أن يعلن عن ذلك ، وبذل جهده فى الإصلاح والتطهير بقدر ما أتته القدرة ولكنه مع ذلك كان يجد نفسه فى كثير من الأحيان عاجزا عن أن يمضى بيد الإصلاح إلى النهاية . وإذا قرأنا التفاصيل التى أوردها جلال الحمامصى فى كتابه «القربة المقطوعة» فسنرى كيف كان ذلك مجهداً ومعذباً فى بعض الأحيان .

وقد يمكن استغلال هذه العبارة على النحو الذى يرفع أصابع الاتهام إلى الرئيس السادات على أنه هو الذى كان يمنعه من تمام الإصلاح ، وهو اتهام سهل ، لكنه بالطبع لا يمثل الحقيقة على أى حال ، ولكن لا الرئيس السادات ولا الرئيس مبارك اللذان كانا الرجلان الأولان قبل ممدوح سالم حالا بينه وبين الإصلاح الذى كان يحاوله فى بعض الأمور التى تمس نزاهة الحكم ونزاهة رجال الدولة الكبار . . لكن الإجراءات الإدارية وبعض الأحكام القضائية كانت قادرة على حماية المفسدين أنفسهم شأن ما يحدث من نفوذ المافيا فى أكثر الديمقراطيات عدالة وانضباطا .

لم يكن مستقبل السلام فى مصر قد اتضح حين كان ممدوح سالم فى الحكم، ومع هذا كان شبح الحرب قد ولى بالفعل، ولهذا كانت أيامه فرصة لبداية نهضة جديدة، ولكن الظروف الاقتصادية القائمة وقتها لم تكن يومها تمكن من إنجاز شىء ذى بال فى هذا المجال . . . ويكفى للدلالة على هذا أن نتأمل أن الخطوات المحدودة لرفع الأسعار قد قوبلت بما كاد أن يعصف بالحكومة كلها، ومع أنه لم يعصف بالحكومة ولا بالوزراء الاقتصاديين إلا أنه أبقاها مشلولة التفكير فى هذا الجانب، أو مشلولة عن التحرك بالتفكير الجذرى فى هذا الجانب الخطير.

وقد ثارت فى نفسه روح التأمل فى الحالة التى تدهور إليها مدنيتنا ومرافقها ولكنه كان كل يوم فى حرب ضروس مع العمل والملفات والتقارير.

وقد شهدت وزارات النقل والمواصلات والمرافق مثلا كثيرا من التغيرات فى عهده على المستوى الوزارى، ولكن التحسن الملموس فى هذه الخدمات لم يتم فى عهده، وصحيح أن بعض بذور الإصلاح قد تكون وضعت أو بدأت فى عهده، ولكنه كان فى وسعه أن يطلب وضع خطة للأسعاف توازى خطط المستقبل.

وقد أخذ على ممدوح سالم أنه لم يترك الحكم فى أعقاب ١٧ و ١٨ يناير ومع أن هذا لم يكن هو الحل الأمثل ! فإننا لا ندرى حقيقة هل أبدى الرجل رغبته فى هذا أم لم يبدها ؟ ولكننا على كل حال لم نخسر كثيرا ، ولم نكسب كثيرا كذلك .

□

فى ١٣ مايو ١٩٧١ استدعى الرئيس السادات عن طريق مكتبه فى الرئاسة ممدوح سالم محافظ الإسكندرية ، فعرف الذين علموا الخبر أن ممدوح سالم سوف يصبح خلفا لشعراوى جمعة الذى كان يقدم استقالته . . . وهذه هى أقوال بعض من كتبوا من تاريخ تلك الفترة ، سواء على هيئة تقارير صحفية أو مذكرات شخصية ، وليس لهذا معنى إلا أن يكون شهادة لكفاءة الرجل بلا جدال .

حكى الرئيس السادات أنه سأل ممدوح سالم هل يقبل فأجاب ممدوح سالم بما كان من شأنه أنه حلف اليمين من فوره وتسلم عمله . . هل أرسل ممدوح سالم فى طلب ثيابه من الإسكندرية ليقضى فيها الليل ، أم أنه كان قد ترك فى القاهرة من الثياب ما يصلح ليقضى فيه الليل . . . وهل إذا كان كذلك هل كان معه فى

تلك اللحظة فى سلسلة مفاتيحه مفتاح الشقة التى كانت له فى القاهرة ؟ أم أنه كان قد تركه فى الإسكندرية ؟

كل هذا قد يهم المؤلف السينمائى، لفيلم عن ١٥ مايو، ولكن الحقيقة أن ممدوح سالم أصبح عليه أن يعمل فى الأيام التالية ما لم يكن يتيح له أن ينام إلا فى موقع العمل، وقد يكون بملابس العمل أيضا.

أما ما قد يدهش له القارئ فهو أن ممدوح سالم لم يكن يمتلك شقة فى القاهرة فى ذلك اليوم، وهكذا استخدم استراحة هيئة قناة السويس الشهيرة التى تقع فى حى جاردن سيتى وظل يستعملها فترة من الزمن حتى دبرت له شقة من الشقق التى استولت عليها الدولة بالتأميم أو الحراسة فى إحدى عمارات عمر بهلر.

□

لم تمضى إلا عدة شهور حتى شكل الدكتور عزيز صدقى وزراته (يناير ١٩٧٢) وفيها أصبح ممدوح سالم نائبا لرئيس الوزراء. وهكذا ارتقى ممدوح سالم من منصب الوزير إلى منصب نائب رئيس الوزراء فى ثمانية شهور فقط، وأصبح

مسئولا عن قطاعات الخدمات، وظل ممدوح سالم نائبا لرئيس الوزراء فى وزراتى الرئيس السادات الأولى والثانية (مارس ١٩٧٣) و(ابريل ١٩٧٤) ثم فى وزارة الدكتور حجازى (سبتمبر ١٩٧٤)، ثم فى تولى هو نفسه رئاسة الوزارة منذ إبريل ١٩٧٥.

وقد شكل ممدوح سالم الوزارة خمس مرات تتابعت على النحو التالى: فى إبريل ١٩٧٥ وبعدها بأحد عشر شهرا فى مارس ١٩٧٦ وبعدها بثمانية شهور فى نوفمبر ١٩٧٦ (وهى الوزارة التى أصبحت أولى وزارتنا الحزبية) وبعدها بأحد عشر شهرا فى أكتوبر ١٩٧٧ وبعدها بستة شهور فى مايو ١٩٧٨ وهى أقصر وزاراته عمرا حيث ظلت خمس شهور فقط وأقلها تجديدا فى دماء الوزراء حيث لم يدخلها إلا عدد محدود من الوزراء الجدد.

فى أبريل ١٩٧٦ أصبح ممدوح سالم مقررا لتنظيم مصر العربى الاشتراكى فى شئ من المفاجئة دهش الناس العاديون له، فقد كانوا لا يعرفون أن ممدوح سالم كان له دوره الطليعى فى التنظيم الطليعى... ولكن الرئيس السادات فيما بعد ذلك قال فى بعض رواياته بطريقته المسرحية الجميلة إنه عند تنظيم أمور التنظيمات من خلال الاتحاد الاشتراكى قال لممدوح سالم وهو

رئيس الوزارة القائمة ما معناه : اتفضل . . . كن مسئولا عن تنظيم الأغلبية . وقد كان .

وقد أضافت رئاسة حزب مصر العربى الاشتراكى إلى ممدوح سالم عبئا جديدا ما كان أغناه عنه ، وقد أضاع هذا من وقته الثمين الذى كان الناس يتمنون لو أعطاه لمهام جسيمة كان قادراً عليها من استئصال أو تعقب الفساد ، أو فى تشجيع المشروعات الجديدة أو تتبع الإصلاحات الملحة . ومن العجب أننا فى مجموعنا نتصور أن الرجل الناجح حين يكون فى القمة تكون عنده قدرات خرافية فلا نمانع فى إعطائه المناصب كلها مرة واحدة ، ونتركه يتوه فيها حتى يفيق على أزمة صحيحة أو على أزمة فراغ .

فى يناير ١٩٧٧ كانت المظاهرات التى عارضت قرارات المجموعة الاقتصادية فى حكومة ممدوح سالم برئاسة القيسونى تهتف فى شئ من التنظيم الخبيث أنه بالطول بالعرض ها نجيب ممدوح سالم الأرض . . . ويبدو أننا لم نفهم مغزى هذا الهتاف يومها إلا على أنه محاولة الاتيان برئيس حكومة آخر . . . ولكن السادات فهم الأمر وعالجه على أساس أنه لن تسقط الوزارات بهتافات !

وفى فبراير ١٩٧٧ أجرى تعديل محدود فى الحكومة ولكنه لم يشمل المجموعة الاقتصادية، ولا شمل رئاسة الوزارة، وإنما خرج فيه من باب الطرافة وزير الإعلام الذى اتهم بأنه شجع روح التذمر والنقد من خلال ما قدمته الشاشة الصغيرة من حوارات، وخرجت وزيرة الشئون الاجتماعية التى قالت فى أول اجتماع تال للمظاهرات إن من واجب الحكومة أن تستقيل!! وفى هذا التعديل عاد ممدوح سالم ليتولى وزارة الداخلية بنفسه، على نحو ما كان عبدالناصر والسادات يعودان إلى رئاسة الوزارة بنفسيهما بالإضافة إلى رئاسة الجمهورية، وهو نوع - فى رأيى - من أنواع المراهقة السياسى فى البنيان الحكومى! لم يكن ممدوح سالم هو الذى ابتدعه بالتأكيد ولكنه على سبيل القطع مارسه أو شارك فى ممارسته.

ولعل هذا يقودنى إلى تأمل ما كان يُهمس به من أن أسلوب ممدوح سالم كان دائما النزول بالهرم بطريقة تدريجية باختيار رجلين يليانه فإربعة تحتهم فهكذا، وقد كان معه فى حزب مصر العربى الاشتراكى د. فؤاد محيى الدين وحامد محمود فى منصب السكرتير العام ثم أربعة وكلاء برلمانيون وهكذا. . وسواء صح هذا أم لم يصح فقد كان للرجل (الذى لم يكن كما كنا

نخدع أنفسنا أستاذ جامعة) أسلوب شبيه بأسلوب الأكاديميين.

□

في هذا الصدد أحب أن أذكر أن ممدوح سالم في رئاسته للحزب لم يكن دوجمتياً، وعندى على هذا أدلة كثيرة جداً، ففى ١٩٧٦ كان تنظيم الوسط الذى يرأسه ممدوح سالم يرشح لمجلس الشعب فى الدائرة الواحدة أكثر من مرشحين!! مع أنه لا يجوز أن يفوز إلا اثنان، وهكذا أصبح معنى أن هذا الشخص مرشح تنظيم الوسط أنه يتمتع بعضوية هذا التنظيم فحسب وأن الأمر متروك لاجتهاده، وهكذا ضرب معنى الالتزام الحزبى فى مقتل، ولكن النجاح فى ضم الناس نحو فكرة الوطنية فى الحزب كان أكبر!! ويبدو أن فكرة ممدوح سالم فى هذا كانت البعد عن التعصب الذى يمكن أن يسبب التفتت والعداوات المستعرة داخل الحزب الوليد، وكان هذا السلوك فيما بدا مستهجنا أو على الأقل مستغربا من أنصار الحزبية المحدودة!! ومن الطريف أن الحزب الوطنى الديمقراطى جاء بعد ذلك فى انتخابات ١٩٧٩ وجعل مبدأه الاقتصار على ترشيح اثنين فقط فى الدائرة الواحدة..
ومن سخرية الأقدار أن الحزب الوطنى لم يستثن دائرة من هذه القاعدة إلا الدائرة التى كان فيها الرجل الذى كان حتى ذلك

الحين فى الظل السياسى ولكنه أصبح بعد فترة الرجل الثانى فى هذا الحزب وأمينه العام فؤاد محيى الدين فى دائرة شبرا الخيمة .

□

لم يكن ممدوح سالم صاحب تعصبات فى مسلكه الحزبى ، وكان يود لو كان الحزب هو كل مصر ، ويبدو أنه لم يكن مقتنعا (ربما بحكم طبيعته كرجل أمن) بالأفكار التى ظل أنور السادات مقتنعا بها من قيام الحزب على قواعد من العائلات القديمة على نحو ما كان يفعل حزب الوفد ، أو على أسلوب الخلايا الذى كانت تقوم عليه جماعة الإخوان المسلمين (وهو الأسلوب الذى كان يفضله السادات فى الروايات المتواترة عنه) أو ما إلى ذلك من الأفكار التى كانت نتاجا طبيعيا (وإن لم يكن نتاجا غير حسن) على الإطلاق للممارسات غير الناضجة التى أعجب بها الرئيس السادات فيما قبل الثورة!! مما يذكر أن ممدوح سالم ذهب مؤتمر الحزب ذات يوم ومعه دليل الأفراد العلميين الذى أصدرته أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا وقال للمسئولين فى الحزب : خذوا من هذا الدليل تشكيلاتكم للجان الحزب . وهذا أسلوب أقرب إلى المثالية منه إلى النجاح بين أقوام من أجيال نشأت على تقديس الطوبة إذا رشحها الزعيم .

ثم إن ممدوح سالم نفسه لم يكن من الذين انتموا إلى الوفد أو غيره من أحزاب ما قبل الثورة، ولهذا فلم يكن عنده ذلك الإحساس السيء الذى كان وراء تحريك معظم نفوس من اشتغلوا بالسياسة فى عهد السادات.

ولولا أن الرجل كان قريبا من أعين السلطة بحكم مسئوليته عن الأمن فى رحلات عبد الناصر وعن الأمن فى الإسكندرية وفى مباحث أمن الدولة، وذلك بالإضافة إلى عمله فى سلك المحافظين فى أسيوط والغربية والإسكندرية لبقى شأنه كثيرين من الأسوياء فى هذا البلد الذين قد لا يتاح للوطن أن يستفيد من خبراتهم من دون أن يكتوى الواحد منهم بنتائج العقد التى أصابت شخصيات غيرهم ممن يقفزون إلى مواقع الأحداث.

ومع هذا كله فقد أثقل ممدوح سالم على نفسه فى كثير من الجزئيات بحيث خرجت كثير من قوانين الحكومة فى عهده (سواء كرئيس للوزراء أو كنائب لرئيس الوزراء) ولاهم لها إلا إرضاء الجماهير، ولو خرجت لإرضاء الجماهير فى مجموعها لكان أولى، ولكنها خرجت لإرضاء أصحاب الأصوات العالية وخير مثال على هذا هو القانون ٨٣ الشهير (وملحقاته) الذى قلب نظام الشهادات والأقدميات المالية فى الدولة رأسا على عقب.

وربما يجوز أن أعتقد أنه كان فى وسع ممدوح سالم أن يبدأ منذ أيامه الأولى خطة طموحة لحل مشكلات البنية الأساسية فى هذا الوطن ولم تكن هذه البيئة على وشك التدهور فحسب، ولكنها كانت وصلت بالفعل إلى الانهيار التام، ولكنه كان أقرب إلى الطبيب منه إلى المهندس فى الإحساس بمشكلات هذا الوطن، كان يستمع إلى أعراض الشكوى ويحاول التسكين ما استطاع دون أن تكون عنده القدرة على الاختراق التام، وربما أنه افتقد هذه القدرة بسبب افتقاده للسلطة، ولكنه على كل حال اجتهد كثيراً على الرغم من أنه لم يكن عنده بالطبع الوقت الكافى للتأمل فى حال البلد التى تخلفت مرافقها عن العالم من حولنا ولو أتيح له أن يخرج إلى العالم الخارجى بشخصه من دون أن يعامل كرئيس وزارة ثم يعود لتغير الوضع تماماً .

لم يكن ممدوح سالم إلا نموذجا للكفاءة الرفيعة النزيهة القادرة المخلصة التى كان من حظ أنور السادات أن تكون إلى جواره وقتا طويلا . ولو قدر لمصر أن يستمر ممدوح سالم فى وزارة الداخلية أو أن تستمر وزارة الداخلية تحت قبضته المباشرة بعيدا عن تدخلات الرياسة فلربما كانت الأمور قد سارت على غير ما سارت عليه فى نهاية حكم السادات . لعلى أقصد أن أتمنى لو

كانت مصر قد مضت بنظام رئاسى يبتعد عن دوامة وصول أحد الوزراء المتميزين إلى رئاسة الوزراء دون مبرر واضح لوجود مثل هذا المنصب فى ظل وجود رئيس جمهورية يتدخل فى كثير من السياسات (بالليل والنهار) كالرئيس السادات، وعند ذاك فقد كان من الممكن أن يظل ممدوح سالم فى مكانه الطبيعى رجل أمن متميز جداً.

□

خسرت مصر إذن فى جانب البوليس كثيرا بصعود ممدوح سالم إلى رئاسة الوزارة على الرغم من أنها كسبت أيضاً من تولى هذا الرجل المنصب الرفيع من هذه السنوات.

ومن الواضح أن ممدوح سالم كان يتمتع بثقة العسكريين من رجال الثورة الذين كانوا يتولون صناعة القرار فى عهد عبدالناصر، ولعل أبرز هؤلاء جميعاً فى ثقته بممدوح سالم هو أنور السادات نفسه، الذى اختاره رئيساً للوزراء ومن قبل كوزير للداخلية، ولكن الذى لاشك فيه أيضاً أن ممدوح سالم كان يتمتع كذلك بثقة كافة الفرقاء فى نهاية عهد عبدالناصر، وسيجد القارئ للمذكرات والدراسات التى تناولت هذه الفترة اسم

ممدوح سالم فى كثير من المهام الدقيقة ، وكان ممدوح سالم على رأس الذين اختيروا لعضوية التنظيم الطليعى . .

وقد كانت وزارات السيد ممدوح سالم فرصة كبيرة لتغذية الدولة بكثير من الكفاءات التى تولت مواقع المسئولية الوزارية . . وفى الوزارات الخمس التى شكلها دخل الوزارة عدد كبير من الوزراء ، وبلا جدال فإن ممدوح سالم كرئيس للوزارة هو صاحب الفضل فى تقديم أكبر عدد من الوزراء لمصر منافسا بذلك الرئيس عبد الناصر والنحاس باشا .

فى ذكراه الأولى : ١٩٨٩ .

كتب للمؤلف

☐ الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً .
[الكتاب الفائز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب العربى عام ١٩٧٨]، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨ .

☐ مشرّفة بين الذرة والذروة، [نال عنه المؤلف جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم]، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠ .

☐ كلمات القرآن التى لا نستعملها [دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية] ١٩٨٤، الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧ .

☐ يرحمهم الله [كلمات فى تأبين بعض الشخصيات] ، دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع، ١٩٨٤ .

☐ من بين سطور حياتنا الأدبية [دراسات أدبية]، دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع، ١٩٨٤ .

☐ الدكتور أحمد زكى، حياته، وفكره، وأدبه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤ .

☐ مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل، دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع، ١٩٨٤ .

☐ سماء العسكرية المصرية الشهيد عبدالمنعم رياض، دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع، ١٩٨٤ .

☐ الدكتور على باشا إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥ .

☐ الحلول الجزئية هى الأجدى أحيانا . مستقبلنا فى مصر، ١٩٨٥

الطبعة الثانية تحت عنوان: « مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الاعلام والبيئة والتنمية والمستقبليات»، دار الشروق، ١٩٩٧ .

□ التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة، الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٨٦ .

□ الدكتور سليمان عزمى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ .

□ الدكتور نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ .

□ دليل الخبرات الطبية القومية مع مقدمة وافية عن تاريخ وحاضر مؤسسات التعليم الطبى المصرية، مركز الإعلام والنشر الطبى، الجمعية المصرية للأطباء الشبان، ١٩٨٧ .

□ الصحة والطب والعلاج فى مصر، جامعة الزقازيق، مطبوعات الجامعة والمجتمع، ١٩٨٧ .

□ توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨ .

□ رحلات شاب مسلم

الطبعة الأولى : دار الصحوة للنشر والتوزيع، ١٩٨٩ .

الطبعة الثانية : دار الشروق، ١٩٩٦ .

□ الببليوجرافيا القومية للطب المصرى، الجزء الأول والثانى ١٩٨٩ . الجزء الثالث والرابع ١٩٩٠، الأجزاء من الخامس وحتى الثامن ١٩٩١ . الأكاديمية الطبية العسكرية، وزارة الدفاع .

□ منهج أدباء التنوير فى كتابة تاريخ الأمة الإسلامية، رابطة الجامعات الإسلامية، الرباط، ١٩٩٠ .

الطبعة الثانية تحت عنوان : أدباء التنوير والتأريخ الإسلامى، دار الشروق، ١٩٩٤ .

□ مجلة الثقافة [١٩٣٩ - ١٩٥٢] : تعريف وفهرسة وتوثيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣ .

□ شمس الأصيل فى أمريكا [من أدب الرحلات]، دار الشروق، ١٩٩٤ .

□ أوراق القلب [رسائل وجدانية]، دار الشروق، ١٩٩٤ .

□ مذكرات وزراء الثورة [دراسة تشريحية تاريخية نقدية لمذكرات كمال حسن على، وسيد مرعى، وعبد الجليل العمرى، وثروت عكاشة، وإسماعيل فهمى، وعثمان أحمد عثمان، وضياء داوود، واحمد خليفة، وعبد الوهاب البرلسى، وحسن أبو باشا]، دار الشروق، ١٩٩٤ .

□ المحافظون [قوائم كاملة، وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية، ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء الإدارة المحلية فى ١٩٦٠ وحتى الآن]، دار الشروق ، ١٩٩٤ .

□ مذكرات المرأة المصرية [دراسة تحليلية تاريخية نقدية لمذكرات بنت الشاطئ، وجيهان السادات، ولطيفة الزيات، وزينب الغزالى، وإنجى أفلاطون، واعتدال ممتاز، وإقبال بركة، ونوال السعداوى، وسلوى العنانى، وثريا رشدى]، دار الشروق، ١٩٩٥ .

□ الوزراء، ونواب رؤسائهم، ونوابهم: تشكيلاتهم، وترتيبهم، مسئولياتهم [١٩٥٢ - ١٩٩٦].

الطعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٦ .

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧ .

□ مذكرات الضباط الأحرار [مدارسة تاريخية نقدية لمذكرات محمد نجيب، وعبداللطيف بغدادى، وخالد محيى الدين، وعبدالمنعم عبدالرءوف، وجمال منصور، وعبدالفتاح أبو الفضل، وحسين حمودة] دار الشروق ١٩٩٦ .

□ البنيان الوزارى لمصر فى عهد الثورة : فهارس تاريخية وكمية وتفصيلية لإنشاء وإلغاء وإدماج الوزارات والقطاعات الوزارية [منذ ١٨٧٨]

ودراسة لتوزيع المسؤليات الوزارية والوزراء الذين تعاقبوا على كل وزارة [١٩٥٢ - ١٩٩٦]، دار الشروق، ١٩٩٦ .

☐ فن كتابة التجربة الذاتية . . مذكرات الهواة والمحترفين [مع دراسة تطبيقية لمذكرات كل من: جمال أبو العزايم، حامد طاهر، سمير حنا صادق، عبدالله عبدالبارى، علاء الديب، محمد أحمد فرغلى، ميلاد حنا]، دار الشروق، ١٩٩٧ .

☐ القاموس الطبى نوبل [٣ أجزاء، ٥٠ ألف مصطلح] بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور محمد عبداللطيف إبراهيم، دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٩٨ .

☐ اسماعيل صدقى باشا، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٨ .

☐ سيد مرعى: شاهد وشريك على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح [١٩٤٥ - ١٩٨٢]، مكتبة مدبولى، ١٩٩٩ .

☐ محاكمة ثورة يوليو: رجال القانون والقضاء: [دراسة لمذكرات عصام الدين حسونة، ومحمد عبدالسلام، وممتاز نصار، وجمال العطيفى، ومحمد عبدالسلام الزيات، وحسن عبدالغفار، وماهر برسوم]، دار الخيال، ١٩٩٩ .

☐ أوهام الحب: دراسة فى عواطف الأنثى، كتاب الجمهورية، ١٩٩٩ .

☐ الأمن القومى لمصر: مذكرات قادة المباحث والمخابرات: [مذكرات محمد حافظ إسماعيل، صلاح نصر، أمين هويدى، أحمد كامل، حسن طلعت، فؤاد علام]. دار الخيال، ١٩٩٩ .

المحتويات

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٩٠٥ / ٩٩

I . S . B . N 977 - 01 - 6562 - X